
سيرة
مكتبة
ديني ويستهوف
ساغان وابنها
ترجمة: زياد خاشوق

ساغان وابنها



Author: **Denis Westhoff** | اسم المؤلف: ديني ويستهوف

Title: **Sagan et fils** | عنوان الكتاب: ساغان وابنها

Translated by: **Ziad Khachouk** | ترجمة: زياد خاشوق

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2021** | الطبعة الأولى: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017 + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

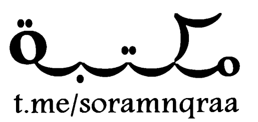
ديني ويستهوف



ساغان وابنها

ترجمة : زياد خاشوق





مقدمة المترجم

في العام 1954، أي قبل ما سُمّي في فرنسا بثورة 1968، أو ثورة الطلاب، أو ثورة «*منع المنع*»، بأربعة عشر عاماً، ظهر كتاب فرانسواز ساغان «مرحباً أيها الحزن». وبين الكتاب الأول وانطلاقة الثورة المذكورة صدر للكاتبة ستة كتب أخرى ولم يتطرق أي منها إلى السياسة أو الالتزام بأي خط أو نهج معين. والآن، بعد كل هذه العقود، ما زلنا نتساءل عن تأثير هذه الكتب، وما تلاها، على الشبيبة والمجتمع في حينها. هل شكّلت، مع غيرها من المؤلفات، الأرضيةَ الفكرية الملائمة لولادة تلك «الثورة»؟ وفي الأحوال كافة، لا شك في أنها كانت وليدةَ عصرها، فأثّرت وتأثرت.

ليس الهدف من الكتاب الماثل أمامنا البحث في هذا الجانب من حياة الكاتبة، وإنما هو إلقاء بعض الضوء على شخصيتها بشكل عام، وفي المقام الأول تصحيح الكثير من الأخطاء التي وردت عند من تنطّعوا لكتابة سيرة حياة فرانسواز، أو إلى تفسير وتحليل سلوكياتها في الحياة. في الحقيقة لقد اختلط في كتابات كل أولئك الكثير من الأغلاط والتهيّؤات ومن التهويل وربما التضليل (بحسب رأي ابنها كاتب هذه الصفحات).

من هي إذن فرانسواز ساغان؟ وهل يمكننا وصفها بقولِ أَخْطَلِنا الصغير:

قلب تمرّس باللذات وهو فتى
كبرعم لمسته الريح فانفتحا؟

إنها فتاة برجوازية نعِمَت، ضمن عائلتها، بحياة رغيدة، بعيدة عن المشاكل المادية والمالية حتى غدت مثلُ هذه المشاكل شبهَ معدومة لديها. حياتها الدراسية متعثرة وغير مستقرة. الدروس تضجرها وتسقمها أو أنها

تراها دون مستوى طموحها، وهذا ما دفعها إلى الهروب من الدروس النظامية. ولكن أين كانت تمضي وقتها قبل العودة إلى المنزل مساء كل يوم؟ في حي سان ميشيل (الحي اللاتيني)، وغيره من الأماكن حيث تمضي وقتها في قراءة كتّابها المفضلين وفي لقاءاتٍ مع بعض رموز الفكر في تلك الفترة وعلى رأسهم جان بول سارتر. من هنا اغتذت، واغتنت، شخصيتها الأدبية وراحت تحلم بكتابة رواية. وما هي إلا أسابيع قليلة، أو أشهر معدودات، حتى ظهرت روايتها الأولى «مرحباً أيها الحزن» فانتشرت كانتشار النار في الهشيم. وراحت الطبعات تتالى وبأعداد هائلة وبدأ المال يتدفق. ثم جاءت جائزة النقاد وجاء اهتمام الأوساط الأدبية والفكرية، على تعدد اتجاهاتها، من التيارات التحررية التقدمية إلى التيارات التقليدية. من سارتر وكامو إلى فرانسوا مورياك. كلّ هذا وهي لم تبلغ رسمياً سنّ الرشد! ولا ننسى أيضاً علاقاتها مع شخصيات كبيرة من ضمنها رؤساء جمهورية. ألا يكفي هذا لجعلها أسطورة في عالم الكتابة؟

لا بد لي أيضاً في هذه المقدمة من قول كلمة صغيرة حول أسلوب كاتب هذه السيرة، فهذا من حق القارئ علينا. صحيح أنه ابن كاتبة شهيرة وأنه واكبها في معظم فعالياتها الأدبية والفنية إلا أنه يعترف، منذ البداية، بأنه ليس كاتباً. مما يعني أنه يهتم بالمضمون أكثر مما يهتم بأسلوب الكتابة وبالصياغة. وهذا يتضح من خلال بعض الإطالة في الجمل، والتنقل المفاجئ من فكرة إلى أخرى، وكثرة العبارات المعترضة مما جعلها متداخلة. فما تكاد تنتهي إحداها حتى تبدأ الأخرى، لذا حاولت على قدر الإمكان التخفيف منها أو أشرت إليها بوضعها بين قوسين (...) منعاً للالتباس.

أما الأسماء فقد أوردت إلى جانب البعض منها كتابتها بالحرف اللاتيني من أجل توضيح لفظها وكذلك تركت بعض العناوين (كأسماء الأغاني على سبيل المثال) كما هي دون ترجمة.

كما أنني أضفت بعض الحواشي بقصد جلاء بعض ما جاء في النص بخصوص ظروفٍ أو أشخاص ورد ذكرهم في الكتاب، أو من أجل توضيح انتقال مفاجئ من فكرة إلى أخرى، علماً بأن الكاتب لم يضع سوى ثلاث حواشٍ سوف نشير إليها في موقعها بكلمة (الكاتب)، إلا أنه أشار في بداية

الكتاب إلى أن كل اقتباساته المتضمنة في متن النص هي من كتيّب بعنوان «نظرة ما» صدر في العام 2008، بعد وفاتها، وهو عبارة عن تجميع لحوارين سبق أن أجرتهما الكاتبة، الأول بعنوان إجابات في العام 1975، والثاني بعنوان ردود في العام 1992، مما يشكل مصدراً غنياً بالمعلومات عن حياتها وعن مؤلفاتها.

أخيراً، لا يسعني إلا أن أتمنى لك، عزيزي القارئ، قـراءة ممتعة مفيدة وغنية.

زياد خاشوق

تقديم

لا يُخطئنَّ أحدُ الظن. أنا لست كاتباً، ولا أنا بمالكٍ لحقيقةٍ مطلقة. لقد حاولت جاهداً على مدى هذه الصفحات تدوينَ الوقائع التي كنت شاهداً عليها. شاهداً متيقّظاً أحياناً، ومتسليّاً أحياناً أخرى. وحتى شاهداً منبهراً من وقت إلى آخر. ولكنني لم أكُن قطّ شاهداً سلبياً عليها، عديم التأثر. وأيّاً كانت الصبغة التي يصطبغ بها هذا الكتاب من حسن النية، ومن الصدق، ومن الأمانة، ومن التعلّق بوالدتي، فإنه يظلّ انعكاساً لحقيقتي. فالمكانة المميّزة جداً التي شغلتها بقربها تضعني الآن في موقفٍ غير مسبوق تقريباً، ومُلزِم. موقف مصحّحٍ لأخطاء كتّاب السِّيَر[1]. إنني أراهم جيداً، أولئك الذين يتوقعون مني أن يوجّه هذا الكتاب ضربة مكنسة على كل ما سبق أن قيل، وحُوّلَ، وكُرّرَ، حول حياة والدتي منذ سنوات. وأراهم أيضاً جيداً أولئك الذين اندفعوا قبلي في رواية حياة ساغان، والذين لابدّ أنهم يرتعدون الآن.

أُكرر قولي، إنني لا أمتلك الحقيقة المطلقة وغير القابلة للدحض عن والدتي، فإن موقعي بقربها لم يسمح لي بالإفلات من أسطورتها. وربما أخون ضميري لو أكّدت أنني لن أختبئ خلفها أبداً. وإذا كان من الصعب على ولدٍ المقارنة بين والدته وبين أسطورةٍ هائلةٍ إلى هذه الدرجة، فإنه من الصعب أيضاً الدّأبُ على جعل هذه المِرآة المُشوِّهة مُطابقة للواقع إلى أبعد حدٍّ ممكن.

1- ربما كان الدافع الرئيس الذي حدا بالكاتب إلى كتابة هذه السيرة هو الرد على كلّ كتّاب السيرة الذين سبقوه، والذين شوّهوا صورة فرانسواز ساغان إرضاء لرغباتهم أو لمتطلبات تسويق كتبهم، ولذلك لم يذكر أيّاً منهم بالاسم الصريح بل اكتفى بقوله: كاتب / أو كاتبة السيرة، وهذا ما سنراه على مدى صفحات الكتاب.

إنني لا أمتلك إذن، إن جاز لي التعبير، سوى جزءٍ بسيطٍ من حياة والدتي. لقد قمت بعمليةٍ حسابيةٍ سريعة. فلو حذفنا اللحظات التي لم أكُن فيها موجوداً بعد، وتلك التي كنت فيها موجوداً إلا أنني بقيت معنّداً على عدم التلفّظ إلّا بالكلام المغمغم، وتلك التي أبعدتنا فيها الحياة أحدنا عن الآخر، (الأسفار، والغزوات، والتنقل بين البيوت، والفترات العصيبة)، فقد أمضت والدتي نصف حياتها معي. (في حين لو أننا حذفنا هذه الفترات نفسها من حياتي للاحظنا أنني، في يوم رحيلها، كنت قد أمضيتُ أربعة أخماس حياتي معها). وعلى هذا لا أكون شاهداً، مهما كان تيقّظي وموضوعيتي، إلا عن نصف حياةٍ. وزيادةً في تأثير هذا العمى النصفي، مما قد يصيب القارئ بخيبة أمل، فإنني لم أدخل حياتها إلّا بعد ما أسمته «المعمعة» بوقت طويل، والتي بدأت مع ضجة انتصار نجاحات روايتها الأولى. لم أكن إذن هناك لأرقص رقصات تشاتشا المجنونة مع عصبةٍ من الفتيان المرحين حتى ساعات الصباح الأولى في إسكيناد سان تروبيه[1] Esquinade de Saint-Tropez، والانطلاق بمحاذاة الطريق الدولي رقم 7 المقفر، في منتصف الليل، والذي لا تُضيئه سوى النجوم وأضواء سيارة جاغوار XK140 مُنطلقة بأقصى سرعتها، وللتعرف إلى باريس عندما كان يُمكن اجتيازها بعشر دقائق، إذ إنه لم يكن هناك ازدحام سيارات، أو لأتّخذ مكاناً قرب الأمير فاروق الجالس إلى جانب الآغا خان أمام طاولة سكة الحديد[2] في كازينو مونتي كارلو وسماع والدتي تطلب الـ «بانكو[3]».

لم يكن أيضاً بإمكاني التواجد عندما تشكّلت أسطورتها الذائعة الصّيت، إذ إن ذلك حصل في الفترة نفسها تقريباً ما عدا بعض الاختلافات البسيطة. ولكن بعكس كل ما قدَّمَتْه من وصف، حقيقي أحياناً، وأحياناً أُخرى غير حقيقي، وقد اختفى في يومنا هذا، فإن أسطورتها ما تزال ماثلةً للعيان. بالطبع، لقد مضى عليها ردح من الزمن، وأصبحت الأوقات عصيبةً منذ أنْ لم تعُد ساغان موجودة لترتكب حماقاتها. لم تعُد الظروف مؤاتية لتحظى أسطورة ساغان بحياةٍ سهلة. بطريقةٍ ما، وبسبب طبيعة الأشياء تقريباً، أنا الذي استعدتها

1- الإسكيناد، مطعم ومقهى على شاطئ سان تروبيه، أو كما يلفظها البعض سان تروبيز.

2- إحدى ألعاب البوكر.

3- المقامرة بكل شيء ضد الصندوق.

اليوم، أنا الذي لممتها. لا أستطيع القول إنها غير مزعجة بهوسها، بتكرار نفس القصص طيلة الوقت، ولكنها في أعماقها أمْيَل إلى المرح، ومريحةٌ إلى حدٍّ بعيد. مرحة، في حقيقة الأمر، لأنّ «علب الليل والويسكي والفِرّاري، أفضل من المطبخ والحياكة والتوفير» كما كانت تقول والدتي. ومريحة، لأن الناس يميلون إلى التأقلم معها والاعتياد عليها. يمكنني تشبيه هذه الأسطورة بشريكة سكنٍ ثرثارة، مزعجة نوعاً ما، إلا أنها دائماً صاحبة مزاجٍ مرِح، ويمكنك أن تعهد إليها بزوّاركَ الأكثر إزعاجاً، أولئك الذين لا تتمكّن في نهاية السهرة من التخلّص منهم. ولكن السحر الرئيس في هذه الأسطورة، وما يميّزها بشكلٍ خاص جداً بالنسبة لوالدتي، هو أن لديها كومةً، وأكاد أقول حشداً، من القصص لترويها. وأعتقد أن القليل من الشخصيات (من الناس pipaule[1] كما شاهدت ذلك مكتوباً في الصحف ذات يوم) ممن تميّزوا بأسطورة غنيةٍ مثل هذا الغِنى، متنوّعةٍ مثل هذا التنوّع، دامت حياتهم وحيويتهم كما جرى لها. في ذروة مجد والدتي، على مدى الأشهر، ومن ثمَّ السنوات التي تلت «مرحباً أيها الحزن»، كانت الأسطورة قد بلغت شأواً بعيداً لدرجة أنها التهمت عملياً اسمها وشهرتها ككاتبة. لم تعُد ساغان سوى أسطورة. وحتى يمكننا القول، نوعاً ما، إنه قد أصبح هناك *أسطورة اسمها ساغان*.

هناك سلسلةٌ غريبةٌ من الأحداث أتاحت للأسطورة أن تولد، وأن تكبر، وأن تغدوَ على ما هي عليه. في البداية، كانت هناك الفضيحة التي أثارها الكتاب: قصة فتاةٍ تمارس الحبّ مع فتىً، في خضم بعض التعقيدات العاطفية المشبوبة، من دون أي اكتراث بالعواقب الأخلاقية. ولكن ما أثار كل شيء هي جائزة النقّاد، ومقال فرانسوا مورياك في الفيغارو، حيث وصف فرانسواز ساغان «بالعفريت الصغير الفاتن»[2]. وهذا ما ردّت عليه بأنها

1- الكلمة الانكليزية people كان البعض، على ما يبدو، يخطئون في لفظها وفي كتابتها

2- monstre هذه الكلمة تعني (مسخ، وحش،...) ولكنها تستخدم أحياناً، وبشكل خاص مع الأطفال وصغار السن، للتحبب، وبصيغة المذكر. فقد استخدمها نابليون في رسالة يعاتب فيها زوجته جوزفين قائلاً: (petit joli monstre!). تُرجمت أحياناً في بعض المقالات أو الكتب بمعنى (المستوحشة، المتوحشة، الهولة...) ولكنني وجدت كلمة عفريتة هي الأقرب إلى ما نستخدمه في كلامنا العادي مع الأطفال.

ليست لا صغيرةً ولا فاتنة ولا عفريتاً. وهناك أيضاً كونها صغيرة السن، وهي الصفة التي تلقّفها الكثير من الصحفيين لبيع أوراقهم وإذاعة دعايتهم. نفد الكتاب بسرعةٍ، بمئات الألوف من النسخ، بشكلٍ يكفي لأن يُصبح ما يُسمّى ظاهرة، وليُكلّل والدتي بشمس *المجد*.

وهكذا من الفضيحة وُلِد المجد، ومن المجد وُلِدت الأسطورة. إلا أن هذه الأخيرة كانت مُربِكةً جداً، ولصيقةً جداً، حتى إنه تولّد لدى والدتي انطباعٌ بأنها ليست سوى شيءٍ، شيءٍ محرومٍ من أيّ قوام، من أي تفكير، ومن أي ذكاء، سجينة شخصيّتها التي صار من المستحيل التخلص منها. «أصبحتُ بطلةَ رسومٍ متحركة اسمها ساغان. ما عادوا يكلّمونني إلا عن المال، عن السيارات، وعن الويسكي. ورحت أتلقّى ثلاث أو أربع رسائل شتائم في الأسبوع».

وبشكلٍ مذهل، وأيّاً كانت النقائص التي نجدها في الأسطورة، فإنها ما تزال متواجدةً هنا، وتمنح الحياةَ وجهاً مرحاً، مفعماً بالجرأةِ، ونيّراً يُفرِح، بل يجدر بي القول «ينزع الحزن» عن بداية هذه الألفية التي تحمل وجه الرتابة الهزيل والمُهترئ. إذ إن في أسطورة ساغان عطوراً (*خلاصات*) منسيّة توقِظُ فينا تلك الفكرة *الساغانيّة* المحضة، وبعبارة أشمل الكونية، عن السعادة.

وعلى هذا عندما اقترحَ عليّ جان مارك روبرتس أن أنطلق في كتابة كتابي عن ذكرياتي مع والدتي، عرفتُ أن عليّ القبول بجدوى أسطورتها، أو بالأحرى أن تقنع أسطورتها بي. بالطبع، كانت فكرة مثل هذا الكتاب تراود عدداً لا بأس به من الأشخاص منذ بعض الوقت، وانتابني شعور بأن هذا الأمر قادمٌ، بأنه يتضخّم، وكنت أعرف أنني لن أفلتَ من ذلك، ولكنني تذرّعت دائماً بأنه مازال لديَّ بعض المشاكل الضريبية التي ينبغي عليّ تصفيتها، وأن فكري ليس مستعداً للكتابة. كان فيما بيننا، هي وأنا، بعض الحسابات علينا تصفيتها. إنه لأمر بسيط، إذ إنني سأستخدمها لدعم حقائقي. وعلى هذا، ما الذي يُمكن أن تعترض عليه. كنا سنكدُّ أنفسنا، معاً، في استذكار ماضينا. سنحاول أن نكون طليقَي اللسان، وسأعمل جهدي على التكلّم بمصداقية.

الآن وقد أصبح لدينا كتابٌ علينا إنجازه، وفي حين أنّه في هذه اللحظة

أصبحت الأسطورة شبه غائبة، وأنها صارت باهتةً بعض الشيء، اقترحتُ عليها المجيء للسكن عندي. قررنا لبعض الوقت، *لزمن الكتابة*، العيش معاً. خصّصت لها الغرفة الصغيرة في أقصى الممر، إلى اليسار. ومن هناك، يمكنها محاولة إحداث الضجة، والهذر كما تشتهي، فلن أسمعها.

ليس هناك أدنى شك في أن الأسطورة ستبتهج بهذا المشروع، إذ إن الناس سوف يعودون أخيراً للاهتمام بها من جديد، هي التي لم تعد تعيش حقاً إلا بالوكالة، هي التي لا تحب أن تبقى وحيدةً، التي لا تحب أن يكلّمها الناس عن الكتب، وعن المسرح، وعن الالتزام، أو أيّة أشياء جدية. من جديدٍ، سنتمكن من الكلام عن الصّخب المَرِح، وعن الويسكي، وعن السيارات السريعة، وعن موائد الروليت، وعن المال المُكتسَب بسرعة، والموزّع بالسرعة نفسها، وعن الفضائح المالية، وعن الرحلات المنظّمة، وعن الضرائب غير المدفوعة، وعن الغراميات المحظورة، وعن نقل مواد غير مرخَّصة. ولا بدّ أيضاً للأسطورة من التفكير بأنها، وبنفس الطريقة التي حصلت مع بعض كتّاب السيرة (وبشكلٍ خاص مع الأخير)، سوف تتمكن من أن تحتلّ المكان كله في صفحاتٍ هذا الكتاب، وأن تغذّي كذباتٍ جديدة. لا، هذه المرة لن يحصل الأمر على هذا النحو. بل سنقوم بعكس ذلك. إنني سأستخدمها هي، التي أعرفها عن ظهر قلب، وسأستخدم الحقيقة التي أعرفها بعض الشيء، من أجل إعادة التوازن. ذاك التوازن الذي طالما قُوبِل بالسخرية، وما زال عرضة لها حتى وقت قريب.

فحتى لو أنّ الأسطورة الحاملة في نفسها صور المرح واللامبالاة والجرأة والحرية لا تهمني كثيراً، فإنني، في المقابل، لا أحتمل أن نُشوّه صورتها لمجرّد إبراز ذاتنا ووضع أنفسنا قبل تلك التي يُفترَض فينا أننا نوثّق حياتها. أقصد بكلامي هنا كتّاب السيرة الغشّاشين، أولئك الذين اعتبروا أنفسهم متحرّرين من قيود الحقيقة لمجرد كونهم كُتّاباً، وسمحوا لأنفسهم في حياة فرانسواز ساغان، *حياة والدتي*، بحرياتٍ غير مقبولة. إنها غير مقبولة لأنها تُورِدُ أقوالاً مُفترَضة ومختلقة. وعندما يكون الكاتب صحفيّاً (كما هي الحال في الحقيقة)، تتضمّن تلك السِيَر هفواتٍ مهنيّة جسيمة، من حيث إنها تُثبّتُ أفعالاً على أنها حقيقية، بينما هي غير محقَّقٍ فيها وغير مثبتة. أقوالهم تتعرّض بالأذى لوالدتي،

لصورتها، ولكن أيضاً لأصدقائها، لأولئك الذين أحبّتهم واحترمتهم، وقد نال البعضَ منهم الأذى كما نال والدتي. سأذكر، على سبيل المثال، مقطعاً من كتاب كاتبة السيرة تلك، وهو أحد الكتب التي أدهشتني أكثر من غيرها، والذي تتكلّم فيه عن السترة المفتوحة زاعمة أنها ثُقبت بحروق السيجارة، وعن هوَس والدتي بسحق أعقاب سجائرها بجانب منفضة السجائر. ما فائدة كتابة ذلك منذ الصفحات الأولى في كتابٍ يدّعي أنه يروي حياة كاتبةٍ مثل فرانسواز ساغان؟ ما الذي يجعل من هذه المعلومة أمراً جوهرياً من أجل فهم الكاتبة وأعمالها؟ تولّد لديّ شعورٌ بأنّ كاتبة السيرة حرصت، منذ مطلع الكتاب، على إعطاء صورةٍ مُذلّةٍ عن والدتي. وعلاوة على أن هذه المعلومة غير جوهرية، فإنها أيضاً مغلوطة. وإذا ما سلّمنا بأن والدتي كانت تلبس أحياناً الجينز، والسترات المفتوحة، فإنها ما فتئت تعتني عنايةً شديدةً بمظهرها. وبحسب ما أذكر، لم تظهر على الإطلاق أمام الجمهور، على منصة التلفاز، أو عند أصدقاء، أو في بيتها بحضور الآخرين، دون أن تكون قد وضعت بعض المساحيق على وجهها، ودون أن تكون قد صفّفت شعرها بضربة مشط، ودون أن يكون فوق جسمها لباسٌ نظيفٌ على الدوام، ومكوي، حتى لو كان «سبور». وأنا أتحدّى الآن أيّ شخص أن يذكّرني بلحظة واحدة ظهرت فيها والدتي على التلفاز، في أبوستروف Apostrophes[1]، أو في أيّ برنامجٍ آخر، في مظهرٍ غير لائقٍ من حيث الملبس والهيئة. إن مبادئ التربية البرجوازية الشديدة الصرامة، التي ورثتها عن أهلها، كانت تُخضعها للالتزام بالهندام المُحتشم دائماً مع الآخرين. ويُضاف إلى كل هذا احترامُها العميق لحرية الآخرين، وشغفُها باللباقة. إذ إنها، باعتنائها بمظهرها بهذا الشكل تجنّب الآخرين أن يوضعوا في موقفٍ قد يتسبّب لهم بالإحراج أو بالضيق.

لو تخيلنا أن قصة السترة المثقبة صحيحة، لاعتقدت، وبحسب المنطق، أن هذا العدد غير القابل للإحصاء من الثقوب سيتطابق، من دون أدنى شك، مع عددٍ مماثلٍ غير قابل للإحصاء من كتل الرماد المتوهّجة التي لا تنفكّ تسقط عليها على غِرار مطرٍ حقيقيٍّ من نيازك صغيرة. وإذا ما كانت هذه

1- برنامج مقابلات تلفزيونية أدبية بإدارة برنار بيفو استمر بثه على القناة الفرنسية الثانية من 1975 إلى 1990.

النيازك متوهّجةً لدرجة أنها تخترق الملابس، فلابدّ أن ينتهي الأمر بها إلى حرق جلدها، جذعها أو ذراعها. ولكن ليست لديّ أيّة ذكرى عن والدتي وهي تتشكّى من مثل تلك الحروق. وحين نتابع قراءة تلك الصفحة الأولى، لا يمكننا تصديق كذلك أن والدتي كانت تسحق أعقاب سجائرها على الطاولة، بجانب المنفضة. وعندما تروي كاتبة السيرة أنها «بعد أن غادرت» (من هذا الحوار) كان «دماغها فارغاً»، فإنني أرجّح أنه كان فارغاً دون شك من قبل، وبقي كذلك عندما كتبت تلك السطور.

وإذا ما كنت أعبّر عن استيائي من مثلِ هذه الصراحة، فهذا عائدٌ إلى أنني لا أحب هذه الصورة التي تُقدّم عن والدتي، صورة امرأة ذات مظهر فظ، امرأة مهملة حتى لأبسط التزاماتها بالاحترام، وبالسلوكيات الحياتية، امرأة تائهة في عالمٍ غنيٍّ، وبوهيمي، عالم شخصٍ يمارس نوعاً من الفوضى ومن اللامبالاة الدائمَين. ليست هي تلك المرأة التي عرفتُها. ليست هي المرأة التي عرفناها جميعاً خلال ما يقرب من أربعين عاماً. وإنما هو العكس تماماً. ومن أجل اختتام هذه النقطة من الموضوع، فإنني لن أتردّد في ذكر صفاقة كاتبة السيرة تلك، وفي هذه المرة الصفاقة مُثبتة، عندما استنسخت في كتابها مجموعةً من الصور التقطها بيير كواريز، والد والدتي، من دون ذكر اسمه، ومن دون طلب الإذن بذلك، وبالطبع من دون أن تشكر أحداً.

لقد تقاسمنا، أنا ووالدتي، ثلاثين سنةً حقيقية من المرح، من المفاجآت، من التفاهم، والفكاهة، ورهافة الحس، والأفكار. إنّه تفاهُمُنا، رابطُنا *الشفاف*، وتَمكّنُنا في معظم الأحيان من فهم أحدنا الآخر دون تبادل الكلام تقريباً (على غرار ذلك التواطؤ الشديد الخصوصية الذي أقامته مع برنار فرانك وبعض الآخرين)، الرابط الذي كان يجعلنا نتّخذ مواقف متماثلة حول العديد من الموضوعات، ونتشارك الحماسة نفسها أو الاستنكار نفسه. وباسم هذا التواطؤ، وهذا التفاهم الشغوف جداً، والحيوي جداً، كان لزاماً عليّ تصحيح تلك الأساطير، وتقويم بعض تلك المرايا المشوِّهة التي تعكس حقيقةً ليست حقيقتها، متناسيةً حماستها، وقدرتها على الخيال، وجرأتها وحريتها. لا أرى أي بأسٍ بالتهيّؤات، لا أرى أي بأسٍ بالأسطورة، إلا أنها ينبغي أن تكون معقولةً، ومطابقةً لما كانت عليه والدتي.

إحدى أشهر الأساطير وأكثرها مقاومةً لصروف الزمن، إذ إنها ما تزال ساريةً حتى يومنا هذا بعد حوالي ستين عاماً (وقد سمعتها خلال إحدى مآدب العشاء منذ بضعة أسابيع)، هي تلك التي تُشير إلى والدتي وهي تقود سيارات سباقها حافية القدمين. منشأ هذه الأسطورة أحد صحفيي مجلة باري ماتش Paris Match الذي باغت ذات يوم والدتي وهي عائدة من الشاطئ، جالسةً في سيارتها (ربما كانت سيارة جاغوار أو أستون مارتين)، حافية وقد وضعت قدميها خارج السيارة لأنها في الواقع كانت تحاول نفض الرمال التي علقت بها. لا شك في أن شاعرية هذه الصورة، التي تُلمح إلى أن ميلها إلى الحرية كان يمضي بها إلى جعلها ترفض حجز قدميها الصغيرتين في حذاءٍ من أجل قيادة السيارة، أثارت إعجاب الجمهور الذي وجدها (على الرغم من أن القصة غير صحيحة) مطابقةً تماماً للصورة التي قد اختزنها عنها، وأنا لا يجرحني أن يمضي المرء إلى التفكير بهذه الطريقة عن والدتي، بل إنه، على العكس، يطمئنني. إذ في هذه الحالة كيف يمكن تصديق قصة السترة المثقوبة تلك؟ فمثل هذه القصة ينبغي أن تزول بزوال السيرة التي استُخرجت منها. أما أسطورة القيادة حافية القدمين، فإنها في منتهى الروعة. فأي فائدة أجني من إنهاك نفسي في ضبط بعض المرايا، وفي إثبات بعض الحقائق، إذا كانت هذه الأمور أموراً مسلية وتُبعد عنّا الضجر والملل.

وإذا ما كانت الأسطورة، من جهة وجهها المشرق جداً، سترافقني خلال الكتابة، يبقى الجزء الجوهري في هذا الكتاب مرتبطاً بأنني سأرويها هي، فرانسواز ساغان. وعليّ إحياؤها من حيث إنها والدة وامرأة، امرأةُ فكرٍ، امرأةٌ غريبةُ الأطوار، امرأةٌ نزويّة أحياناً، وامرأةٌ هشّة أيضاً. وسأحاول جهدي أن أبقى في الظل أكثر ما يمكن، إلا في حين يصبح وجودي أمراً لا يمكن الاستغناء عنه على الإطلاق. ومثلها، أعتبر أن المرء عندما يتكلم عن ذاته، وعندما يستذكر ماضيه، يغدو في معظم الأحيان مضجراً، إذ إنه سيكون شديد المراعاة والتسامح مع ذاته. ولكن كيف يمكن وصف امرأةٍ استثنائيةٍ كما كانت فرانسواز ساغان؟ كيف لي التذكير بذكائها، بحدّة بصيرتها، بصفاء ذهنها، وبحصافة نظرتها إلى الناس، بفكاهتها، بمرحها، بخيالها الخصب، بكرمها، بتفهّمها، وأقصد بهذا تفهّمها للعالم وللكائن البشري، ذلك الفهم

الذي يجمع إلى البساطة الشديدة، عمق التفكير، ووضوح الرؤية؟ كيف أروي حسها بالصداقة النادر جداً؟ كيف أتكلم عما جعلها المرأة الأكثر أخلاقيّةً في عصرها، رغم أن الجميع وصفوها بأنها الأكثر لا أخلاقية في جيلها؟ نظراً لكونها كانت حرةً ومستقلةً بشكلٍ مجنون لا حدود له وعن سابق تصميمٍ بالنسبة لعصرها؟ وأنها ما تزال حتى الآن تُذهل البعض إلى درجة أنهم صاروا يُعاملونها على أنها أيقونة؟

كانت والدتي تتمتع بذكاءٍ لا يمكن أن تجد له نظيراً ما حييت. ذهنها يمضي بسرعةٍ كبيرة حتى ليُخيَّل إليك أنها تتجاوب بشكلٍ تلقائيٍّ تماماً، بردّ فعلٍ أكثر مما بفعل العقل، كما لو أن الأمر يصدر عن الغريزة (سوى أنها، برأيي، كانت معدومة الغريزة تماماً). وأعتقد أن ذكاءها هو الذي منحها هذا الفهم الغريزي تقريباً للعالم، لنا نحن الكائنات البشرية التائهين على هذا الحيّز البسيط من الأرض. كان لديها إدراكٌ مباشر لجوهر الأشياء، وربما كان إدراكها للسعادة هو أصدق إدراكٍ يمكن لإنسان التمتع به، إذ إن السعادة هي حقاً التي قادت حياتها في معظم الأحيان. كانت شريكتَها المتواطئة معها، وحليفتها وهذه السعادة التي كانت تُدرِك تماماً معالمها وجوهرها، هي التي جهدت طيلة حياتها في توزيعها، وفي تقاسمها مع الغير. كان ذكاؤها يدفعها نحو الآخرين أما كرمها فلا يترك أيّ مجالٍ للخسّة، وللنوايا السيئة. قد تبدو هذه الصورة عنها ساذجةً نوعاً ما، إلا أن والدتي، بكل بساطة، لم تكن تفهم كيف يمكن للمرء أن يكون خبيثاً، قميئاً، شحيحاً، أنانياً، مدّعياً، سليط اللسان، جباناً، غير متسامح، عنصرياً، ضيّق الأفق، بخيلاً؛ وعدم فهمها لمثل هذه الأمور لم يكن ناتجاً عن حكمٍ تقييميٍّ من أي نوعٍ مهما كان، فهذا ما كانت تمتنع عنه بطبيعتها. هذه الكلمات، وهذه المواقف، هذه الأساليب الحياتية خارجة عنها بكل بساطة. كانت تُضجرها، أو كما تقول «تقتلها» لدرجة أنها أصبحت غير نفوذٍ لها. للأسف تسبَّبَ لها لطفها وكرمها اللذان يَصِلان أحياناً إلى حدود السذاجة، بآلام كبيرة (لم تحاول إظهارها قط) في بعض فترات حياتها. وبما أنها تتخذ مبدأ عدم التسبب للآخرين بما لا تريدهم أن يتسبّبوا به لها، لم تكن تتصرف قط بطريقةٍ تُذلّ الآخر. وإذا ما وُجّه الذمّ لمجموعةٍ ما، أفارقة، يهود، صينيين، أو لأية طائفةٍ أو مجموعةٍ، فإن ذلك يصيبها بالدهشة.

لم تكن تفهم أن يحاول البعض إيذاء أحدٍ ما وإذلاله، وبشكلٍ خاص تجاه أحد أصدقائها. لم تكن تقبل أن يعتدي أحدٌ ما على شخصٍ أضعف منه، على مريضٍ، على شخصٍ عجوز (كانت تكنّ حناناً خاصاً لكلٍ من يكبروننا عمراً، فهم في نظرها جديرون بكلّ اهتمامنا)، على طفلٍ، أو دبٍّ، أو حصانٍ، أو كلبٍ أو قط. وقد صُعِقَتْ إلى حد كبير وخاب أملها عند خيانة ذلك الذي كانت تعتبره صديقها، والذي لعب دور وسيطٍ في «عملية Elf»[1] المشبوهة، حتى إنها ملأت صفحاتٍ كاملة في إحدى كراساتها التي تحتفظ بها دائماً بقربها، وعبّرت فيها عن عدم فهمها، وعن ألمها، وعن غضبها. لقد هَزِئ هذا الرجل بكل ما هو، بالنسبة لها، أمر لا يمكن المساس به: صداقتها وثقتها. كانت تقول «من الأفضل أن يجعل المرء نفسه يقع ضحية غشّ شخصٍ ما، من عدم الثقة به؛ هذا ما أنا متأكدةٌ منه، القاعدة الأخلاقية الوحيدة، إذا كان هناك مثل هذه القاعدة، أن يبقى المرء، وعلى قدر الإمكان، طيباً تماماً، ومنفتحاً تماماً؛ فليس هناك ما يخسره».

وبقدر ما كان عدم تفهمها لكل ما من شأنه جرح الغير، أو صدمه، أو التسبب له بالمعاناة، معنّداً بشكلٍ لا يمكن علاجه، كانت تبرهن عن أكبر قدرٍ من التسامح، لا بل إنها تميل ميلاً شديداً نحو كل ما يتعارض مع تلك المواقف أو الممارسات الوضيعة. فمراعاة الآخر، والمودة، والفكاهة، والحنان، والحب، والشغف، ليس لها حدود عندها. ففي هذا تكمن كل مبالغاتها المفرطة أكثر مما تكمن في القمار، أو المال، أو السيارات، أو السرعة. كانت تحب بإفراط، تستخدم الفكاهة بإفراط، تعطي للغير ولذاتها بإفراط. هنا يكمن عدم تعقلها، لا في كلّ ما قيل أو كتب عنها. وهي في هذا مئة مرة على حق.

1- اسم أطلق اصطلاحاً على إحدى شركات البترول وقد حاول أحد الأشخاص توريط فرانسواز (مدّعياً صداقتها) في وساطة لدى رئيس الجمهورية من أجل تأمين عقود لها في دولة أوزبكستان.

-1-

عندما تكلمني والدتي عن طفولتها، وعن شبابها، تُخضِع دائماً ذكرياتها إلى عملية فرز. تضع النواحي المأساوية من جهة، حيث تبقيها مخبّأة، محمية عن ناظرَي بنوعٍ من الخفَر الكبير؛ ومن جهة أخرى، فترات السعادة، الفترات المضحكة، تلك التي بإمكانها كشفها لي. اللحظات الكئيبة أو المضجرة، إذ لا بد أنها كانت موجودة، لم تكن ترويها لي؛ الذاكرة انتقائية، على حد تعبيرها، فهي لا ترغب بالاحتفاظ إلا بأكثر الذكريات سعادةً، أو أكثرها إدهاشاً. وعلى هذا لم أحصل سوى على قصصٍ مسليةٍ عن طفولتها. وعندما يحصل لها أن تروي لي أحداثاً قد تبدو جليلةً أو خطرة، تنتقيها من بين تلك التي تؤدي حتماً إلى خاتمة سعيدة أو غير متوقّعة.

أكان الأمر يتعلق بذكرياتها عن سنوات الحرب أو ما بعد الحرب، أو بما عرفَته فيما بعد، في وقتٍ متأخرٍ جداً، عندما كنا نعيش معاً، أعتقد أن والدتي حاولت إبقائي دائماً على مَبعدةٍ من الأحداث الأكثر مأساوية، والأكثر عنفاً، أو الأكثر كآبةً. ورغم تأكدها من عدم قدرتها على حمايتي من كل شيء، كان هناك بعض الأشياء التي تعتبرها على قدرٍ كافٍ من القسوة تمنعها من تقاسمها مع ابنها. وبشكلٍ عام، تلجأ دائماً إلى هذه الرهافة التي تقوم على عدم صدم الناس، وعلى عدم جرحهم بكلماتٍ أو بأفكار. «المأساة أمرٌ بذيء، وبالإضافة إلى ذلك فإنها لا تعلمك أيّ شيء». عندما بلغتُ الحادية عشرة، حدثت كارثةٌ هائلة في صالون دي بورجيه[1]: تحطمت طائرة

1- Salon du Bourget المعرض الدولي للملاحة الجوية والفضاء. خلال العرض الذي تم في 3 يونيو 1973، تعرضت طائرة توبوليف إلى حادث نتج عنه وفاة عشرة أشخاص (الطاقم) وثمانية من الحضور.

توبوليف 144، وهي النسخة الروسية عن الكونكورد، فوق قريةٍ غوسنفيل. كنت في البيت مع والدتي، وشاءت المصادفة أن يكون التلفاز مُشغّلاً في ذلك اليوم وهذا أمر نادر الحدوث. أعلنت النشرة المتلفزة الخبر، ونبّهت إلى أن هناك صوراً سوف تُبثُّ عن الحادثة. حينئذٍ رجتني والدتي بإلحاحٍ الخروج من الغرفة.

وعلى الرغم من أن عائلة كواريز كانت تعيش في منطقة الفيركور (حيث كان جدي مكلفاً بإدارة مصنعٍ في منطقة الدوفينيه في الإيزير في سان مارسلان)، وهي منطقةٌ أصبحت مع حركات المقاومة التي أنشِئت فيها أحد الأماكن الأكثر اضطراباً في فرنسا، حيث جرت بعض أحداث الحرب المأساوية، استطاعت والدتي تفادي أكثر الأعمال عنفاً وفظاعة، ومع ذلك لم تنجُ من رؤية تلك النساء الحليقات الشعر[1] اللواتي عُرضن في شوارع القرية في فترة التحرير، وقد ثارت ثائرة جدتي لهذا المشهد فصرخت: «ليس لكم الحق في فعل هذا. إنها نفس الأساليب التي يستخدمها الألمان». في ذلك اليوم، فَهِمَتْ أن العالم ليس أبيض بالكامل من جهة، وأسود بالكامل من الجهة الأخرى، ولكن الصدمة الحقيقية في تلك الفترة المباشرة لما بعد الحرب، كانت في مدينة ليون، في إحدى قاعات سينما الأحياء، حين اكتشفت برعبٍ أولى صور معسكرات الموت. وبدءاً من ذلك اليوم، لم تعُد تسمح بأن تُقالَ أيةُ كلمة إساءةٍ تجاه إحدى الأقليّات، أو أيّة سلالة، أو أيّ مضطهدٍ في حضورها. رأيتها ذات يوم تشيّع أحد المدعوّين إلى باب منزلنا بأدبٍ، لأنه تكلم بالسوء عن أحد اليهود. وبعد ذلك ببعض الوقت، وكنا على العشاء عند بعض الناس، وللأسباب نفسها، لم أعد أعرف إن كان الأمر يتعلق بيهودي أم بزنجي، نَهَضَتْ عن المائدة، أخذت معطفها وحقيبتها، وشدّتني من يدي، وخرجت. وكذلك، بدءاً من ذلك النهار، لم يعد هناك أي مجالٍ للحديث عن التقارب مع الله. ورغم أني أعتقد، بطريقةٍ من الطرق، أن والدتي كانت قديسة فإنها ملحدةٌ بحق. كانت تؤمن، شأنها شأن فوكنر،

1- بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تعرضت النساء اللواتي تعاملن مع الألمان أو اتصلن بهم أو اشتُبه باتصالهن بهم (حتى دون إثبات) إلى عمليات إذلال علنية ومنها حلاقة شعرهن وعرضهن في الشوارع.

أنْ ليس الدين، وإنما «البطالة هي التي تولّد كل فضائلنا ومزايانا الأكثر قابلية للتحمل: التأمل والانسجام في المزاج، والتكاسل، وترك الناس بسلام، والهضم الجيد الذهني والبدني...»

خلال سنوات الاحتلال، كان بيير وماري كواريز وأولادهما الثلاثة، الذين هربوا من باريس عند وصول الألمان، يُمضون خمسة أو ستة أشهر في بيت سان مارسلان الذي أطلقوا عليه اسم «La Fusilière»[1]، منذ أن أُطلق فيه الرصاص على الناس خلال حرب 1870. وعندما بدأت حركات المقاومة تتوسّع، حوالي نهاية عام 1942، أصبح الألمان شديدي العصبية، وحذرين إلى أقصى حد. ذات يوم، في فترة غياب جدّي عن المنزل، جاء شابٌ إلى باحة المنزل، وسأل جدتي عمّا إذا كان بإمكانه ركن شاحنته خلف المزرعة. جدتي، باستعدادها العفوي لتقديم المساعدة، أجابته: «نعم، بالطبع!». ومن ثم نسيت الأمر برمّته. في المساء، عاد جدي إلى المنزل، وتحادث مع جدتي عن أمور مختلفة، من هنا وهناك، إلى أن تذكرت جدتي الحادثة في منتصف العشاء وقالت بصوتٍ عالٍ: «تذكّرت، هناك شابٌ جاء ليركن شاحنته منذ قليل». مضى جدي ليُعاين الأمر، وكانت الشاحنة مليئة بالأسلحة. حينئذٍ أخذها ومضى ليتركها في أحد الحقول، على بعد عدة كيلومترات عن المنزل، ثم عاد سيراً وقد تملّكه شيطان الغضب. بعد ذلك بقليل، جاء الألمان. كان ثلاثةٌ من ضباطهم قد قُتلوا في الضواحي، ففتّشوا كل شيء: المنزل، والحديقة، والبيوت المجاورة، والمنتفعات، والحواشي. كانت والدتي، وأخوها جاك، وأختها سوزان، ينتظرون وقد أداروا ظهرهم إلى الجدار، والخوف يعتصر أحشاءهم. بعد رحيل الألمان بوقتٍ قليل، عاد الشاب ليطالب بشاحنته ببرودة أعصاب. فاستقبله جدّي، وأدّبه أيّما تأديب.

كانت لعائلة كواريز أيضاً شقةٌ في مدينة ليون، على بعد قرابة مئة كيلومتر من سان مارسلان، حيث سُجلت سوزان في مدرسة الفنون الجميلة. وبدءاً من ربيع 1944، تعرّضت المدينة وضواحيها إلى قصف من قبل الحلفاء.

1- كلمة مشتقة من «fusil» أي بندقية والمقصود هنا المكان الذي حصل فيه إطلاق الرصاص وهي كلمة منحوتة لم أجد لها أي ذكر بهذا المعنى في المعاجم.

وعندما تدوّي صفّارات الإنذار، كانت جدتي ترفض رفضاً قاطعاً النزول إلى القبو، لأنها تجد ذلك المكان في منتهى البشاعة والقذارة. مع ذلك، ذات يوم، كان القصف فيه عنيفاً جداً حتى إنها اضطرّت للذهاب والالتجاء مع الآخرين. خلال الغارة، وبينما كان الهدير مرعباً جداً حتى إن الجدران راحت تهتز، وبدأت كتل الحجارة تتساقط، والناس يبكون مرتعبين، بقيت جدتي في هدوء تام مما دفع بوالدتي وشقيقتها إلى الشعور بشيءٍ من الاطمئنان فراحتا تلعبان بالورق بهدوءٍ ريثما تمر الأزمة. وعندما انتهت الغارة، عاد الجميع إلى الشقة. وما إن فتحت جدتي باب المطبخ حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه مع فأرةٍ، فسقطت مغشيّاً عليها. كانت جدتي، شأنها شأن جدي، لا تخشى أي شيء حتى القنابل. ولكن الفئران تتسبب لها بخوف مريع.

خلال ذلك الصيف من عام 1944، انتسب جاك، شقيق والدتي، إلى الدفاع السلبي. كان بعمر ستة عشر أو سبعة عشر عاماً، وأصرّ أيّما إصرار على أن يؤدّي دوراً مفيداً. كان يُفترض فيه تقديم العون إلى المدنيين خلال القصف، واقتيادهم نحو الملاجئ، والأقبية، أو إلى المستوصفات بالنسبة للجرحى. وعلى هذا، فقد استحصل على التجهيزات: كمامة الغاز، والخوذة، والبزّة الموحدة. ورتّب بعنايةٍ كل تلك الأمور عند أسفل سريره، لاستخدامها في حال حصول إنذارٍ بينما هو نائم. ولكن، في إحدى الليالي، عندما انطلقت صفارات الإنذار في سماء ليون، لم يستيقظ جاك. وقد حرصت جدتي على عدم تنبيهه. لم تكن ترغب على الإطلاق في أن يخرج ابنها في الليل، إلى الشارع، تحت القنابل، معرضاً نفسه لأخطار لا تحمد عقباها، أياً كان نبل القضية التي يعمل من أجلها.

في تلك الفترة، ما كان الناس يجدون ما يشترونه، فراح جدّي، شأنه شأن باقي الرجال، يجوب الريف ويمضي قارعاً أبواب المزارع سعياً لإيجاد ما يبتاعه لسد رمق عائلته. ذات يوم سعدٍ، حظي بحُبيشة (دجاج فرعوني) فراح يعلن لقيته على الناس أجمعين. انتظر أهلُ البيت على عتبة الباب عودة بطلهم. وعندما وصل، فتح صندوق السيارة بحركةٍ استعراضية: «انظروا ماذا وجدت!» أما تلك الحُبيشة، التي لم يكن مقيداً منها سوى قائمتيها، طارت واختفت في سماء مدينة ليون. أغلق جدي صندوق السيارة، وعاد الجميع

إلى الداخل دون أن ينبسوا ببنت شفة. بقيت هذه القصة مبعث تسلية للعائلة على مدى عشرين عاماً.

من هذه السنوات الست التي أمضتها بشكلٍ رئيسٍ في الريف بين فيركور Vercors، وليون Lyon، واللوت Lot، سوف تتولّد لديها تلك الرابطة القوية مع الطبيعة، ومع الحيوانات ومع الحياة. فقد اعتادت أن تذهب كل صيفٍ عند جدتها لوالدتها في كاجار، في إحدى ملكيات العائلة، وهي عبارة عن منزلٍ ريفيٍّ من طراز الإمبراطورية الثانية، ذي سطح من الأردواز. «إنني أعشق الريف. لقد ترعرعت فيه، وبقيت فيه حتى سن الخامسة عشرة، وأعود إليه في أوقات كثيرة. أحب الهواء الطلق، أنا بحاجة إلى الهواء، والعشب، أحب ركوب الخيل، والتنزّه على مدى كيلومترات دون أن أرى أي شخصٍ، أحب الأنهار ورائحة التراب، إنني من التراب». كان عمرها ست سنوات عندما أنقذ والدها الحصان الصغير «بولو» من المسلخ وأهداها إياه. مع بولو الذي تمتطيه دون سرج كانت تمضي في نزهاتٍ طويلة في الفيركور، تلك المنطقة الضائعة والمتوحّشة. «كان بولو عجوزاً، عالي المتن، وأشقر، كما أنه نحيف وكسول. [...] أنا وبولو، كنا نصعّد في التلال ونهبط، نجتاز المروج بشكلٍ عرضاني، وبعدد مراتٍ لا متناهية، ثم الغابات. غابات تعبق فيها رائحة الأكاسيا، حيث كان يهرس الفطر بحدواته الحديدية. [...] يمضي مهرولاً فأشعر بإيقاعه، وأنا منحنيةٌ نحو الأمام، على ساقيَّ وفي صُلبي. كنت في قمة طفولتي، وسعادتي، وغبطتي». كانت تتمتع «بطعم الزمن الذي يمضي على البطيء، زمن لا تصدّع فيه ولا انكسار، ودون ضجيج[1]» تستذكره في «كاجار على البطيء». شعورٌ بالسلام، وبالوحدة، وبالاستقلالية، لن تتمكن على الإطلاق من التخلي عنه.

بعد الحرب، عادت والدتي إلى باريس، وسكنت من جديد في شقة جادة مالزيرب التي كان جدّاي قد غادراها في يونيو 1940. حياتها الدراسية ستعاني من بعض الاضطراب. فقد طُردت من مدرسة لويز دي بيتينييه الخاصة التي

1- فرانسواز ساغان، «كاجار على البطيء»، «منزل مستأجر»، منشورات الهيرن، 2008. (حاشية الكاتب) - هذه إحدى الحواشي الثلاث التي أشار فيها الكاتب إلى مصادرها. بينما بقية الشواهد فهي مأخوذة من كتيب «نظرة ما» كما أشار الكاتب في بداية الكتاب.

كانت في مقابل شقتها. والسبب في ذلك أنها «علّقت تمثالاً نصفياً لموليير من عنقه بشريطٍ إلى الباب» بعد أن حضرت «درساً مُضجراً إلى حد كبير عنه». وإذا ما كان راسين يسحرها (فهي تستطيع أن تلقي صفحاتٍ من إحدى مسرحياته، فيدر أو بيرينيس، وعلى مدى ساعات)، فلطالما أسأمها موليير، وبشكلٍ عميق. ما كانت تحبه في مسرح راسين هو ذلك النموذج الكامل للتراجيديا، الحبكة التي تتولد من تصادم العواطف، وتصوير الشخصيات، وبشكلٍ خاص الوزن الشعري، وموسيقى النص التي هي بغاية الكمال. وأعتقد أن هذا الانبهار براسين هو الذي جعلها لا تكتب سطرين دون أن تضبطهما بإيقاعٍ سليم، ودون أن تكون جملتها متوازنةً تمام التوازن. «إنني أوازن جُملي [...] وأتحقق من الإيقاع. في جملة الرواية، عدد التفعيلات ليس محدداً، ولكن يشعر المرء تماماً إذا ما كانت الجملة عرجاء، وذلك عن طريق توقيع مقاطعها، أو بالتلفّظ بها بصوتٍ عالٍ».

عندما طُرِدَتْ من مدرسة لويز دي بيتينييه، لم تُفصح عن الأمر لأهلها، وأمضت الأشهر الثلاثة الأخيرة السابقة للعطلة الصيفية بالهروب من المدرسة. كل صباح، في الساعة الثامنة، تحمل حقيبتها تحت ذراعها وتمضي للتنزّه في باريس، قبل عودتها إلى البيت في الساعة السادسة مساءً.

وبعد أن أمضت صيفاً باريسياً كاملاً بقراءة سارتر وكامو وكوكتو، سوف تُقبَل في دير العصافير[1]، لتُطرد فيما بعد بسبب افتقارها إلى الروحانية. لابد من التذكير بأنها كانت تلقي أبيات بريفير:

«أبانا الذي في السموات،

ابقَ حيث أنت،

ونحن سنبقى على الأرض الجميلة جداً.»

1- كان في الأصل منزلاً خاصاً من المنازل الفخمة بني في العام 1775 ووضع فيه صاحبه أنواعاً متعددة من الطيور المستوردة. تحول بعدها إلى سجن ضم العديد من الشخصيات الهامة ومن الأغنياء الذين عوملوا معاملة خاصة جداً حتى اعتبره البعض جنة للمساجين. ثم تحول إلى مدرسة داخلية للإناث فمدرسة خارجية عندما درست فيه فرانسواز. بقي اسم دير العصافير عالقاً به رغم جميع التغيرات التي طرأت عليه.

وهذا، بالنسبة لدير، موضع استياء كبير. أخيراً، اجتازت والدتي امتحانَي[1] البكالوريا، وكان أحدهما في الدورة التكميلية في أكتوبر، ثم سُجّلت في السوربون في الدراسات التحضيرية[2]. ولكن المدرّجات تكتظّ في معظم الأحيان بالطلاب. وبسرعةٍ تحوّل الجزء الأساسي من الدروس إلى جولاتٍ مع الأصدقاء في حي سان ميشيل. حيث يُطرَح غالباً في الأحاديث المتدَاولة موضوع الله والماورائيات والسياسة. وعندما يكون المرء بعمر سبعة عشر عاماً في العام 1953، ويهتم بالأدب، فإن المرجعيّات تتجسد على الأغلب في سارتر وكامو، الكاتبين اللذين شغلا تقريباً كامل الساحة الأدبية في تلك الفترة.

أن تكون بعمر السابعة عشرة، وأن تشعر بنفسها بالتأكيد أقرب إلى سارتر من قربها إلى كامو، وأن تكون صاحبة خيالٍ واسع، كل ذلك لا يكفي مع ذلك لتفسير أن تضع نُصبَ عينيها هدف كتابة رواية. الكتابةُ رغبةٌ تتملّكها، نزعةٌ باطنية. وتعرف منذ تلك اللحظة أنها ستتّخذ منها مهنةً، لا بل حتى ستجعل منها حياتها. «كنت أطمح على الدوام لأن أصبح كاتبةً» «مرحباً أيها الحزن» ليس ثمرة المصادفة، ولا نزعة هوى. «مرحباً أيها الحزن» إنجازٌ لتلك المحبة الحقيقية للكتابة، للكلمات، وللأدب. والدتي هي إحدى أولئك الكتّاب الذين قرؤوا كثيراً، الكتاب المثقّفين. هي التي تبرر نزعتها إلى الخيال بقولها إنها نزعةٌ طبيعية في عمرها، راحت تدّعي أمام أصدقائها وأقربائها أنها تكتب روايةً. ولكثرة تكرارها لادّعائها ذاك (ولأنني أفترض أنهم كانوا يسألونها بانتظام عن أخبار نصّها)، انتهى بها المطاف إلى إنجازه. وهكذا وُلِد «مرحباً أيها الحزن» من شغفها بالأدب، ومن ذلك «الالتزام» بأن تُصبح كاتبةً. كان نشر الكتاب مفاجأةً بهرت الناس جميعاً، وهي أولهم.

كانت قد بدأت بكتابة «مرحباً أيها الحزن»، ومن ثم تركته في أحد الأدراج. وقد أسرّت خلال إحدى المقابلات بقولها: «وجدتها غير جيدة». في صيف 1953 أمضت عطلتها في هوسغور وكانت قد رسبت لتوّها في امتحان

1- تقدم الشهادة الثانوية، البكالوريا، على مرحلتين.
2- السنة الأولى من الدراسات العليا قبل البدء بتحضير الإجازة.

الدراسة التحضيرية، وأصبحت عُرضةً للاستهزاء من قبل والدتها وشقيقتها. وإذ شعرت بالضيق، قررت اللّحاق بوالدها في باريس وانزوَت في شقة جادة مالزيرب لمعاودة كتابة روايتها. حين انتهت المخطوطة أرسلتها للطباعة (على الآلة الكاتبة) فإن ذلك يعطي منظراً «أنظف»، وعهدت بها إلى صديقتها فلورانس مالرو فقرأتها دفعةً واحدة. وتحت تأثير مديح ودعم فلورانس، وضعت نسختين من المخطوطة كلاً في مغلفٍ كُتب عليه: «فرانسواز كواريز، كارنو 59-81»[1] وأرسلتهما: الأول إلى جوليار، والآخر إلى بلون. كان قارئو جوليار أسرع من قارئي بلون... وإذ شعر رينيه جوليار بأنه قد وقع على شيءٍ متفرّدٍ بين يديه، اتصل أولاً، وحين وجد الهاتف معطلاً، أرسل برقيةً: «رجاء الاتصال بسرعة بدار جوليار للنشر». رينيه جوليار، وهو رجلٌ من جيل جدي، فاتنٌ، أنيقٌ، مثقّفٌ، قال مباشرةً إنه سيأخذ الكتاب. طُبعت نسخة أولى في مارس، ثم نسخة ثانية، وبعدها جاءت جائزة النقّاد، وكانت هذه الجائزة التي مُنحت في شهر مايو 1954، هي التي أطلقت ما أسمته والدتي «المعمعة الكُبرى». وبشكلٍ مذهل، لم نستذكر تقريباً، لا هي ولا أنا، تلك الفترة التي، مع ذلك، كانت السبب في تغيير منحى حياتها بشكلٍ كامل. منذ ذلك اليوم، وأمام ضخامة النجاح الذي راح يتنامى يوماً بعد يوم، أصبحَتْ محطّ الأنظار، شيئاً يشار إليه بالبنان. بدأ الصحفيون يُطاردونها، ويُرهقها المصورون، وصار يُنظَر إليها كوحشٍ غريبٍ، تُصلى بنار أسئلة يغلب عليها الغباء: «هل مازلت تستقلين الحافلة؟ هل تتناولين عُقَد المعكرونة؟ هل أنت بطلة روايتك؟» لقد أصيبت بالذعر. ومع النجاح، جاءت الفضيحة. لا بل الأصح أن أقول الفضيحة المزدوجة، تلك التي ارتبطت بالكتاب وبالعصر، وتلك التي دمجتها مع سيسيل بطلتها الشابة، مماثلةً بين أسلوب حياتها وأسلوب حياة شخصياتها الفيتزجيرالدي[2] المنحلّ. لقد أحدثت الرواية ضجة كبيرة لدرجة

1- العنوان الكامل المكتوب على المغلف: *Françoise Quoirez, 167, boulevard Malesherbes, téléphone : Carnot 59 81* ويعتقد أن هناك نسخة ثالثة أرسلت إلى دار غاليمار إلا أنها لم تُقرأ على الإطلاق.

2- نسبة إلى الكاتب الأمريكي فرنسيس سكوت فيتزجيرالد 1896-1940، رائد مجموعة من الكتاب عرفت باسم «جيل الضائعين»

أن بعض أصحاب المكتبات رفضوا وضعها في واجهتهم، وراح آخرون يحاولون إقناع الفتيات الشابات بعدم شرائها. كان «مرحباً أيها الحزن» كتاباً حارقاً، كتاباً محظوراً. خلال الندوات، والاجتماعات، والتظاهرات الأخرى التي شاركتُ فيها مؤخّراً لإحياء ذكرى والدتي، حصل أن تقدّمت بعض النسوة لمحادثتي بعد انتهاء المداخلات. كنّ دائماً نساءً من جيلها في معظمهن. تكلّمن معي بمنتهى التأثّر، وحتى إنّهن كنّ مضطرباتٍ بعد استذكارنا لتلك الفترة، فترة ريح الحرية التي أطلقها مرحباً أيها الحزن، تلك الرواية الصغيرة الحجم التي قرأْنها خفيةً، بعد أن أخفَيْنها تحت «الشراشف»، أو في ركنٍ معزولٍ، على ضوء شمعة. وعبر الانفعال الذي استطعت تبيّنه، صرّحن لي جميعاً كم أن ذاك الكتاب كان موسوماً بوصمة العار: «كان يُفضَّل أن لا يدع المرء نفسه يُضبط وهو يحمل هذا الكتاب بين يديه». ولكن أيضاً كم أنه قد أثر فيهنَّ، فتشرّب منه شبابُهنَّ، كم كان كتاباً موحياً، وكم أن الأمور تغيّرت من بعده.

بالإضافة إلى الفضيحة والدعاية اللتين كان لهما أكبر الأثر في نجاح الرواية، فإن كونها قد أصبحت «ظاهرةً» بمثل هذه السرعة، أدّى إلى إطلاق العديد من الصفات على والدتي. بالتأكيد حاولوا إشراكها ببعض التيارات الأدبية، ومقارنتها بسارتر وبكامو. ولم يحصل ذلك دون شيءٍ من الخِسّة، ذات يوم قال جان-بيير فاي: «رواية العبث والوجود أصبحت مبتذلةً عن طريق بديلتها الساغانية». وهذا ما ردّت عليه والدتي: «لم تنتظر عبثية الوجود لا سارتر ولا كامو، كما أنها لم تنتظرني لتوضَع في رواية، وكذلك الأغبياء لم ينتظروا قرننا هذا لتقديم تعليقاتٍ من هذا الأسلوب.» ورغم أن والدتي أفزعتها سِعة ذلك النجاح، وكل نتائجه المترتبة عليه، وأنها حاولت حماية نفسها منه، أن تحمي ظهرها، وأن تنتظر حتّى تمرَّ هذه الأزمة، لم تبق مع ذلك صامتةً تجاه الأفكار، والتخريفات، والانتقادات، التي كانت أحياناً لاذعة من قِبل الصحفيين والمعلّقين. فبعد نشر الرواية بفترةٍ وجيزة، روّجت إحداهن -وكانت في تلك الفترة من صديقات والدتي- شائعةً بأن كاتبة «مرحباً أيها الحزن» الحقيقية ليست فرانسواز ساغان وإنما هي بالذات. ولم يطُل الوقت حتى وصلت هذه الشائعة إلى أُذن صحفيٍّ ممالئ فسارع، في معرض أحد

اللقاءات الصحفية، بتوجيه السؤال لوالدتي. وبطريق المصادفة كانت والدتي تعرف من التي أطلقت هذه الدعاية الحمقاء، كما صادف أن هذه الإنسانة كانت هي أيضاً كاتبةً، فأجابته: «لا يضايقني أن تقول إنها هي التي تكتب كتبي، طالما أنها لا تقول إنني أنا من يكتب كتبها». كانت تلك المرة الأولى التي اتُّهمت فيها والدتي بالاستيلاء على ما ليس لها، ولم تكن الأخيرة[1]. ففي وقت قريبٍ جداً، أعلن كاتبٌ فرنسي على موجات إذاعة فرنسا Radio France أن فرانسواز ساغان لم تكتب جزءاً من أعمالها. بالنسبة لي، حتى لو أننا لا نستطيع إنكار أن بعض الروايات قد انطلقت أكثر من غيرها، وأنها أكثر حيوية، وأنها «ساغانية» أكثر من غيرها، فإني أعتبر مثل هذه الافتراضات مضحكةً. إذ إننا، عند قراءتنا لمجمل أعمالها، نكتشف أثر «لمستها»، كلماتها، أسلوبها المقتضَب، التوازن التام في الجملة. إن والدتي هي التي تبرز، حقاً، من بين الصفحات، على منعطف إحدى الفقرات، في كل واحدٍ من كتبها.

إن مقدرتها على الرد السريع، الرد المتهكّم الناجم عن سرعة بديهتها، لم تكن لتمنعها أحياناً من التملص من سؤالٍ ما، إذا ما اعتبرت مثل هذا السؤال غير هام، أو في غير موقعه. لقد واتتني الفرصة لأن أحضر بعضاً من مقابلاتها التي يكفي أن تشعر خلالها بأيّ قدرٍ من المضايقة بسبب غباء سؤالٍ ما لتتخذ فجأةً هيئةً شاردة، لا تحير جواباً. وهذا ما كان يُمثّل نوعاً من الوقت المستقطَع الغريب حيث الجميع ينتظر. هي: تنتظر أن يطرح الصحفي السؤال التالي؛ والصحفي (الذي لم يفهم صمتها على الأغلب) ينتظر أن تردّ على السؤال المعلّق. واليوم، عندما أتكلم عنها، في معرض حديثي عن مقابلة ما، يندر أن لا يُلمح محاوري إلى المقابلة المزيفة[2] لـ بيير ديبروج في عام 1975. معظم الناس ما يزالون مذهولين، بلطافة وطول أناة، وطيبة والدتي تجاه ذلك الصحفي الذي يكلمها عن نسيج اللباس الذي ترتديه، وعن ابن

1- اتهمت على سبيل المثال بأنها أخذت روايتها «الكلب المتربص» عن إحدى قصص جان هوغرون القصيرة وهي بعنوان «المرأة العجوز». فرفع عليها قضية في المحكمة وربحها في الحكم الأولي، إلّا أن الاستئناف ومن ثم النقض كانا لمصلحة فرانسواز.

2- سلسلة مقابلات متلفزة يحاول المقدم طرح أسئلة على الشخص المحاوَر غريبة وفي غير محلها مما قد يتسبب له بالإحراج. ربما يمكن تشبيهها ببعض حلقات الكاميرا الخفية.

حميها، وعن عطلتها، وعن كل شيء، ما عدا عمّا هو متوقَّعٌ أن يكلمها عنه. في أحد أعداد أبوستروف Apostrophes حيث استُضيفت بعد ذلك ببضع سنوات، وحيث عاد برنار بيفو إلى تلك المقابلة المزيفة، قالت والدتي، في معرض كلامها عن ديبروج، إنه تولد لديها انطباع بأن المُحاور «ليس على ما يرام»، ولكنه، قبل كل شيء، صحفيٌ، وقد تصرّف بلطف، وبدا ودوداً جداً. كانت اللباقة، واللطافة، والاهتمام بالآخر تعدّ بالنسبة إليها من أكثر قواعد اللّياقة أولويةً. والدتي تكره المتعجرفين، الناس الواثقين من أنفسهم، والمسيئين بسبب أو دون سبب. فأولئك الذين كانوا يحاولون إحراجها، يُصابون في معظم الأحيان بخيبة أمل كبيرة. في مثل هذه اللعبة الصغيرة، كانت دائماً تربح دون أن تهبط إلى مستوى الخباثة، أو إذلال الغير، وإنما بإثبات قدرتها على الفكاهة، والخفة. إذ يندر أن تستولي عليها سورة غضب، وإذا ما حدث ذلك، تفضل النهوض والرحيل. تكره المشاحنات، والكلام الجارح، والعنف اللفظي، وبشكلٍ عام كل أشكال العنف على الإطلاق. بل تفضل المغادرة أو، حين تكون في بيتها، دفع الناس إلى الخارج بسرعةٍ قبل أن يتشاجروا معها. «إنني أضرب يدي بزجاج النافذة، سوف تدمى، فأتنفس». لم أرها قط تضرب يدها لتكسر زجاج نافذة، إلا أنني أعتقد أنها قادرةٌ على مثل هذه الفعلة. وإذا كانت خاليةً من أية علامة حرقٍ بالسيجارة، فإنني قد لاحظت في المقابل نُدبة أو ندبتين صغيرتين جداً على يدها اليُمنى. روت لي منذ زمنٍ طويلٍ مضى أنها قد أجرت اتفاق الدم مع بعض أصدقائها: كل واحد يُحدث شقاً ناعماً في معصمه الأيمن، ثم يضع الجرح على جرح الشخص الآخر. بهذه الشعيرة تُوقّع الصداقة، والإخلاص إلى الأبد. وإذا لم أكن قد رأيتها قط تمرر يدها عبر زجاج النافذة، فقد فاجأتها أحياناً وهي تضع معصمها لفترةٍ طويلةٍ تحت خيطٍ من الماء المثلّج؛ مثل هذه الحركة من شأنها أن تُرخي الأعصاب، وتريح الفكر، في اللحظة التي يشعر المرء فيها أنه على وشك الانقضاض على شخصٍ ما.

إحدى أشهر لحظات غضبها، هي تلك التي استحوذت عليها في نفق سان-كلو. فذات يوم من أيام 1963 أو 1964، أوقفها شرطيٌّ وهي تقود سيارتها الجاغوار من طراز E وقال لها بلؤمٍ وفظاظة «ما أبهاك وأنت في

سيارتك المكشوفة!»[1] فأجابته والدتي في الحال «وأنت ما أبهاك بقبعتك هذه!». -«ماذا؟ ما الذي تقولينه؟ سوف تكررين هذا أمام زميلي». بكل طواعية كررت والدتي قولها. قادتهما هذه القضية أمام المحاكم. فقد رفع الشرطي ضد والدتي دعوى إساءة، وخسرها. إذ اعتبر القاضي أنْ ليس هناك أي شيء مهين في قول ما «أبهاك» لأي شخصٍ. لدي شعور أن والدتي قد تأثرت كثيراً بهذه الدعوى، ليس لأن القضية ذات أهمية كبيرة، ولكنها أوحت لها بالحماقة التي يمكن أن يقود إليها افتقار الناس إلى روح الفكاهة. «الافتقار إلى روح الفكاهة عاهةٌ فكرية. أنا لا أحبها». أعتقد أن هذه القضية، ذات النتائج المبالغ في قيمتها، يمكن أن تفسّر ذلك الكُره الذي تكنّه لقوى النظام، للقوانين، ولكل ما يمثل نمطاً سائداً: السلطة، والسيطرة، والأمن.

لم تكن تقبل أن يكون المرء مُهيناً، لم تكن تقبل أن يكون المرء مدّعياً، والأكثر من ذلك كانت لا تتحمل أن تُحرم من حريتها، أن يتصرف الناس معها بطريقةٍ سلطوية، وأن تُخضع إلى التزامات. على سبيل المثال، كانت ترفض رفضاً قاطعاً وضع حزام الأمان، بل الأكثر من ذلك ترفض التظاهر بوضعه، وبشكلٍ خاص أمام عناصر الشرطة. كانت تعتبر الحزام خطراً، إذ إنك تتعرض لعدم القدرة على تحرير نفسك إن حصل أي شيءٍ خطِر. وعندما كانت تتعرض للتوقيف بسبب عدم وضع الحزام، تبرر بأنها لا تريد أن تعلق في الفخ وهي في سيارتها. وتذكّر على الدوام، في تلك الفترة، بالحادث الذي أودى بحياة فرانسواز دورلياك[2] التي ماتت محروقةً وهي حية خلف مقودها، لأنها لم تستطع التحرر من حزام الأمان. لم يكن كل ذلك ذريعةً مقبولة لمخالفة القانون، ولا هو من قبيل التحدي، وإنما قناعة مطلقة. كنت شاهداً على إحدى حالات رفضها للسلطة، ذات مساء في دوفيل، عندما توقفنا للخضوع إلى فحصٍ على الطريق رفضت خلاله بعنادٍ الخضوع إلى اختبار الكحولية، في حين أننا لم نكن قد شربنا سوى كأسٍ واحد من النبيذ الأبيض لكلٍ منا، وأننا لم نكن في حالة سُكر. لقد

1- يمكن لهذه العبارة أن تؤخذ على محمل الهزء والسخرية كما يمكن أن تُعتبر عبارة مجاملة.

2- شقيقة الممثلة كاترين دينوف، توفيت في 1967 عن عمر 25 عاماً في حادث سيارة.

تصرّفت بعناد شديد أمام إلحاح عناصر الشرطة الثلاثة، متذرّعةً بصعوبات تنفسٍ مؤقتة، حتى إنهم رضخوا للأمر الواقع، وتركونا نغادر دون إرغامنا على النفخ في البالون. وعندما حصلت لها المشاكل التي نعرفها مع العدالة في سني التسعينيات، وبشكلٍ خاص لدعاواها المتعلقة بالمخدرات (حيث اعتبرت نفسها دائماً حرةً في تناولها، لأنها تعتقد أنّ من حقها فعل أي شيءٍ بذاتها، بما في ذلك تدمير ذاتها)، وقد أُدينت، وأمرتها العدالة بالامتناع عن تناول أية مادة على الإطلاق. وُضعت والدتي تحت المراقبة القانونية والطبية الدورية، واضطرت للخضوع كل أسبوع إلى أخذ عينات في المعهد الطبي الشرعي، وبتعبيرٍ آخر المشرحة، وهو مكانٌ ساحرٌ، إن جاز لنا التعبير، مقابل محطة أوسترليتز. وخلال إحدى معايناتها، طُلب منها إعطاء إحدى شعراتها. فعلى غِرار تلك العينات الجليدية التي تُستخرج من الجليد العائم، والتي تكشف مختلف فترات تجلُّد الأرض، تُظهر الشعرات المواد الكيميائية التي تناولها الجسد خلال الأسابيع، أو الأشهر السابقة، بحسب طولها. إلّا أن والدتي رفضت بإصرار إعطاء هذه الشعرة للمخبري، متذرّعةً، وبأكبر قدرٍ من الجدّية، بأن حلاقها سوف يغضب.

-2-

من عائدات مرحباً أيها الحزن، اشترت سيارتها الأولى، سيارة جاغوار بالرخصة رأتها في إحدى الواجهات عند وكيلٍ حصري في حيّها. وورثت ميلها إلى السيارات عن والدها، وكذلك محبتها للحيوانات. وبشكلٍ خاص كان قد اشترى سيارة غراهام بيج Graham-Paige مكشوفة من أحد هواة التجميع، وقد سمح لها بقيادتها، منذ أن كانت تطلب الجلوس، وهي طفلة، على ركبتيه لتُمسك بالمقود الكبير بين ذراعيها. فيما بعد، سوف تكتشف أن السيارات، هي أيضاً، وبشكلٍ خاص، أدوات رائعة للحرية، وللمتعة التي يمكن أن يتولد فيها شكلٌ من التواطؤ، كما يمكن أن يحصل مع الحيوان. إنها تكنّ للسيارات التي تحبها، تلك التي تمضي بسرعة، نوعاً من الاحترام يذكّرنا بما يمكن أن نشعر به نحو حصانٍ، وتصفها بقولها: «هذا الحيوان الذي نُطلقه لاجتياح المدينة وشوارعها، والريف وطرقاته». السيارات هي أدواتُ متعةٍ، تئنُّ وتنطلق بك، إنها متعةٌ أشبه بالدوار. تُذكيه السرعة التي تُسكر، وتختصر الخط الزمني، وتسمح بتحدي القدر. «فمهما كان الإنسان مجنوناً من الحب، هذا لا يجديه، فجنونه لا يعادل جنون من ينطلق بسرعة مئتين في الساعة». السيارات السريعة شركاء متواطئون، مخلصون. إنّها تهرّ أو تهدر بحسب رغبتك، تسمح لك بالانطلاق، وحتى بالهرب، عندما يغمرك، ويكبّلك، الضجر والقسر والقنوط. هناك لحظاتٌ تحنّ فيها والدتي وتشتاق إلى الوحدة والصمت إلى درجة أنها تُضطر للذهاب، للصعود في سيارتها والانطلاق لتستعيد حريتها من جديد. حدث لها أحياناً أن غادرت منزلها في إيكموفيل، بينما هو يعجّ بالزوّار. على سبيل المثال، تلك المرة التي تركت فيها لوالدي هذه الملاحظة: «حبيبي، إنني متعبة، مرهقة، لقد

سئمت من رؤية كل هؤلاء الناس. أنا ماضيةٌ وحدي لمدة يومين أو ثلاثة، لا أدري إلى أين. سأجول في باريس، من دون شك. ليس هذا بالأمر الخطِر، ولكنه ضروريٌّ لتحسين مزاجي».

السيارات في تلك السنوات على غِرار XK 140 أو الأستون، أو الغورديني، كانت منخفضة، وفائقة السرعة بالنسبة لعصرها. فهي غير مريحة، ثقيلة، غير مزودة بنظام الطاقة التوجيهية[1]، ومكابحها لا تستجيب دائماً بشكلٍ فوري، وعلب السرعة فيها قاسية. أضِف إلى ذلك أنها لم تكن تُلبيك في الإقلاع على الدوام. كان لها تلك السّمة الهشة، وغير المنضبطة، والنزوية، والفظة في آنٍ معاً. وهذا ما تخلّصت منه الآن سياراتنا الحالية. فبعد أن تنطلق، إن كانت بالفعل سريعة، لا بد حينها من السيطرة عليها. ينبغي عليك التمتّع بخفّةٍ كبيرة وبشيءٍ من القوة من أجل الحفاظ بثباتٍ على المقود الكبير، من أجل البقاء على الطريق بشكلٍ سليم، وتحريك مقبض السرعة، واللعب بالدواسات، إن كنت لا تريد أن تنفلت السيارة من سيطرتك، وأن ترميك على حافة الطريق، أو أن تمضي بشكلٍ مستقيم عند المنعطف. «وبقدر ما تتماثل السرعة مع المقامرة ولعبة الحظ، تتماثل أيضاً مع بهجة العيش، وبالتالي مع الأمل المبهم بالموت.» كانت والدتي تولي عناية شبه أمومية لسياراتها. تتحقق من مستوى الزيت، ومستوى الماء، وتصغي بيقظة إلى أقل ضجيجٍ في المحرك. كانت تُدَجِّنها، وتعامل كلاً منها بلطف، وتنتظر دائماً أن يصبح المحرّك ساخناً بما يكفي من أجل التسارع قبل أن تطلق العنان لشغفها بالسرعة. هذه السيارات التي صُنّعت في سني الستينيات تميّزت بطابع خاص. وهكذا، فإن الفيراري كاليفورنيا الصغيرة (التي سأخصص لها فقرةً طويلةً في الفصل حول والدي)، ترفض بعناد الإقلاع عندما يكون الطقس شديد الرطوبة، ويُعزى ذلك إلى «سوء مزاجها». وكذلك عندما كانت الميني أوستن تتوقف بشكلٍ مفاجئ في طريق إيكموفيل المشجّر، وهذا ما حصل عدداً هائلاً من المرات، كنا نقول إنها تكره الريف. لقد اقتنت والدتي سيارات كثيرة خلال حياتها، من أكثرها جنوناً وأكثرها غرابةً مثل

1- معروف بشكل عام باسم الهيدروليك

الغورديني 224 س، وهي سيارة سباقٍ حقيقية، اشترتها في العام 1956 من أميديه غورديني، بثمنٍ يُعادل قيمة الدين الذي تراكم عليه مما أنفقه على إسطبل خيول السباق (والتي انفصلت عنها في نهاية العام نفسه للحصول على الأستون مارتين DB2/4، التي سوف يحصل لها الحادث الرهيب فيها في ميلي لافوريه)، وحتى الأكثر تعقّلاً، والأكثر معاصرةً، مثل الهوندا سيفيك، وهي آخر سيارة قادتها. أولى ذكرياتي مع السيارات تعود إلى فترة الجاغوار طراز E المكشوفة، وكان عمري حينها بحدود ثلاث سنوات. ما تزال تلك الرائحة الخاصة تسبب لي الضيق، رائحة البنزين والزيت وجلد كونولّي[1] وقد سخّنته الشمس، ولم أدرك تماماً ما هي السرعة إلا فيما بعد، حوالي سن العاشرة أو الحادية عشرة، في العمر الذي يبدأ فيه المرء بإدراك الخطر. أتذكر المازيراتي ميسترال، وأتذكر أنني قد شعرت بهدير المحرك الكبير في المقدمة، القويّ جداً حتى إنه غطى بشكلٍ كامل تقريباً صوتَ مونسيرات كاباليه[2] وهي تؤدي لا ترافياتا[3]. كان هناك مسجلة فوكسون بثمانية خطوط في السيارة. توضع فيها علبٌ كبيرةٌ (cartridge) تعمل دون انقطاع وتتميز بأنها، حالما تنتهي، تعود إلى البداية بشكلٍ تلقائي، وأن لها نوعية صوتٍ هائلة. في تلك الفترة، كان الناس يتكلمون عن «سحر ستيريو» الفوكسون. وفي هذه السيارة المازيراتي، تعرضت والدتي للاستجواب من قبل أحد المتظاهرين في ساحة الأوديون ذات يومٍ من أيام مايو 1968: «ما هذا، أيتها الرفيقة ساغان، لقد أتيت في الفيراري؟» وما كان من والدتي إلا أن أجابته: «ليست فيراري، أيها الرفيق، وإنما مازيراتي».

ذات يوم بعد الظهر، وكنا في النورماندي، اصطحبت والدتي صديقتها الألمانية إيلكه إلى محطة القطار في دوفيل. ولحظة وصولنا إلى المحطة، كان القطار قد غادر الرصيف. وكانت إيلكه مضطرة إلى أن تكون في باريس في ذلك المساء بالذات. حينها اندفعت والدتي في ملاحقة القطار. كانت دائماً تصل إلى نقطة التقاطع في اللحظة التي تُنزَل فيها الحواجز، مما يضيّع

1- علامة مميزة من الجلد الذي تفرش به السيارات الفخمة.

2- 1933 – 2018، مغنية أوبرا إسبانية اشتهرت بقوة صوتها.

3- أوبرا لجيوزيبي فيردي.

عليها السَّبْقَ الذي تكون قد توصّلت إلى اكتسابه. أخيراً، صعدت إيلكه إلى قطارها في محطة ليزيو[1]، وأعتقد أنها وجدت الوقت الكافي لشراء صحيفة من المحطة.

لم أَشعر قط بالخوف في السيارة مع والدتي، وليست لديّ ذكريات عن أي خطرٍ غير متوقّع، وأية تجاوزاتٍ غير حذرة، أو قيادةٍ مضطربة. كانت تعتبر أن على السائق الجيد المحافظة على انطلاقة سريعة وسلسة، انطلاقة تجعل المسافر ينسى أنه يمضي بسرعة. كانت تستشهد بأمثلة سائقي الإسعاف الذين من شأنهم إنقاذ المسافرين، لا تعريضهم للصدمات.

في بداية العام 1957، تعهدت مع أخيها جاك بالمشاركة في سباق الألف ميل Mille Miglia الذي سيقام في العام التالي. سباق السيارات هذا، الذي يُعتبر من بين أخطر السباقات في عصره، يرسم حلقةً كبيرةً مقدارها 1600 كيلومتر من بريشيا إلى روما[2]، ذهاباً وإياباً. ويتميز بتسيير سياراتٍ قويةٍ جداً، على غرار تلك التي تسير في المان Le Mans على طرقاتٍ مفتوحة بالكامل. وإذ جذبتها المخاطرة، وأغراها الطابع الخاص لذلك السباق، التقت إنزو فيراري الذي احتفظت عنه بذكرى رجلٍ لطيفٍ ورصين، وجرّبت نموذجاً أولياً على حلبة المصنع الخاصة. ولكن ظروفاً مشؤومة تدخلت. ففي منتصف مايو 1957، وبعد حادثها في ميلي-لا-فوريه بالأستون مارتين ببضعة أسابيع، تسببت مأساةٌ بإنهاء مشروعها. فقد لقي الماركيز ألفونسو دي بورتاغو، المعروف باسم «فون دي بورتاغو» وهو «بلاي بوي» (غندور) الأرستقراطية الإسبانية، والسائق الرسمي لدى فيراري، لقي حتفه إلى جانب السائق المرافق إدموند نيلسون في سيارة 315 س. هذه الحادثة، التي تسببت بموت تسعة أشخاص والعديد من الجرحى، ومن بينهم أطفال، وجهت الضربة الحاسمة في إيقاف ذلك السباق.

1- على بعد 30 كم من محطة الانطلاق في دوفيل.
2- المسافة بين بريشيا وروما ذهاباً وإياباً هي تقريباً 1100 كم. ولكن مسار السباق كان على شكل الرقم 8.

-3-

على كل حال، لم نتكلم إلا قليلاً عن حادث السيارة إذ كان مأساوياً بما يكفي، مبلبِلاً بما يكفي، ليغيّر حياتها بشكلٍ نهائي. خلال إحدى المقابلات أجرتها في سني الثمانينيات، وسألها الصحفي خلالها إن كان لديها ما تأسف عليه، ذكرت حادثتها على أنها أول الأمور التي تأسف عليها، لقد جاء هذا الحادث ليقطع بشكلٍ عنيفٍ حياةً لا مبالية، وسعيدة، مجرداً إياها من الهبات العديدة التي منحتها إياها الحياة حتى ذلك الحين. كان من الطبيعي، في ذلك العمر، أن تعتقد والدتي أنّها شخص لا يُقهر. فلديها الشباب، والذكاء، والموهبة، والمجد، وحظٌّ شبه وقحٍ، لم يتركها قط حتى ذلك اليوم 15 أبريل 1957، على غِرار توأمٍ سياميّ. فهي التي كانت تشعر بأنها عصيّة على المآسي، وجدت نفسها فجأةً وعلى حد قولها «ممزقةً إلى ألف قطعة»، بجمجمتها المفتوحة، وترقوتها، وأضلاعها، ومعصميها، وحوضها المكسور، وفقراتها المزحزحة، والعديد من الجروح المتفاوتة في الخطورة ومنها قطع أحد أربطة القدم اليُمنى مما سيمنعها إلى الأبد من الركض، ومن ركوب الخيل، ومن لعب التنس لأكثر من ساعة متواصلة.

عندما خرجت من الغيبوبة في غرفتها بالمشفى، كانت قد نسيت كل شيء. اعتقدَتْ أن ما تسبب بمداخلةٍ جراحية إسعافية هي تلك الزائدة الدودية التي لم تُستأصل بالشكل الملائم. لم يعد لديها صورٌ عن الحادثة، ولكنها تتذكر أنها شعرت بالسيارة تبدأ بالطيران. كانت حافة الطريق قد غُطّيت بالحصى الناعم. وبما أنها تعرف أن في مثل هذا الوضع لا ينبغي عليها أبداً الفرملة، حاولت إبطاءَ السرعة، ولكنها لم تنجح في الوصول إلى نقطة التعشيق السفلى. بل لسوء حظها، علّقت المبدل على السير الخلفي. تسببت هذه

الحركة برجوع عتلة السرعة بشكل مفاجئ جداً في يدها، حتى إنها كسرت لها معصمها في الحال، مما جعلها، تحت وطأة الألم، تفقد وعيها. اضطرب توازن السيارة، وأصبحت الآن خارج السيطرة، فانزلقت في حفرةٍ على بعد حوالي ثلاثين متراً قبلٍ أن تنقلب عدة مرات. فيرونيك كامبيون وبرنار فرانك وفولديمار ليستيين، قُذفوا بسرعةٍ خارج السيارة، ووجدوا أنفسهم في حقلٍ وقد طاش صوابهم تماماً وأصيبوا بصدمة، مع بعض الكسور (برنار: الترقوة، وفولديمار المرفق)، وبعض السحجات المتفاوتة في الشدة، وبضع حدبات. ولكن والدتي من ناحيتها، وبشكلٍ غير مفهوم، إذ إنها لم تربط حزام أمانها، بقيت حبيسة السيارة ذات الألف وثمانمئة كيلوغرام، والتي انتهى بها الأمر بالانقلاب عليها، بعد تلقيها صدمة نهائية.

تمكنوا من إخراجها من تحت السيارة التي كانت تُثقل بكل وزنها على حوضها. وقد اعتُبرت حالتها شديدة الخطورة حتى إنهم لم يتجرؤوا على تحريكها. أُخذت إلى مشفى كوربيه، على بعد خمسٍ وعشرين كيلومتراً من هناك. وأُعلِم أخوها جاك الذي جاء مسرعاً، مع شقيقتها وأهلها. استدعى المشفى كاهناً ليقدم لها مسحة المرضى[1] الأولى في حياتها (ولكنها ليست الأخيرة). عندما أصبح جاك كواريز على مقربةٍ من سريرها، شعر بأن هذا المشفى ربما لم يكن يمتلك التجهيزات اللازمة لإنقاذ شقيقته ورفض، قولاً واحداً، تشخيص الطبيب الباعث على التشاؤم. فإن فكرة موت فرانسواز غير مقبولة بالنسبة له. حينئذٍ تناول الهاتف واتصل بكل علاقاته، مبلبلاً السماء والأرض، وطلب أن تُعاد أخته إلى بيتها، وأن تُسعف في مشفى في باريس في الحال. استقدم سيارة إسعاف لتقوم بالرحلة، بمرافقة عنصرين من الشرطة الوطنية على الدراجات. وكان على هذين الدرّاجين تسريع عودة والدتي نحو العاصمة وأنجزا مهمتهما بشكل مثالي. وعندما استلمها الفريق الطبي في مشفى مايو في نويي، كانت قاب قوسين أو أدنى من الموت. اتضح أن مخاوف شقيقها مبرّرةٌ. وهذان الدرّاجان، حين تكبّدا كل الأخطار

1- بحسب معظم طوائف الدين المسيحي، مسحة المرضى هي صلاة، مع مسح بالزيت المقدس، يقدمها الكاهن للمريض المحتضر وتعتبر الصلاة الأخيرة ولذلك تسمى أحياناً المسحة الأخيرة.

للوصول من كوربيه إلى باريس في زمنٍ اعتبر في تلك الفترة خارج المألوف، أنقذا حياتها.

لقد حرصت والدتي على عدم رواية قصة هذين الدرّاجين من الشرطة على أسماعي. وقد أجمع فيما بعد أشخاص آخرون على روايتها لي. لقد أنقذها حظها، وهذان الدرّاجان في اللحظة الأخيرة. لم يكن رأي والدتي بالشرطة دائماً حسناً، ولا ساراً. ويمكن أن نجد في هذا بعض الظلم. ولكنني أتخيل أن حادثة نفق سان كلو، التي سوف تحصل بعد ذلك بست أو سبع سنوات يمكن أن تُفسّر هذه العدائية نحو ممثلي القانون. والآن إنني أتفهم بشكلٍ أفضل الرعب الذي أحدثته لديها عندما كنت أجاوب وأنا بعمر خمس أو سبع سنوات عندما أُسأل عما أريد أن أكونه في المستقبل. في تلك الفترة المبكرة من حياتي، وأنا منبهرٌ بشكلٍ مضاعف بضجيج المحرّكات الكبيرة Flat-Twin BMW، وبالتأثير شبه السحري لصفارات الإنذار ذات النغمة المزدوجة على طرقات السيارات، صارت رغبتي تنحصر في أن أصبح درّاجاً في الشرطة الوطنية. ومع ذلك فهمتُ بسرعة أنّ مشاريعي المستقبلية تسبب لها اليأس. إذ إنني في كل مرةٍ يُطرح عليّ السؤال: «ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟» وأكرر أمنيتي، كانت تنتظر أن نصبح وحدنا نحن الاثنين، وبأكثر ما يمكنها من الجدية، تقول لي بما يشبه التوبيخ: «يا ديني، يمكنك تخيل كل أشكال المهن التي تريد، ولكنك لن تكون أبداً شرطياً. هذا مرفوضٌ تماماً!» اكتست هذه التحذيرات المتكررة سمةً رسميةً إلى حدّ بعيد من حيث إن والدتي كانت تبدو وقد اكتست رصانةً ليست معتادة لديها على الإطلاق. مما جعلني أدرك أن هذا يحزّ في نفسها، وبما أنني أرغب قبل كل شيء بإدخال السرور على قلبها، وبشكلٍ خاص، أن لا أخيب أملها، انتهى بي الأمر إلى العدول بشكلٍ نهائيٍّ عن هذا المشروع.

في المشفى، حيث عُولجت من أجل جروحها المتعددة، عانت من آلامٍ رهيبة. كانت نوبات الألم شديدةً جداً حتى إن الفريق الطبي الذي كان يحاول تجربة كل شيء لتهدئة ألم هذه الطفلة الناجية بمعجزة، راح يقدم لها دواءً مورفينياً جديداً يُدعى R 875 أو بالفيوم Palfium، يتميز بكونه مضاداً ألمٍ أقوى بخمس مرات من المورفين العادي. هذه المادة الجديدة، التي

اصطنعها الأستاذ البلجيكي بول جانسن في العام 1950، ورُخّص باستعمالها منذ فترةٍ قريبةٍ جداً، تبين أنّها مضادٌّ أدم شديد الفعالية، بقدر ما تبين فيما بعدُ أنها كارثية. فبعد قرابة شهرين من العلاج اليومي، قاد هذا الدواء والدتي إلى إدمانٍ في منتهى الخطورة سوف تبقى آثاره على مدى حياتها الباقية كلها.

ما إن غادرت مشفى نويي حتى اضطرت إلى الدخول إلى مشفى غارش من أجل الفطام عن البالفيوم. يتوجّب عليها محاولة التخلّص من هذه المادة بإنقاص الجرعات كل يوم أكثر فأكثر. «هذه المعركة الطويلة، المرهقة، المثيرة للغثيان، سمحت لي بالحصول على نوعٍ من احترامِ الذات، وهذا ما لم يحصل لي من قبل». وخلال هذه المعالجة بدأت بكتابة يومياتها التي سوف تُنشر بعد ذلك بسبع سنوات عند جوليار تحت عنوان «سموم». على ما يبدو لي، ومن حيث إنني أعرف خجلها وتكتمها، لقد شكلت كتابة هذا النص وسيلةً لطمأنة ذاتها، للشعور بما كانت تعتقد أنه قد بقي لها من صفاء الذهن، وإبعاد شياطين الجنون الذين كانت تستشفّ وجودهم وكأنهم يتربّصون بها خلف باب ذلك المشفى، أكثر مما شكّلت مشروعاً كانت تنوي تقديمه لناشرها بعد أن تنتهي من علاجها. وقد عبّرت في الواقع عن تجردها وموضوعيتها تجاه ما تكتب. «ينبغي تماماً أن أكتب هذه القصة بدلاً من الاستسلام إلى تلك الروح الماريفودية[1] الساذجة مع نفسي[2]». والمصادفة البحتة (مصادفة قادتها مشيئة رينيه جوليار) هي التي ألقت بهذا النص بين يدي برنار بوفيه[3]، الصديق المقرّب للناشر، وأدت إلى إنجاز الكتاب على شكل مشاركة. «سموم» وقد طُبع بأربعة آلاف نسخة في العام 1964، نُشِر بتكتّم، إن لم نقُل بطريقة سرّية.

وعلى هذا، لم تَجرِ بيننا أية أحاديث جدية حول المخدرات، فقد بدا لنا أن مثل هذه الأحاديث لن تجدي نفعاً. كانت بالطبع تعلم أنني على علم بهذا الإدمان؛ فماذا يمكن أن نقول في ذلك؟ ومن ثم كان يبدو لي أن الإدمان أمرٌ

1- نسبة إلى الكاتب الفرنسي ماريفو 1688–1763: حذلقة وإمعان في تحليل المشاعر الشخصية وفي الكلام عنها.

2- فرانسواز ساغان، سموم، جوليار، 1964، ستوك 2009 (الكاتب). جوليار اسم دار النشر التي نشرت الكتاب عام 1964 ونشرته بعدها دار ستوك في 2009.

3- Bernard Buffet 1928–1999: رسام فرنسي شارك في تزيين كتاب «سموم» بالرسوم.

رهيبٌ، وبسيطٌ في آن معاً. فليس عليها إلّا أن تعيش معه، وأن تحمل نيره كما لو أنها قد شُدَّت إليه بحبل. إن ابتعدت عنه، تتحمل آلاماً دونها الموت الزؤام، وإن اقتربت منه أكثر مما ينبغي، فقد يقودها إلى الجحيم والموت. إذن، لم يعد أمامنا أي شيءٍ جوهري لنعرفه بخصوصه، وعلى كل حال، لم يعد هناك إلا ما هو بشعٌ ومقيتٌ سماعه.

في بعض الفترات التي يصعب عليّ اليوم تحديدها، عندما كانت والدتي مريضة، وعندما أصبحَتْ محاصرة داخلياً، وتعِسةً جداً لدرجة أنها راحت تُبعدنا عنها إلى الخارج، وتطلب حضور طبيب على الفور (إذ إنها تعرف أنّ بعد كلّ التسويفات سوف ينتهي بأن يُجري لها حقنةً ويهدّئها)، أردتُ فهم أسباب آلامها، هذه العذابات التي أصبحت قوّتُها وذكاؤها فجأةً غير مجديين تجاهها. أردت فهم هذه العلاقة الوثيقة والجهنمية مع تلك المواد؛ فهم لماذا توجب عليها التضحية بما هو الأعز على قلبها، أعني حريتها، وعلى مدى زمنٍ طويل، وشيئاً فشيئاً، على مذبح تلك الحناجير. ما الذي عانت منه بشكلٍ خاص، ما هو الشيء المختلف عن باقي المرضى المعالجين بالمورفين، حتى تصبح ضحيةً له خاضعةً أسيرة؟ هل كانت شهرتها، ومجدها (ووضعها العام)، هي التي حدت بهم إلى جعلها تتفادى، أكثر من الآخرين، هذه الآلام بإعطائها الـ R 875 بشكلٍ مفرط؟ هل بالغ الطبيب في إعطاء هذا الدواء الجديد؟ هذا السؤال طالما شغل بالي قبل أن يأتيني الجواب، أو بالأحرى، جزءٌ من الجواب عن طريق أستاذٍ في الطب وفي علم السموم. إن جسدنا يُنشّط نظام دفاعه الخاص تجاه الألم بواسطة غدتين هما النخامى وتحت المهاد، متموضعتين في مركزين في القحف، وتفرزان مادةً كيميائية هي الأندورفين. تُساهم الأندورفينات في تخفيف الألم الفيزيولوجي، أي في النظام الطبيعي المخصص لمكافحة الآلام المحتملة التي قد تظهر داخل بدننا وتعمل، شأنها شأن المورفين، بتموضعها مثلاً على المفاصل، أو على الأطراف خلال الجهد؛ تمنعنا من الصراخ عندما نرفع ساقنا، أو نطوي إصبعنا. ولكي نمثّل الأندورفينات بشكلٍ ساذجٍ جداً، يمكننا مقارنتها بمحرّض طبيعي على العمل. فعندما يُصادفنا ألم مستمرٌ، شديدٌ جداً، وأن هذه المادة الكيميائية لا تتمكن من أداء دورها، يحدث أن

نلجأ إلى بديلها الكيميائي الذي هو أقوى منها بكثير، أي المورفين. ولكن الجسد البشري مصنوعٌ بحيث يحدث هذا الاستبدال *في العمق*. وعلى هذا، منذ أن ندع المورفين يدخل إلى جسمنا يأخذ محل الإندورفين، الذي يغوص في نوعٍ من السبات لكونه قد أصبح غير مجدٍ. وفي اللحظة التي نوقف فيها المورفين، يجد جسدنا نفسه محروماً من مضاد الألم، فنذوق العذاب المرير.

بالإضافة إلى هذه النتائج الطبية والفزيولوجية، سوف تكشف هذه الحادثة لوالدتي، وبأبشع وأقسى طريقةٍ ممكنة، أن الحظ يمكن أن يكون صديقاً متقلّباً. اكتشفَتْ، وعلى حسابها الخاص، أنها مصنوعةٌ من لحمٍ، وعظم، ودم. وبنفس العنف، عرفت الخوف. الخوف من عدم القدرة على المشي، الخوف من أن تصبح معاقةً، الخوف من أن تجد نفسها وحيدةً، معزولةً. وتجسَّدَ أفظع كوابيسها في ذلك التواطؤ بين الألم البدني والعزلة (فالأول يقود إلى الثانية). لم تبُحْ لي بذلك قط، ولكنها سوف تُفصح لأحد الصحفيين، خلال إحدى المقابلات، أنها لو اضطرت إلى قضاء ما تبقى من حياتها على كرسيٍّ متحرك، لانتهى بها الأمر على الأغلب، إلى وضع حدّ لحياتها، مستشهدةً بجملة شامفور: «يا إلهي، خلصني من عذاباتي البدنية، أما عذاباتي المعنوية فأنا أتكفل بها».

-4-

كانت هيلين لازاريف، مؤسسة مجلة *Elle* هي التي جعلت من والدتي، في العام نفسه الذي أصدرت فيه روايتها الأولى، مراسلةً لتلك المجلة النسائية الشهيرة. كانت الفكرة تنفيذ ريبورتاجات في أجمل مدن أوروبا وأمريكا الشمالية، بحيث يحمل كل تقرير منها اسم المدينة المعنية مسبوقة بعبارة «مرحباً» التي أصبحت شهيرة («مرحباً يا نابولي»، «مرحباً يا بندقية»). في خريف 1954، ذهبت والدتي إلى إيطاليا. إلى نابولي، وكابري، والبندقية. وكانت تنظّم كراسات لرحلاتها. عادت فاكتشفت من جديد مدينة القنوات: «البندقية جميلة جداً، ربما أكثر مما يجب: يختنق المرء فيها. يصعب الكلام عن سحر البندقية الخفي إذ إنها تحمل كل مفاتنها على سطح جلدها.» نابولي «الطرقات صفراء، مزدحمة، ملوكها الحمير، والأطفال، وعربات الترامواي». ثم في العام 1956، من أجل مجلة *Elle* نفسها، عادت إلى نيويورك. في تلك الرحلة رافقت صديقاً ينفّذ ريبورتاجاً عن سد هوفر في النيفادا. روت لي أنهما تسليا كثيراً، ووجدا السد مضجراً إلى حد بعيد حتى إنّ الريبورتاج لم يُنجز قط، ولست أدري إن كان السبب في ذلك قربها من لاس فيغاس. ويبدو لي أنها لدى عودتها إلى نيويورك من هذه الرحلة، سوف تحاول رؤية بيلي هوليداي[1] ثانيةً على المسرح في هارلم. وحينها علِمَتْ بدهشة أن المغنية «شخصٌ غير مرغوب» فيه مؤقتاً في ولاية نيويورك بسبب قضية مخدرات. تُقَدِّمُ بيلي هوليداي عرضها على بعد ساعتين من هناك، في أحد كباريهات ولينغ فورد، في الكونيكتيكت. عادت والدتي والتقت معها

1- 1915 – 1959: مغنية بلوز وجاز أمريكية شهيرة.

في باريس في العام 1958، خلال جولةٍ وجدت المغنية صعوبة كبيرة في إنجازها، بسبب المخدرات والكحول التي أنهكتها. مازال صوتها الأجش جميلاً، وله تقريباً نفس التأثير المؤلم، كما كان في أول ظهور لها في هارلم. في ذلك النهار، أعلنت لها بنفسها دُنُوَّ وفاتها في نيويورك، بين رجلَي شرطة. وبالفعل، توفيت في نيويورك في العام التالي، في غرفة مشفى، يحرسها عنصرا شرطة. صوت بيلي هوليداي لن يغادر ذاكرة والدتي، فقد أثر فيها كثيراً منذ أن سمعتها للمرة الأولى في هارلم.

وخارج نطاق هذه الرحلات التي قامت بها والدتي من أجل مجلة *Elle*، ذهبت إلى بيت لحم، وإلى لبنان، وحتى إلى العراق (وذات يوم وصفت لي بغداد وصفاً مقيتاً)، من أجل كتابة بعض المقالات. ومع ذلك، لم أسمع قط كلاماً، ولا قرأت، عن «مرحباً يا بيروت» ولا «مرحباً يا بغداد» فهل نُشرت مثل هذه الريبورتاجات فعلاً؟

بمساعدة هيلين لازاريف أو من دونها، اكتشفت والدتي الشواطئ الأكثر بعداً في المتوسط. قادها ميلها إلى الشمس، والبحر، والهدوء، أيضاً إلى ضفافٍ أقرب على البحر المتوسط، نحو سان تروبيه. وما لم يكن في حينها سوى مرفأ صيادين صغير، سوف يتّضح لها أنه ساحرٌ جداً، مهجورٌ جداً، مقفرٌ جداً، ولذيذٌ جداً، حتى إنها صارت تعود إليه كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. في العام 1956، لم يكن هناك على المرفأ سوى مخزن ألبسة واحد، ومقهيين أو ثلاثة، والإسكيناد حيث يمكن الرقص، والإيبي-بلاج حيث يمكن تناول الغداء أو الاستجمام تحت الشمس، وفندق البونش. بقيت سان تروبيه لبعض الوقت هادئةً إلى حدٍّ ما، على الرغم من وصول جمهرةٍ من الصحفيين، جذبهم تصوير فيلم روجيه فاديم، فحاولوا تحويل القرية الصغيرة إلى بابيلون-سور-مير[1] جديدة. ويُقال إن «وخلق الله المرأة[2]»، وفرانسواز ساغان، وبريجيت باردو وروجيه فاديم، هم من أحضروا الجماهير إلى سان تروبيه. ومع ذلك يشق علي أن أتخيل والدتي

1- تسمية رمزية بمعنى «بابل البحرية» مدينة بذخ وترف ولهو.

2- فيلم من إخراج روجيه فاديم وتمثيل بريجيت باردو تم تصويره على شاطئ سان تروبيه في 1956.

تدعو الناس المجانين إلى معتزلها الهادئ. كانت تحب سان تروبيه بالضبط لأنها تجد فيها الهدوء. «بعد باريس وأعاصيرها، يا لها من راحةٍ في العودة إلى هذه المدينة الصغيرة الهادئة جداً، حيث يستحيل حدوث ما هو غير متوقّع، أنغوليم[1] على ضفة الماء.» أحبت شوارعها المتعرجة، والشمس، والهواء الخفيف العليل وجوّ السلام المخيِّم، وكأنها منعزلةٌ عن باقي العالم. وقد اختارت سان تروبيه لقضاء فترة نقاهتها في نهاية صيف 1957، من أجل الإبلال من حادثة سيارتها، وأعتقد أيضاً من أجل نسيان جوّ المشافي، ذلك الذي بقيت محجوزة فيه على مدى أسابيع طويلة.

في العام التالي، في مارس 1958، تزوَّجَتْ من غي شولر Guy Schoeller، وهو شخصٌ لم ألتقِ به قط بشكلٍ فعلي. فقد استمرت حتى بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً بالقول: «غي رجلٌ فاتنٌ، مُغوٍ، وحسن التربية.» لم أحصل قط على أكثر من ذلك. إنها تحترس تماماً من أن تكشف لي الوجه الآخر لزوجها الأول، الذي هو أقل لطفاً بكثير، متمسكةً في هذا الأمر بمبدئها في أن لا تقول ما يُسيء على الإطلاق إلى أي شخصٍ آخر. لابد لي من الاعتراف بأن زواج أمي من غي شولر كان دائماً يتّصف بالنسبة إلي بطابعٍ غريب، لا بل غير مفهوم. كان غي يكبرها بعشرين سنة. وإن كان يبدو رزيناً وجدياً، فقد كان مُغوياً وزير نساء. الرجال الذين خالطتهم والدتي كانوا في معظم الأحيان رجالاً من عمرها، غير مبالين، مزاجيين، جريئين، ذوي طبيعةٍ مرحة. يُبدون نحوها على الدوام روح المراعاة والحماية. ومن القليل الذي أعرفه، لم يكن لدى غي شولر أي شيءٍ مشترك مع أولئك الفتيان الذين كنت أراهم أحياناً معها. شولر ليس الرجل الوحيد الذي أحبّته والدتي (إذ إنها أحبت أيضاً والدي، وبقيت «عشيقته» خلال أكثر من اثني عشر عاماً بعد طلاقهما) ولكن لا شكّ في أن غي هو الوحيد الذي عاملها بمثل ذلك التعالي، بمثل ذلك الاحتقار. كان الوحيد الذي تسبب لها بالألم، وقد كان مشهوراً عنه أنه يمكنه أن يكون شديد القسوة مع النساء. أضف إلى ذلك أنه يعمد أحياناً إلى دعوة اثنتين من عشيقاته على العشاء، على المائدة نفسها. فهل كان ذلك من أجل المتعة؟

1- مدينة فرنسية مشهورة بهدوئها وطيب العيش فيها.

ولكن ما آلم والدتي أكثر من كل شيء، هو أنه كان يفتقر إلى النزاهة. وهذه المرة، كما هي الحال غالباً، كانت قد أوْلت ثقتها لشخصٍ سوف يخيب أملها.

يدّعي البعض أن حادثة السيارة في ربيع 1957، والزواج الفاشل مع غي شولر في العام التالي، كانا الحدثين السيئين الكبيرين الأولين في حياتها. مع ذلك وإذا ما كانت غالباً تعبّر لي عن أسفها بخصوص الحادثة، لم أسمعها قط تتذمر من زوجها الأول.

-5-

في نهاية الخمسينيات، كانت والدتي مقربةً تماماً من باولا سانجوست دي تولادا. التي أصبحت فيما بعد عرّابتي، وزوجة شارل دي روهان–شابو. وهي التي سوف تعرّف والديّ أحدهما على الآخر. يُقال إن والدتي وباولا متشابهتان لشدة ما لديهما من الأشياء المشتركة. باولا تتمتع بمزايا نفسية كبيرة، ولا أعرف عنها إلا طيبة الخلق، والكرم، والإنسانية، والاهتمام بالغير، وحيوية الفكر. تتقاسمان كلتاهما اللطف نفسه، تحبان البذخ، ولديهما نفس الأذواق، وتحبان التسلية. ذات يوم في سان تروبيه، حين استشفّت باولا أن والدتي قد تحتاج إلى التغيير، شجّعتها على استئجار منزلٍ في مكانٍ آخر غير الجنوب، واقترحت النورماندي. وإذ أشادت بمحاسن مكانٍ هادئٍ بعيدٍ عن الجمهور وعن الصحفيين، مكان أكثر خضرة، حيث الطقس أجمل بكثير مما يعتقد الناس، توصّلت إلى التغلب على آخر تحفظات صديقتها تجاه تلك المنطقة، التي لم تضع فيها قدمها قط. في شهر يوليو 1959، استأجرت والدتي قصر بروي Breuil الريفي في إيكموفيل، وهو بناءٌ طويلٌ، ضيق، ومتهدّم بعض الشيء، متربّعٌ على رابيةٍ في وسط ثمانية هكتارات من المروج، حيث ترعى بضع بقراتٍ. تحيط بالبيت غابة «بروي» التي تحفّ بالحدّ الغربي الأقصى من الملكية. وعندما يغامر المرء بالدخول لبضع مئاتٍ من الأمتار في هذه الغابة، يجد نفسه في مواجهة فُرجةٍ في الأشجار. ومن هناك يكتشف، بنظرةٍ نازلة، مصب نهر السين، ومرفأ الهافر، وعندما يكون الطقس صاحياً تُرى أبعد من ذلك أيضاً أوائلُ تضاريس شاطئ الباترCôte d'Albâtre. هناك مقولة قديمة تقول «عندما يرى المرء الهافر من ضفتنا، فإن السماء ستمطر؛ وإذا لم يُرَ فهذا يعني أنّ المطر قد بدأ فعلاً بالهطول». البيت

مختفٍ في الغابة، ولكنه لا يبعد سوى بضعة كيلومترات عن دوفيل، وعن شاطئها (حيث لم تذهب والدتي قط) وعن كازينوها الذي تجده أكثر جاذبية من ذلك البحر الرمادي غالباً، والذي ينبغي أن يركض المرء خلفه على مسافة كيلومترات ليبلل قدميه[1]. ويحلو لها الاستشهاد بجملة كريستيان برنار: «إنني أعشق تروفيل لأنها بعيدةٌ عن البحر، وقريبةٌ جداً من باريس»[2]. في خلال هذا الشهر، أغسطس 1959، بدت نبوءات باولا صحيحةً، كما بدت سمعة النورماندي خاطئة. الريف أخضر وهادئ، والسماء زرقاء صافية من الصباح وحتى المساء. في بداية ذلك الصيف من عام 1959، لم تُمطر إلا ما ندر، كما تؤكد ذلك النشرة الجوية في فرنسا: «كان شهر يوليو جافاً بشكلٍ استثنائي، حاراً ومشمساً في مجمل البلد؛ ولكن النصف الشمالي، وبشكلٍ خاص جداً، شمال النورماندي والمنطقة الباريسية فقط هي التي تأثرت بالجفاف من أبريل إلى أكتوبر». أتخيل أن والدتي قد أغراها المناخ (الذي يشبه بشكل إجمالي مناخ الجنوب)، والهدوء، وأشجار الزان الكبيرة في الممشى (وهي أعلى بكثير من صنوبر الكوت دازور)، التي تبدو كأنها تقف لها كحرس شرفٍ عند وصولها، وتتأرجح أغصانها الطويلة بتراخٍ مع إيقاع الريح. استأجرت القصر لمدة شهر، من 8 يوليو إلى 8 أغسطس. وعلى الرغم من أن شهر يوليو ذلك كان استثنائياً، أشك في أن تكون والدتي قد شاهدت المروج الكبيرة، ولا شجرات الكرز المثقلة بثمارها، ولا استمعت حتى إلى تغريد الطيور. فبرفقة مُريديها، برنار فرانك وجاك شازو تُمضي معظم لياليها في كازينو دوفيل، بين طاولة سكة الحديد وطاولة الروليت، وهما اللعبتان اللتان تولدان لديها أكبر قدرٍ من الإثارة. في السابع من أغسطس، في عشية مغادرتها، عادت للمرة الأخيرة، بحسب زعمها، إلى قاعة الألعاب. في تلك الليلة، كانت لعبة الروليت بالنسبة إليها مصدر سعادةٍ. فقد خصّت بالحظ أرقامها المفضلة 3 و8 و11 حتى إن والدتي راحت تلعب وتلعب وتلعب، ولم تغادر طاولة اللعب إلا عند الفجر، في لحظة الإغلاق. كسبت، في تلك

1- خلال فترة الجزر، تبتعد المياه إلى مسافة كيلومترات.

2- تبعد تروفيل عن باريس 200 كم. ربما يقصد بكلامه أنه حين يكون في تروفيل لا يذهب إلى البحر قط وإنما إلى الكازينو.

الليلة من ليالي أغسطس، مبلغ 84 ألف فرنك، ما يقابل في أيامنا هذه أكثر من مئتي ألف أورو. عادت إلى غرفتها متعبةً بعض الشيء، ولكنها بالطبع راضية النفس: الساعة الثامنة صباحاً، ينتظرها مالك القصر على الدرجات الأمامية من أجل إجراء الجرد. فقبل تسديد باقي الإيجار، كان عليها أيضاً أن تحصي الملاعق، والسكاكين، والكؤوس، وأن تجري كشفاً على الأماكن، ومن ثم أن تجهز حقائبها وتمضي. لا بد أن والدتي اعتقدت أن من الفظاعة القيام بمثل هذا التعداد الذي لا معنى له من الصباح الباكر، بدلاً من الذهاب إلى النوم؛ وربما أيضاً قالت في نفسها إن من المحزن ترك هذا القصر الجميل الذي أهداها الكثير الكثير من نعمه. سألت المالك إذا ما كان البيت، من قبيل المصادفة، معروضاً للبيع، فأجاب بالإيجاب. وسألت عن الثمن المطلوب فأجاب: ثمانون ألف فرنك. أخرجت ربحها من حقيبتها، وقدمته إلى الرجل المذهول بعض الشيء. وبدءاً من ذلك اليوم، أصبح ذلك القصر الملكيةَ الوحيدة التي امتلكتها والدتي على الإطلاق. أصبحت هذه القصة أسطورةً حقيقية، وربما أقل الأساطير قابلية للتصديق: كنا في الثامن من أغسطس (الشهر الثامن)، والساعة الثامنة صباحاً، كانت والدتي قد ربحت وهي تلعب بشكلٍ متتالٍ على الرقم ثمانية، واشترت منزل النورماندي بمبلغ ثمانين ألف فرنك.

بعد ذلك، وإذ استراحت لكونها لن تُضطر إلى إجراء الجرد، تمكنت أخيراً من الذهاب إلى النوم.

رجعت في الصيف التالي برفقة أخيها وبعض الأصدقاء. وعادت إلى الكازينو، ولكن كانت وعود باولا المشمسة قد ذهبت بشكلٍ نهائي: فلم يفارق المطر المنهمر المنطقة على مدى شهر يوليو كله، وكذلك طيلة شهر أغسطس 1960.

-6-

مازلت أحتفظ عن منزل إيكموفيل بصورته كملاذٍ هادئٍ، ومَرِحٍ، يمتلئ بروح زواره ؛ لدي انطباع أن كلاً منهم قد ترك فيه جزءاً من ذاته، والدتي، ووالدي، وعرابي جاك شازو، وبرنار فرانك، وخالي والأصدقاء العديدين جداً الذين مرّوا به. لم تكن تتوانى على الإطلاق في جعله يبدو لنا بشكله الأكثر رهافة. كان المنزل يسهر على راحتنا. في معظم الأحيان، بدت والدتي بشوشةً، ومهتمةً، ومنفتحة على الجميع، تتأكد من أننا جميعاً في مأمن من المطر، ومن الريح، ومن البرد، ومن الحرارة، ومن ذواتنا، وأحياناً من تجاوزاتنا. إنه خليج أمانٍ، لم أرَ فيه قطُّ نزاعاً، ولا تفجّر غضب؛ لم أسمع فيه أية عبارات تُلقى بشكلٍ مهين. لقد أمضيت فيه عطلي منذ بلوغي عمر الثالثة، وحتى وقتٍ متأخر، عندما اضطررنا إلى الانفصال عنه في نهاية سني التسعينيات. عرفت فيه مشاعر الطمأنينة، والاكتفاء المطلق، التي يمكن أن يشعر بها طفلٌ بعمر خمس أو ست أو عشر سنوات. بقي هذا البيت يمثّل بالنسبة إلي عذوبة البيت الطفولي. مع سوزاك[1]، في اللوت، لقد شكّل هذا المنزل كل الصور التي تملأ ماضيّ، والذكريات التي بنت شخصيتي. ففي إيكموفيل، تعلمت التعرف على ذلك الصوت الخاص، صوت الريح في أشجار الزان مساءً، معلناً أن الطقس سوف يتغير.

كانت والدتي تشاركني تعلقي العميق بالمنزل. تعود في كل صيف لتتلقى عبق العشب المقصوص، ورائحة العسلة[2] التي زرعتها في آخر المنزل، غير

1- ضيعة صغيرة قرب كاجار حيث بيت أهل فرانسواز

2- شجيرة ذات رائحة عطرة قوية معروفة باسم زهر العسل أو ياسمين أصفر.

بعيدٍ عن غرفتها. أحياناً بعد الغداء، كانت تذهب لتجلس في سيارتها بعد أن تركنها في الممر، تحت شجر الزان، وتزلق السقف المتحرك، وتقلب رأسها إلى الوراء، على ظهر المقعد السميك، لتشاهد تلألؤ أشعة الشمس من خلال الأوراق وحركة الأغصان. وغالباً ما كانت تضع أحد أشرطة «الكارتردج» الكبيرة ذات المسارات الثمانية (تلك العلب الموسيقية التي كانت تُسمى ثمانيّة المسارات والتي اختفت في يومنا هذا)، في مسجلة المرسيدس وتصغي إلى البوهيمية[1] أو لا ترافياتا أو كونشرتو لموتسارت، وتبقى هناك في استرخاء واستسلام تامين.

كنا أنا ووالدتي نعرف هذا المنزل بكل تفاصيله، وكل روائحه الطيبة، وكل صرير أرضه الخشبية، وكل صوت أو ضجة. عندما يقترب وقت العصر في الصيف، وتبدأ الشمس بالنزول، كنت أعرف كيف ستتوضع الشمس على الستائر، وعلى الكرسي، قرب الخزانة الصغيرة في غرفة برنار فرانك، التي أطلقنا عليها اسم الغرفة الخضراء وتُطلّ نوافذها على الغرب. وكما هو الأمر غالباً في البيوت الريفية، ارتبطت كل غرفةٍ بلون. في الطابق الأول، بالإضافة إلى غرفة برنار كان هناك غرفة الأطفال، التي بقيت غرفتي حتى فترة المراهقة، والغرفة الوردية، وهي الأكثر إضاءةً والوحيدة في المنزل التي لها ثلاث نوافذ، ولكنها أيضاً الأكثر عذوبة. إذ إن هذه النوافذ تُطل في الوقت نفسه على الشمال وعلى الشرق. كانت إيزابيل هيلد، معاونة والدتي، هي التي تشغلها في معظم الأحيان، عندما تأتي لفترة إقامةٍ طويلة من أجل العمل. وفي الجهة المقابلة للغرفة الوردية، هناك ممرٌ طويلٌ يَصرُّ ويقود إلى دورة المياه الوحيدة في الطابق. في فترة حصول والدتي على المنزل، كانت دورة المياه تلك المكانَ الوحيد حيث يمكن للمرء أن يغسل وجهه، وتحوي مغطساً كبيراً جداً من الفونت، ذا أطرافٍ مدوّرة، قد يعود تاريخه مثل البيت إلى عام 1880.

يأتي بعد ذلك الطابق الثاني الذي يتضمن غرفتين واسعتين تُطل نوافذهما

1- La Bohème والأصح «الحياة البوهيمية» وهي أوبرا لجياكومو بوتشيني. وليست أغنية شارل أزنافور التي تحمل العنوان نفسه.

على كل جهةٍ من جهات القصر. تُطل الأولى على الجنوب الشرقي، من ناحية مدخل المنزل، على ممشى أشجار الزان الكبيرة بعمر مئتي عام، الذي أطلقت عليه والدتي اسم «ممر ماري» تعبيراً عن محبتها لماري بيل[1]، التي تكنّ نوعاً من التقديس لهذا المكان. لقد صنّعت والدتي لافتات خشبية كبيرة كُتب عليها «ممشى ماري» مطلية على شاكلة لوحات الشوارع الباريسية، علقناها ذات يوم على كل طرفٍ من أطراف الممشى، قبل وصول ماري بالضبط، لتكون لَها مفاجأة. وقد ثبّتنا هذه اللافتات الكبيرة بشكلٍ جيد جداً، حتى إنها بقيت لوقتٍ طويل في الممشى، حتى بعد آخر زيارةٍ لماري بيل بوقتٍ طويل.

تُطلّ الغرفة الثانية من جهة الشمال الغربي على المرج الكبير، الذي يشكّل نصف دائرةٍ عريضاً، وترسم حوافه، بكتلها الكبيرة من الغار الوردي، التي يغلب عليها اللون الداكن، حدود غابة بروي. أولى هاتين الغرفتين، على اليمين في أعلى السُّلم، هي «الغرفة ذات السريرين» على الرغم من أنه في الواقع لم يكن فيها سوى سريرٍ واحد. إنها الغرفة التي شغلها والدايَ عندما كنت طفلاً. وهي، في الوقت نفسه، نيّرة، وواسعة، وحميمية. وبقيَتْ، بعد ذهابهما بكثير، محتفظة بتلك الرائحة الفريدة، حيث تختلط رائحتهما برائحة الخشب المُشمّع (إذ إن والدتي اختارت أخيراً الإقامة في الطابق الأرضي في حين انتقل والدي إلى الجناح الثاني في الطابق نفسه). ميزة هذه الغرفة أنها تتضمن غرفة حمامٍ كبيرة، وخزانة ملابس واسعة، ومصطبة صغيرة تصلح لأخذ حمام شمس، ومنها يُشرِف الناظر، وإلى مسافةٍ طويلةٍ جداً، على المروج وعلى طرف الغابة في الجنوب الغربي. من الجهة الأخرى من السلّم، حيث سينتقل والدي فيما بعد، كانت هناك «غرفة نابليون». ربما سميت بهذا الاسم بسبب لون الأرضية الأحمر الذي يُذكّر بالإمبراطورية، إلا إذا كان السبب لون غطاء السرير. ورغم أنها أقل مساحةً بشكلٍ محسوس

1- من أشهر الممثلات الفرنسيات في السينما الصامتة ثم الناطقة كما في المسرح، عضو في الأكاديمية الفرنسية. أطلق اسمها على أحد أهم المسارح في باريس. قال عنها الكاتب الفرنسي أندريه مالرو: مشاهدة ماري بيل في دور فيدر حظوة فريدة لأي شخص يريد معرفة ما هي العبقرية الفرنسية.

من الأولى، كان فيها سريرٌ عريضٌ من الخشب المحفور، يزدان طرفاه بتمثالين صغيرين يمثلان أرنباً وسنجاباً. وبما أنها مزوّدة بملحقٍ قبل غرفة الحمام، فقد شغلها في معظم الأحيان جاك كواريز، شقيق والدتي، عندما كان يأتي برفقة خطيباته.

في الطابق الأرضي، حيث ستقيم والدتي، الغرفة الوحيدة تنفتح على مكتب. وهذا ما أدخل السرور إلى قلبها إذ إنها ستمتلك مكاناً حيث تستطيع العمل ليلاً. كما أنها تحب بشكلٍ خاص الاستلقاء للقراءة على سريرها، خلال النهار، مع السماح للهواء، والضوء، وعبق الحديقة بالدخول عبر البابين الزجاجيين. تحب هذه الغرفة أيضاً لأنها تسمح لها بالانعزال، مع شعورها بوجودنا القريب جداً في الصالون الصغير، إذ يكفيها أن تنهض وأن تجتاز المكتبة (حيث اكتشفتُ للمرة الأولى نسخةً من «سموم» مدفونة تحت كومةٍ من المجلات)، لتنضم إلينا حين تسمعنا نضحك، أو حين ترغب بالثرثرة.

الصالون الصغير هو قلب المنزل. إنه الغرفةُ الوحيدة في القصر حيث نجتمع كلُّنا للعب الورق، والإصغاء إلى الموسيقى على البيك-أب القديم، ومشاهدة مباراة رغبي، والعشاء بأعداد قليلة، أو في الشتاء، الالتجاء حول الموقد. وإلى أن بلغتُ الثانية أو الثالثة عشرة، كان هناك في إحدى زوايا الغرفة قطعة أثاثٍ من الخشب المطلي، مهيبة المنظر، ملاصقة للموقد، من طراز سنيّ الخمسينيات، تظهر فيها، عندما نفتح الدرفة العليا، مشغّلة أسطوانات (بيك-أب)، ومذياع، وحجيرة للأسطوانات. كانت مشغّلة الأسطوانات مزودة بآلية تتيح سماع عدة أسطوانات 33 دورة، الواحدة تلو الأخرى، دون أن يكون هناك حاجة للنهوض وتغييرها. تُكدَّس الأسطوانات، الواحدة فوق الأخرى، في أعلى محورٍ عمودي، وتسقط بطريقةٍ ناعمة على القرص الدائر ما إن تصل الإبرة إلى آخر دورةٍ على القرص الفينيلي. أسطوانات المنزل، على غرار أسطوانات باريس، كانت تعامل معاملةً فظة. وغالباً ما تُنهي ليلتها، إن لم نقل حياتها، خارج أغلفتها، مكدّسةً خبط عشواء. على كل حال، كانت هذه الأسطوانات الفينيلية القديمة أكثر مقاومة للصدمات وللتشطيب من أقراصنا المضغوطة الحالية CD، فحتى لو حدث أن خُدشت قليلاً في

بعض سطوحها، فمن النادر جداً أن «تُقذف خارج سوّاقتها» أو تتجمد، كما تفعل ورثتها عند أول صدمة. أحياناً، عندما أنزل في الصباح، بينما المنزل كله غارق في النوم، أجد هذه الكومات من الأسطوانات بارتفاعاتٍ مختلفة مرمية على الأرض، عند أسفل البيك-أب. وكذلك يحدث أن يهجر النوم عيوني في الليل، أو أن يوقظني حلمٌ سيئ، فتصل الموسيقى، حين تكون قويةً بعض الشيء، إلى غرفتي في الطابق الأول عبر قفص الدرج. في اليوم التالي، وعندما يكون أحد تلك الألحان قد أثار حماستي، أتسلّح بالشجاعة والصبر، وأعيد تشغيل تلك الأسطوانات على البيك-أب القديم، الواحدة تلو الأخرى، وبشكلٍ منهجي، من أجل تذكّر القطع التي أعجبتني. وليس ذلك بالأمر السهل دائماً، إذ يكون الليل قد محا إلى حدٍّ ما هذه الألحان من ذاكرتي، مما يُضطرني إلى الاعتماد عليها هي بالذات لتذكرني بنفسها. أرفع وأُنزل الإبرة عدداً غير محدود من المرات، ممرراً في غربال ذاكرتي: دينا واشنطن، فاتس ولر، إيللا فيتزجيرالد، ميشيل لوغران، بيغي لي، بيلي هوليداي، فرانك سيناترا، سارة فون، شيرلي باسي، راي تشارلز، ستان غيتز، جواو جيلبيرتو، لالو شيفرين، مايلز ديفيس، دي دي بريدجووتر، والكثير من الآخرين الذين لم أعد أذكر أسماءهم. لقد أخذت عن أهلي، وعن أصدقائهم، هذا الميل نحو الموسيقى. وأنا أُدين لهم على الأرجح بهذا التفضيل للجاز الذي لم يتركني قط. ومنذ ذلك الحين وجدت من جديد، أو اشتريت، عدداً كبيراً من هذه الألبومات. وحتى بعد أربعين عاماً، لم يتراجع ذلك التأثير الذي كان للبعض منها عليّ. عندما أصغي إلى Agua de beber لأسترود جيلبرتو أو Is That All There Is? لبيغي لي، تعود فتنبثق في ذاكرتي صورة الصالون الصغير ورائحة الخزانة الصغيرة.

خلف المكتب الصغير، هناك غرفةٌ كبيرة أطلقنا عليها اسم «قاعة اللعب»، وقد أصبحت فيما بعد «الصالون الكبير». عندما اشترت والدتي المنزل في العام 1959، كانت هذه الغرفة تحتوي في مركزها أرضيةً كبيرةً للرقص، مستطيلة الشكل، شبيهة بتلك الأرضيات التي نجدها في الإستوديوهات أو الورشات الاحترافية. قيل لنا إن مالك البيت القديم كان راقص كاباريه، وقد وضع ما يشبه البيانو الآلي في زاويةٍ من زوايا الغرفة،

ويُمضي أحياناً أماسي بأكملها وهو يرقص وحده. صوت البيانو، وضجيج الوثبات التصالبية[1]، يُغيظان زوجته المقعدة التي تنام فوق تلك الغرفة تماماً، في الغرفة الخضراء. مما حدا بها أخيراً إلى التزوّد بعصا مسرح، تضرب بها بعنفٍ على الأرضية، وهي في سريرها إلى أن يتوقف زوجها عن إصدار تلك الضجة. ولم تكن والدتي تدّخر فرصةً لتروي لمدعوّيها الجدد قصة تلك العصا التي بقيت لفترةٍ طويلة في غرفة برنار فرانك. استُخدمت هذه الغرفة إذن لفترةٍ طويلة كقاعة لعب. وكلما تذكرت تلك الغرفة أتذكر في معظم الأوقات والدتي مشتبكةً في مباراة كرة طاولة عاصفة، في منتصف فترة العصر، مع واحدٍ أو أكثر من أصدقائها. كانت تفضل الألعاب الرباعية، التي تتطلب ردود فعلٍ أكثر واستباقاً، متمشيةً بذلك مع ميلها الطبيعي نحو كل ما يسير بسرعة. كانت غرفة اللعب تنفتح بثلاث نوافذ كبيرة على المرج الكبير الذي يمتدّ إلى الغرب حتى طرف غابة بروي، وتنغمر مساءً، خلال الطقس الصحو، بذلك النور البرتقالي المُزرقّ الذي لم أرَ له مثيلاً حتى يومنا هذا إلا في النورماندي. وعندما تُقصّ أعشاب المرج، وترسم أكوام العشب المقصوص خطوطاً طويلة غير منتظمة، تجتاح الريفَ رائحةُ القش التي تزيد منها حرارة المساء، وتنفذ إلى المنزل لتُغرق والدتي في سعادةٍ لا نهائية. كان بإمكانها البقاء لدقائق طويلة في ضوء الشمس الغاربة، من دون حراك، على عتبة الباب تستنشق ما يتصاعد من تلك الأرض التي تحبها وتُجلّها كما تُجلّ والدةً.

أتذكرها، عندما كنت طفلاً، مستلقيةً في الأرجوحة الطويلة التي علّقناها بين شجرتي الزنبق[2] الضخمتين اللتين تشغلان وسط المرج. (هناك صورة في مجلة باري ماتش أُخذت من الأعلى، نرى فيها والدتي في الخارج، جالسةً إلى طاولةٍ من الخيزران، ومعها آلة كاتبة، ونرى فيها شجرتي الزنبق خلفها). يُقال إن هاتين الشجرتين الكبيرتين نموذجان نادران وأعتقد أن السبب الأكبر في ذلك هو طبيعتهما كتوأمين. في كل ربيع، تندفعان بثورة

1- وثبات قصيرة يؤديها راقص الباليه ويصالب قدميه وهو في الهواء قبل أن يهبط على الأرض.

2- شجر أمريكي ضخم من فصيلة المنيوليا (أو المغنوليا) له زهر يشبه الزنبق.

إزهارٍ حقيقية، مما يبعث فينا نشوةً كبيرة. وتتنافسان في الجمال، شأنهما شأن شقيقتين غيورتين، وتكتسيان أزهاراً كبيرةً بيضاء، مكوّرة، ومثيرةً شهيّةً، لم نكن نتمكن من لمسها إلا بأنظارنا، إذ إن الأغصان، حتى المنخفضة منها، بقيت خارج متناولنا على الدوام. ذات يوم، هبّت عاصفةٌ رهيبة، وانقضّت صاعقة على الشجرة الأولى. بقيت الشجرة الثانية وحيدةً لبعض الوقت، ولكنها توقفت عن تقديم عرضها الربيعي الكبير على أنظارنا، ثم، وكما لو أن الأمر حصل، ذات ليلة، باستعطافٍ منها، انقضّت عاصفةٌ ثانية أكثر تدميراً من الأولى وصعقتها بدورها. وفجأةً بدا المرج لنا جميعاً شاسعاً وفارغاً.

عندما بلغتُ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، اعتبرت والدتي أنه من المفيد لي ممارسة رياضة ما بشكلٍ منتظم. فبالإضافة إلى فوائد النشاطِ الرياضيّ الفيزيولوجية والنفسية بالنسبة إلى فتىً يافع، وفوق هذا هو ابن وحيد، كانت تعتبر، ومعها كل الحق في ذلك، أنني يجب أن أتنافس مع ذاتي، وأقدّر سرعتي، ومهارتي، وقدرتي على التحمّل، وأعرف حدودي، وأن أقارن نفسي أيضاً مع الآخرين. واعتقدَتْ، عن حق أيضاً، أنني بالنظر إلى قامتي، وعرض جسمي، وبنيتي الجسدية الأَمْيَل إلى النحافة، وميلنا المشترك لكل ما ينطلق بسرعة، تبدو كرة التنس الرياضة المُثلى. وعلى الرغم من أننا كنا نسكن في تلك الفترة في مقابل حديقة اللوكسمبور، وأن ملاعب التنس قريبةٌ جداً، وأن من السهل عليّ التسجيل والذهاب للّعب هناك مرةً بالأسبوع، فقد رفضتُ الأمر بشكلٍ قاطع. أجهل ما الذي قد دار في رأسي في ذلك العمر، إلا أن التنس لم يكن له مكانٌ في فكري. ذات يوم، استدعتني إلى غرفتها في الطابق الأول، التي تُطل بنوافذها الزجاجية على أشجار اللوكسمبور، وهذا ما يعني في العادة أننا سنتطرّق إلى موضوعٍ هام، وأعلنت لي أن لديها مشروعاً لبناء ملعب تنس أو مسبح في إيكموفيلَ، وأن القرار النهائي يعود إلي، إذ إنها هي بالذات مترددة، وأن هذا الملعب، أو المسبح، لن يُقام إلّا من أجلي، ومن أجل أصدقائنا كلينا. منذ حادثة السيارة، لم يعد بإمكانها الركض فما بالك بالقفز خلف الكرات، كل هذا، بالإضافة إلى الجاذبية التي يمكن أن يشكلها بالنسبة إلى طفلٍ حوضٌ بألوان لازوردية، دفعني من دون شك لاتخاذ القرار واختيار المسبح في الحال، من دون أي تفكيرٍ. لجأت والدتي

إلى مهندس معمار عمل على حفر حفرةٍ بطول 21 متراً، وعرض عشرة أمتار، وبعمق مترين وثمانين سم في المرج، خلف المنزل، غير بعيدٍ عن شجرتي الزنبق. كنا في 1973. استغرقت الأعمال وقتاً طويلاً إذ كان ينبغي إيجاد بطانةٍ تقاوم قسوة الشتاء النورماندي، وكذلك نظام تدفئة ذي فعالية، أكان في الصيف أم في الربيع، وهذا ما بدا من الأمور الصعبة في تلك الفترة. كنت مع والدي في إيكموفيل عندما تم تسليم المسبح أخيراً. ربما حصل الأمر في ربيع 1974، وعلى الأغلب في عطلة عيد الفصح، إذ إنني كنت في الريف. بقي المهندس المعمار للعشاء معنا برفقة زوجته، وفي اللحظة التي همّ فيها ضيوفنا بالمغادرة، لاحظت نوعاً من التوتر لم أستطِع معرفة كنهه. شيءٌ ما قد تغير. وبدا الغيظ على والدي. بعد ذلك بقليل، علمت أن المهندس وزوجته لقيا حتفهما في السيارة، على بعد بضعة كيلومترات من المنزل، بعد مغادرتهما لنا. لقد أفرطا في الشرب في ذلك المساء، وكان سبب هذا التوتر الذي شعرت به عائداً إلى كون أبي قد ألحّ عليهما بعدم قيادتهما السيارة على الطريق وهما في حالة السكر.

عندما يكون المنزل مليئاً، نجتمع على المائدة بحدود ثمانية عشر أو عشرين شخصاً. حينها يسود مرحٌ غير معقول. وعندما أقمنا في إيكموفيل، كانت السيدة مارك، حارسة المنزل، تهتم بشؤون المطبخ. في معظم الأحيان تصدر عن السيدة مارك تصرفات غريبة الأطوار. لديها أفكارٌ غريبة، ريفية جداً، أفكارها الذاتية حول الحياة. أحببناها كثيراً وهي بادلتنا العاطفة نفسها. في إيكموفيل، مرّت علينا فصول صيفٍ مضطربة، فصول صيف «معكَّرة» كما تقول والدتي. كانت تعتلج في المنزل أهواءٌ ومآسٍ. والدتي تستقبل، وتُصغي، وتُصلح، وتعزّي. أناسٌ يصلون من باريس باكين، ويُغادرون بفرحٍ مثل طيورٍ مغرّدة؛ وآخرون يذهبون في غزوةٍ إلى موائد القمار في دوفيل في منتصف فترة العصر، ليعودوا إلينا عند العشاء بهيئةٍ مثيرةٍ للشفقة. وكنا نعرف ماذا يعني ذلك. أتذكر، ذات صيف، اضطررنا في اللحظة الأخيرة إلى إنقاذ باربرا، المغنية، من الغرق إذ إنها، رغم عدم معرفتها السباحة، قررت رغم كل شيء الذهاب إلى الماء (بالطبع إلى المغطس العميق) وغاصت، تحت أنظارنا المذهولة، قبل أن تقوم فرانسواز جانمير، وهي بطلة سباحة، بالغطس لإنقاذها. وخلال

ذلك الصيف أيضاً، على ما أذكر، ركبت فرانسواز جانمير نفسُها دراجةَ خالي جاك الكبيرة، وانتهى بها الأمر ملقاة عند أحد المنعطفات، في مدخل دوفيل، ولكن دون كبير أذى لحسن الحظ. وأعتقد أن والدتي، خلال ذلك الصيف أيضاً، غاصت على شاطئ بينيديبي بسيارتها Lotus Super Seven S1 التي قدمها لها صديقها بيتر إلى درجة أنها اضطرّت لاستدعاء مزارعٍ مع جرّاره لإخراج السيارة من الرمل. أعتقد أن تلك الرغبة التي تملّكت والدتي في الانطلاق بسيارتها اللوتس على الشاطئ قد تولدت عندها إثر مشاهدة فيلم قضية توماس كراون (1968)، وبالأخص ذلك المشهد حيث ستيف ماكوين، على مقود سيارة الدفع الرباعي المكشوفة، يصطحب فاي دوناواي، بإيقاعٍ شيطانيٍّ مجنون، على كثبان أحد شواطئ ماساشوستس. السوبر 7 سيارةٌ منخفضة، خفيفة، ومطواعة. لم يكن فيها سوى مقعدين، نجلس فيهما ونحن شبه مستلقيين وحتى لو لم يكن محركها (1600، 4 أسطوانات) يشبه في أي شيء محرك سيارةٍ رياضية، فإن الإحساسات التي يزيد منها ثباتها على الأرض لا تقل قوةً عن تلك التي يشعر بها المرء على مدرج كارت[1]. هذه المزايا الجوهرية في نظر والدتي (الاستجابة الصاعقة، والسرعة، والخفّة) سارعت في جعل «اللوتس الصغيرة» كما كانت تسميها، لعبتها المفضّلة وصارت تُكنّ لهذه السيارة التي تسلّيها كثيراً تعلقاً حقيقياً. بقدر ما تسعفني ذاكرتي، لم يمنحها مثل ذلك الشعور سوى الـ 250 كاليفورنيا (التي كانت تسميها بحبٍ «الفيراري الصغيرة»). اعتادت والدتي على اصطحابي بسيارة اللوتس للقيام بجولةٍ في الريف المجاور، حوالي نهاية فترة العصر، عندما يسمح الطقس بذلك. كنا نسلك الطريق على يسار مخرج المُلكية، ثم بعد ذلك بمئتي متر إلى اليمين ندور في منعطفٍ على شكل دبوس شعر، على الطريق الضيق الصغير النازل نحو بارنفيل-لا-برتران ويتابع تعرّجه بعد الخروج من القرية، واجتياز بلديتها (حيث عقدت قرانها على والدي ذات عصرٍ من شهر يناير 1962) على مسافة ثلاثة أو أربعة كيلومترات، عبر وديان صغيرة، وظلال غابةٍ ومراعٍ.

1- سيارة سباق بمقعد واحد، ليس لها صندوق ولا علبة سرعة ولا نوابض تعشيق وتجري سباقاتها على حلبة من 700 إلى 1500 م.

عندما أتى جاك شقيق والدتي للمرة الأولى إلى إيكموفيل بسيارته الميورا، سمعنا هدير محرك اللمبورغيني المدوّي من على بعد عدة كيلومترات، حتى إن والدتي، التي كانت تترقب زيارته، عرفت أنه هو وراحت لتنتظره على باب المنزل. وقفنا كلنا في صفٍّ أمام المنزل، بفراغ صبرٍ، وفضولٍ لاكتشاف هذا الوحش الهادر. ربما كنا في ذلك اليوم عدداً قليلاً من الأصدقاء، ومن بينهم على ما أعتقد برنار فرانك، وبيغي روش، وشارلوت آيو[1] Aillaud، رغم أننا كنا ننتظر ونأمل رؤية جاك، وأن موضوع السيارة بعيد عن اهتماماتنا، فإن تلك السيارة التي توقفت في الباحة، جعلتنا نقف دون حراك ومدهوشين. لقد ذُهلت والدتي بسيارة الميورا، حتى إنها أبدت رغبتها في الصعود إليها والقيام بجولةٍ في الحقول. فمضيا كلاهما، جاك ووالدتي، يلفّهما نفس الضجيج المصمّ للآذان.

لابد أنني كنت بعمر الثانية أو الثالثة عشرة عندما نزل جاك من أجل عطلة نهاية الأسبوع في إيكموفيل مع إليز، وهي فتاةٌ سمراء، طويلة، ذات جمال لافت للنظر. فُتنت بهذه المرأة الأنيقة والمرهفة. كان برفقتها كلبٌ ألماني بعمر بضعة أشهر، وتسميه **الذئب**. بين هذا الكُليب وبيني، حصل ما يشبه الحب من أول نظرة. منذ اللحظة التي اكتشفت فيها **الذئب**، وحتى اللحظة التي غادرَنا فيها يوم الأحد مساءً مع صاحبته وخالي، لم نفترق قط. وحتى لو أنني لم أرَ هذا الكُليب سوى مرةٍ واحدةٍ في حياتي فقد أثّر فيَّ. ورغم أنه لم يعد في عالمنا هذا، يحصل لي أحياناً أن أفكر فيه. مضى بالضبط أسبوعٌ قبل أن يعود خالي إلى إيكموفيل، مصطحباً هذه المرة زوجته الشرعية. كان الطقس رائعاً جداً بالنسبة لشهر مايو في النورماندي، لطيف ومشمس. وبما أن مدام مارك كانت غائبة لسبب من الأسباب، اقترحت والدتي أن نذهب للغداء على رصيف فابور Vapeurs في تروفيل. كنا ستة جالسين إلى مائدةٍ في الشمس، والدتي وبيغي وجاك وزوجته وأنا وشخصٌ آخر لم أعد أتذكره. جلستُ إلى جانب زوجة خالي، في مواجهة الشارع. أما والدتي فعلى الأرجح جلست أمامي، وإنما في الزاوية المقابلة. وما كدنا

1- ورد الاسم خطأً Ailland في هذه الصفحة من النص.

نبدأ بتناول الغداء، حتى رأيت على الرصيف، من الجهة المقابلة للشارع، امرأةً جميلةً جداً، سمراء، تمسك بزمام كلبٍ ألمانيٍّ، يشبه **الذئب** لدرجة أن الأمر قد يلتبس على الناظر. قفزت على كرسيّي وناديت والدتي «أماه، انظري، انظري هناك، إنه شديد الشبه **بالذئب**». التفتت والدتي بشيءٍ من الشرود، ثم تظاهرت بعدم الرؤية. ألححت: «بلى يا أماه، أنت تعرفين **الذئب** جيداً، الكلب الذي جاء الأسبوع الماضي إلى المنزل، مع جاك وتلك المرأة الشابة، نعم **الذئب**.» تظاهرَتْ كما لو أنها لم تسمعني، وران صمتٌ غريب على المائدة؛ بقيت حينها الوحيد الذي يتكلم (وهذا ما لم يكن يحصل قط) فقد كنت مصمماً بثبات على أن أُسمع. وإذ رأيت أن والدتي تُصرّ على تجاهلي، التفتّ نحو خالي: «أنت تعرف تماماً، أليس كذلك؟ الكلب **الذئب** الذي جاء مع إليز ومعك الأسبوع الماضي.» حينها خيّم صمتٌ ثقيل. تجمّد كلّ شيء: الشوكات والملاعق، وكذلك الزمن. وبينما كنت أتحضّر للعودة إلى الكلام للمرة الأخيرة، قطعت والدتي حماستي بعنف، ونظرت مباشرةً إلى عينيّ، وقالت لي بلهجةٍ حاسمة لم يسبق لي أن سمعت لها مثيلاً من قبل في حياتي: «يا ديني، اصمت وأنْهِ طبق بلح البحر الذي أمامك.» لم أفهم إلا فيما بعد جسامة الخطيئة التي ارتكبتها، رغم بعض التهدئة من قبل والدتي، ارتعبت من ذلك. كنت متعلقاً تعلقاً شديداً بخالي جاك، وأصبح لديّ شعور أنني قد سممت، وربما حتى قضيت بشكلٍ نهائي، على محاولاته، وهي عديدة حسبما أعرف، لإيجاد مخرجٍ لمشاكله الزوجية.



-7-

سوف يشكل العام 1962 منعطفاً في حياة والدتي. هناك بالطبع مولدي، ولكنْ هناك أحداث أخرى سوف تشكل منعطفاً حاسماً للسنوات القادمة. فلطالما حلمت والدتي بأن يكون لها طفلٌ. «كنت أرى شاطئاً، وأراني على ذلك الشاطئ وإلى جانبي صبي.» جنّ والدي من الفرح. في السابع والعشرين من يونيو، ولدى إعلامه بقدومي في المشفى الأمريكي في نوييه، روى لي أنه اجتاز باريس بأقصى سرعة، وحطم سيارته «الخنفساء» في ساحة الأنفاليد. ولكن في العام 1962، وبعد مولدي بثلاثة أيام، عَلِمَ بموت رينيه جوليار. كانت والدتي تُكن وداً عميقاً، وتقديراً كبيراً لهذا الرجل، الحامي، الذكي والمثقف، الذي كان أول من استقبلها في دار النشر. ومن أجل عدم تعكير فرحها بمولدي، اتُّخِذتْ كل الإجراءات حتى لا تعلم مباشرةً بذلك الخبر الحزين. بعده، تولّت منصب إدارة دار النشر جيزيل داساييه زوجة رينيه جوليار مع كريستيان بورغوا. في العام 1965، بيعت دار نشر جوليار إلى مجموعة «بريس دي لاسيتيه»، وبعد رحيل جيزيل داساييه، تركت والدتي جوليار لتنتقل إلى دار فلاماريون، إذ إنها صارت تأخذ على دار النشر عدم الكلام معها إلّا عن العقود، وبالتالي عن المال، وهو موضوعٌ مكروه، في حين أنها كانت تتوقع أن يكلموها عن كتبها. وبعد ذلك بأربعين عاماً، وبعد أن استلمتُ تركةَ والدتي، لاحظت، خلال مواجهتي مع دار نشر جوليار، أن تلك الدار ما تزال تهتم بالعقود أكثر مما تهتم بالعمل الأدبي.

في العام 1962، وبعد ولادتي، وبعد فقد رينيه جوليار، وبناءً على نصائح إحدى صديقاتها، وربما رغبةً منها في فرض شيءٍ من الترتيب على أعمالها، عهدت إلى إيلي روتشيلد، شقيق إحدى صديقاتها، بالمصاعب التي تواجهها

في سبيل عدم تبديدها لكل ما تكسب. وبدءاً من تلك الفترة، وضعت نفسها تحت شكلٍ من أشكال الوصاية الإرادية. كُلّف شخصٌ من مصرف روتشيلد حيث أصبحت حساباتها في مأمن، بجعلها تتحاشى كل إفراط بالنفقات، ذلك الإفراط الذي راح يغذي الشائعات، كما يغذي مجموعةً كاملةً من الأصدقاء. وكل هذا كان ينتهي بإحداث ما يُسمّى «بالمشاكل المالية» وبقلق أقربائها. من الآن فصاعداً، لم يعد لديها دفتر شيكات، ولكن لم يعد عليها أيضاً أن تقلق بشأن نفقاتها. هذه السيدة، ماريلين ديتشري، الملحقة ببنك روتشيلد، هي التي تدفع ثمن كل شيء: «من شراء الكُرّاث، إلى تأمين السيارات، والمنزل. وعندما أجأر بالصراخ، يُرسَل لي مبلغ ألف فرنك (في عملة تلك الفترة) كمصروف جيب. وهناك تتوقف علاقاتي مع الحياة اليومية. [...] فبقدر ما كنت أرى استخدام المال لذيذاً جداً، كانت مشاكل المحاسبة تبدو لي مضجرة ببرودتها».

خلال الأسابيع التي تلت مولدي، انتقلت والدتي من المنزل، وذهبنا لنسكن في شارع مارتينياك، على بعد بضعة أمتارٍ من كنيسة سانت كلوتيلد. ليست لدي أية ذكرياتٍ عن ذلك المكان. ما زلت حتى الآن أمرّ في شارع مارتينياك، وأتوقف فيه لعلّي أجد ما يوقظ ذاكرتي في الواجهات البيضاء، وتلك الشجيرات التي تغفو في أسفل قبة الجرس.

في الفترة ذاتها، ومباشرةً بعد معرض السيارات، اشترت والدتي إحدى أولى سيارات الجاغوار من طراز E، وهي سيارة مغلقة، ذات أربعة أبواب، بيعت في فرنسا (وليست لديّ أية ذكرى عنها) وهي التي نزلت بها إلى الجنوب، مع شقيقها، في نهاية الصيف. لم تكن الطرقات السريعة A6 و A7 موجودة بعد، فاضطرا إلى سلوك الطريق العادية N7، الذي هو لا شك أقل إضاءةً، وأضيق مما هو عليه الآن، وكان لابد من تحاشي السيارات القليلة الإضاءة أيضاً والأبطأ. روت لي والدتي أنهما، خلال تلك السفرة إلى سان تروبيه، توقفا في مرأب صغيرٍ إلى جانب الطريق، وطلبا من صاحب المرأب المذهول تماماً بهذه السيارة الأولى من طراز E، إحداث بضعة ثقوب في العادم لكي تُصدر الجاغوار صوتاً أقوى. تعرّضت والدتي وشقيقها إلى توبيخٍ شديد اللهجة من قبل الحرفي الخبير الذي رفض رفضاً

قاطعاً ارتكاب مثل هذا الانتهاك لحرمة سيارةٍ بهذه الحداثة وبهذا الجمال. لم تحتفظ بهذه السيارة من طراز E وقتاً طويلاً، إذ بادلتها بسيارةٍ من الطراز نفسه، ولكنها مكشوفة، وذات لون رمادي فاتح، وقد احتفظت بها حتى العام 1965. ثم أعطت هذه السيارة لجورج بومبيدو، صديق العائلة، وهو من هواة الفن الحديث، فقد سحره تصميم الجاغوار ومظهرها الخارجي. في السنة نفسها، ومن أرباح «خفقات قلب»، اشترت سيارة فيراري كاليفورنيا الصغيرة المكشوفة.

بعد ولادتي ببضعة أسابيع فقط، في شهر أكتوبر 1962 بالضبط، حدثت حادثةٌ أخرى تسببت لوالدتي بالاضطراب. لم تتكلم والدتي (على الأقل بشكلٍ علني) عن هذه الأزمة التي جعلتها تمر بفترة قلقٍ رهيب. مع ذلك، فيما بعد، عندما أصبحت في عمرٍ وفي نُضجٍ كافيين، رحنا نستذكر معاً، وبشكلٍ متواتر إلى حدّ ما، ما أسميناه «أزمة كوبا». كان يكفي أن نتذكرها لكي تقشعرّ أبداننا، نحن الاثنين. ويدهشني ألّا يتم التطرّق إلى هذا الأمر في مختلف السِّيَرِ التي خُصصت لوالدتي. التفسير الوحيد المقبول لهذا الأمر هي أنها لم تكن تحب مشاركة ما كان يبدو لها الأكثر سوءاً. لم أكن حينها سوى طفل صغير، بعمر بضعة أشهر، وربما كان هذا ما عظّم من هلعها، ولكن، إذا ما كانت الأحداث قد اتّخذت مثل تلك الأهمية بنظرها، فإن مردّ ذلك لم يكن فقط إلى قلقها عليّ. ما كان يُرعبها هي النتائج المخيفة التي قد تؤدي إليها لعبة العض على الأصابع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. في أكتوبر 1962، حاول الروس إرسال، وتركيب صواريخ نووية على جزيرة كوبا، على بعد قرابة مئتي كيلو متر من فلوريدا. (ونعتقد الآن أن ذلك كان رداً على الأمريكان حين ركّبوا، قبل ذلك بعام، صواريخ في تركيا وفي إيطاليا قادرة على الوصول إلى الاتحاد السوفيتي). أحدثت هذه الصواريخ الروسية الموجهة إلى الأراضي الأمريكية توتراً شديداً، حتى إنها وضعت العالم على حافة حربٍ نووية على مدى أكثر من أسبوع. وإذ أرعبتها فكرة صراعٍ على مدى واسع بين القوتين العظميين، بقيت والدتي طيلة حياتها تخشى من إمكانية حدوث مثل هذا الجنون. كان وعيها لهذا الخطر أكثر اتّساعاً دون شك، وأكثر كمالاً مما هو عليه لدى عامة الناس في

بيئتها. وجاء يوم اكتسى طابعاً خاصاً، عندما أُصيبت طائرة تجسس أمريكية فبدا العالم قاب قوسين أو أدنى من الكارثة. في ذلك المساء كانت والدتي مدعوةً عند بعض الأصدقاء. وعندما وصلت متأخرةً بعض الشيء، كان الناس جميعاً قد بدؤوا بالعشاء. وقفت مذهولةً تماماً حين رأت المدعوين يجلسون بكل هدوء إلى المائدة، وشوكهم بأيديهم، بينما كان العالم يقع تحت خطر التحول إلى رماد بين دقيقةٍ وأخرى.

هذا الخوف الكبير، لا بل ذلك الذُّهان الذي يُحدثه لديها احتمال نزاعٍ نووي (وقد أورثتني إياه)، يُستَشفّ من كتاباتها، وبالأخص من إحدى قصصها القصيرة «ذات صباح وطيلة الحياة»، وفي مقال بعنوان «الطبيعة» حيث تعبر عن تعلّقها بالطبيعة واحترامها العميق لها. «هذه الأرض التي تضم بشدة، على جنباتها، وبفضل قوة الجاذبية، أولادها البشر [...]، تروي عطشهم، تغذيهم، وتدفع بزفيرها أشرعتهم أو أجنحة طواحينهم [...]، مُعيرةً شطآنها للكسالى، [...]» ومن ثم تصرخ بإحساسها بالظلم وبالغضب: «وما الذي عرفَته فجأةً في العام 1945؟ أن أولادها هي بالذات، وجدوا الطريقة لإحراقها، بكامل مساحتها. ربما كانت، وبجريرة أخطاء الناكرين للجميل، ستجد نفسها وحيدةً، رمادية، صلعاء [...]، لا يرفّ فوقها جانح طيرٍ». وبعد أن نكون قد خرّبناها بشكلٍ نهائي، وأحرقنا جلدها، وجعلنا منها كرةً منتوفة، رمادية، ومدخِّنة، محرومةً من الهواء، ومن الشمس، ومن العشب، ومن الطيور، ومن المروج، ومن الأنهار، ما الذي سيحلّ بها؟ حتى لو أنها لن تتفكك وتتفتت، ما الذي ستفعله وحدها، وقد فُرّغت من سكّانها، وعادت لتصبح شبيهةً بالكواكب الأخرى، على غِرار كرةٍ صامتةٍ، جرداء تدور في ظلامٍ لا متناهٍ؟ ومما يُثير غضبها فكرةُ أننا قد ندمر ذات يومٍ (وشيكٍ)، بسببِ كبريائنا، وتبجّحنا، وأنانيتنا، وبعبارة أخرى، بسبب حماقتنا، تلك الأرض التي تضمنا، وتحمينا، وتغذّينا، منذ زمنٍ طويل. كنا نتساءَل، ونُسائل سلوكياتنا الطائشة وعديمة المسؤولية، فلا نجد إجابةً لذلك. كانت تستشهد بسيلين لتُعبّر عن تشككها: «إنني أكره الحرب، لأن الحرب تجري دائماً في الريف، أما أنا، فالريف يُسئمني». هل كان لا بد إذن أن يكبر المرء في الفيركور، ويُمضي عطلته في النورماندي، وأن يسافر إلى النيبال، ويمتطي

صهوات الجواد في هضبات اللوت الجيرية، ووديان المونتانا، عند هبوط الليل، هل كان لابد من تنشّق رائحة الأرض تلك، بعد المطر، والشعور بهذا الإحساس بالرضا، وبالجميل، ليعرف كيف يحبّ الأرض؟ أَلَمْ يعِش سيلين إذاً هذا التشارك مع الطبيعة؟ تلك الأرض التي كنا نطأها، ونسيء معاملتها يومياً، هي مسكننا الوحيد، ولن يكون لنا أي مسكنٍ آخر. هكذا كنا نتقاسم مشاعر القلق قبل أن نستعيد تفاؤلَنا مع بروست، وبيسارو، ومونيه، أو جورج صاند. بالنسبة إلى والدتي، ليس هناك سوى طبيعة واحدة، وقد أتينا منها جميعاً: بشراً، وجياداً، وكلاباً، وقططاً، وأسوداً، وعناكبَ، ووحيدي قرن.

المحبة التي تكنّها للطبيعة، وهذا الشعور القوي الذي لديها بأنها تشكّل معها وحدةً، تغذيهما صورُ طفولةٍ سعيدة في طبيعة الفيركور، ونزهاتها الطويلة في الريف مع بولو الحصان الصغير الذي أنقذه والدها من المسلخ. وعلى غِرار السيارة، ألا يُجسّد الحصان فكرة الحرية، إذ يتيح للإنسان أن يجتاز «هذا السجن الذي لا ينتهي، والعديم الحواجز، تلك المسافات الشاسعة، المُقفرة، والمفتقرة إلى الجاذبية، من حيث إنها تقف عائقاً بين حياتها وأشد رغباتها قوةً؟» بسرعته، يحمل فارسَه بالخطوة الطويلة «لكي تمتزج المتعة بالخوف، في إحدى تلك الروابط اللحظية التي هي أقوى أشكال بهجة العيش، وقبول الموت». وقد حافظت والدتي، حتى آخر حياتها، على هذه الرابطة مع الجياد.

«إنني واحدة من العشرة أو الخمسة عشر أو العشرين بالمئة من الفرنسيين، أو من الكائنات البشرية، الذين يشعرون بخليطٍ من الإعجاب، والانبهار، والحميّة الفريدة من نوعها، أمام الحصان». حلمها، لو تيسّرت لها الوسائل، يتمثّل بامتلاك أحصنة سباق. «إنها الرفاهية الوحيدة التي أتحسّر عليها، من بين تلك التي عرفتها، والتي سلبتني إياها لا مبالاتي، وحماقتي، وذهولي وتشكّكي تجاه الصبر الذي هو دأب النصابين». ومع ذلك، حصلَتْ على أحد تلك الجياد، في بداية الثمانينيات. لقد شارك «هاستي فلاغ» في بعض السباقات محتلاً المراتب الأخيرة في المجموعة، إلى أن حصل ذات يوم على جائزة سباق الحواجز الكبير في الربيع في أوتوي. ومن ثم كسب سباقاتٍ أخرى أقل أهمية، وبشكلٍ خاص سباق جرى في حلبة كليرفونتين،

في دوفيل، حيث انتصر دون عناءٍ على الجياد المنافسة بعدة أطوال[1]. ألوان هاستي فلاغ المميزة[2]: سترة زرقاء، وقبعة سوداء، وكتفيتان سوداوان. لم تكن والدتي تشعر بأية سعادة، أو أية استثارة، أكبر مما تشعر به عندما تمضي لمشاهدته وهو يجري، وعندما تُميّز من بعيد القبعة الصغيرة السوداء تبرز عن كتلة المتسابقين، ويُسمع صوت المعلّق وهو يعلن: «هاستي فلاغ يُعاود التقدم» أو «هاستي فلاغ يعوّض بعض المسافة». كان شغفاً حقيقياً، ولكم أشعر بالأسف لأن الفيلم الذي اقتُبس عن حياتها لم يُوضح هذا الشغف بشكل أفضل، واضعاً طيّ الكتمان إحدى السمات الأكثر بروزاً في شخصيتها.

لقد أحبّت والدتي الجياد. وكذلك أحبت الكلاب والقطط. ولطالما أحاطت نفسها بالبعض منها، فترعرعتُ وأنا مُحاطٌ بالكلاب، بين كلاب جدّيّ القصيرة القوائم وفيرتر الراعي الألماني[3]، الذي أهدته لها صديقتها إيلكه عندما كنت بعمر ست أو سبع سنوات، والذي رافق طفولتي كلّها من 1967 إلى 1980. هذا الراعي الألماني، الذي كان يعتبر نفسه (كما تقول والدتي) «كلب أكمام»[4] لأنه يحبّ الصعود على الأرائك، والتلطّي على ركبنا. كان ذا طبعٍ حنونٍ وصبور، لا يتركنا على الإطلاق، ويُظهر كل علامات الأسى عندما نذهب أنا ووالدتي أو برفقة آخرين في نزهةٍ في غابة بروي، ونتظاهر بالانفصال عن عمدٍ عند منعطف طريقٍ، لنشاهد ردة فعله. كان ينطلق في جريٍ جامحٍ متنقلاً من أحدنا إلى الآخر، آملاً بجمعنا معاً من جديد. العيب الوحيد لدى فيرتر هو أنّه يخشى السفر كثيراً. فما إن نتلاقى مع سيارةٍ أخرى يبدأ بالنباح، يهدر ويقفز من جهةٍ إلى أخرى على المقعد الخلفي، إلى درجة أننا صرنا نضطر إلى إعطائه بعض المهدئات عندما نركب الطريق. هذا العلاج الذي وصفه له الدكتور تويلييه، الطبيب البيطري في شارع فانو كان شديد الفعالية حتى إن فيرتر المسكين أصبح يقفز بحركةٍ بطيئة، وينبح بصوتٍ خفيض، وتتهدّل عيناه إلى ما تحت مكانهما

1- في السباقات، يقاس تقدم أو تأخر الجواد بطول الجواد نفسه.
2- الألوان المميزة للجواد هي الألوان التي يرتديها الفارس ليتم تمييزه من بعيد.
3- كلب له صفات شكلية شبيهة بصفات الذئب، ويسمى أحياناً الكلب-الذئب Chien-loup
4- كلب صغير جداً تحمله السيدات ويمكن وضعه ضمن الأكمام.

الطبيعي. وكنا نستمتع كثيراً برؤية هذه التغيّرات التي تضفي عليه هيئة راعٍ ألماني تُحرّكه طاقة بزّاقة خارج قوقعتها. ذات يوم، وكان فيرتر بعمر سنةٍ أو سنتين، في منزل جادة سوفرين، دعت والدتي بعض الأصدقاء إلى استقبال وقررت تقديم بولشوت، وهو كوكتيل مصنوع من الفودكا، ومرق لحم البقر، وصلصة ورسسترشاير Worcestershire الإنكليزية. كان الوقت صيفاً، والطقس حاراً جداً، وقد وزّع رئيس الخدم كميةً كبيرة من البولشوت في قصعتين كبيرتين وضعهما على الشرفة. اشتمّ فيرتر بسرعة رائحة مرق اللحم، وإذ لم يستطع مقاومة تلك الرائحة، وذلك البخار الشهي، تذوق الشراب المخصص للزوار، حتى إن والدتي عندما لاحظت بسرعة أنه غير قادر على الوقوف على قوائمه، ولا حتى الجلوس، يترنح ذات اليمين وذات الشمال، ويقع على جنبه، عرفت أنه قد سكر بشكلٍ تام فاستدعت الدكتور تويلييه الذي وصف له حميةً مطلقة، والكثير من الماء. نام فيرتر طوال ثلاثة أيام وليلتين، ورأسه مدفونٌ بين قائمتيه الأماميتين، كما لو أنه ينوي الانعزال عن العالم، وعدم سماع أية ضجة.

قبل فيرتر، كان هناك يوكي. ولابد أن والدتي قد حصلت عليه بعد حادث السيارة. يوكي ليس كلباً مؤصّلاً ولكنه يمتاز بالذكاء والسحر. جلده أسود وبرتقالي فاقع، أما قوائمه وصدره فبيضاء وكأنه مدير تشريفات. كان يوكي معتاداً على الذهاب في نزهاتٍ في غابة بروي، خلف المنزل. ذات يوم ذهب ولم يعد. عبثاً حاولوا مناداته والبحث عنه... اختفى يوكي.

لقد تأثرت والدتي كثيراً لاختفائه، وأسرّت بحزنها الشديد هذا بالطبع إلى أقربائها، ومنهم صديقها جورج بومبيدو، الذي كان في تلك الفترة رئيس الوزراء. لست أدري ما هو السبب، أكان حزن والدتي الحقيقي، أم الأريحية الحقيقية لدى بومبيدو، هي التي أثرت على قراره حتى إنه طلب فصيلاً من الشرطة للبحث في ريف هونفلور المجاور من أجل إيجاد يوكي. لم يُجدِ البحث شيئاً. حينئذٍ لجأت والدتي إلى الصحافة ووجهت نداءً خلال مقابلةٍ متلفَزة أجرتها قبل نشر «خفقات قلب» تقول فيه إنها فقدت كلبها. سألها الصحفي عمّا إذا كانت لا تجد حرجاً من استخدام التلفاز بهذا الشكل لاستعادة حيوان: «إنه لأمرٌ مزعجٌ نوعاً ما أن أُحرجكم بهذا، لكنني أعشق هذا الكلب، إذن فكل الوسائل متاحة. أفلا

تُزعجنا الصحف والتلفاز في أحيان كثيرة؟ لذا، ما الذي يمنعنا من استخدامها حين يبدو لنا الأمر مفيداً؟» وأضافت أنها تُفضل أن يسخر منها الجميع وتستعيد كلبها، على أن تعيش من دونه وأن تكسب حسن التقدير العام.

إذن كانت والدتي تكنّ محبة كبيرة للحيوانات، إنها تعشق يوكي. ولكن ينبغي ألّا يحملنا هذا على التفكير بأنها تبدي نحوها شغفاً مفرطاً أو مرضياً. كان عمري ست سنوات عندما استقبلنا كارمن لبضعة أيام في شقتنا في جادة سوفرين. كارمن عنزة سيرك صغيرة، كان مروّضها يُجبرها، من أجل كسب بعض النقود، على صعود ونزول سلّم موضوعٍ على رصيف شارع باك. لا شكّ في أن والدتي، وهي تمر بسيارتها في تلكَ اللحظة، أخذتها بها الشفقة، فتوقفت واشترت العنزة، ووضعتها في سيارتها، وأتت بها إلى البيت. وهكذا فقد تساكنّا لبضعة أيامٍ مع العنزة ومع فيرتر، الراعي الألماني الفتي، الذي بدا مندهشاً جداً من وجودِ هذه الدابة ذات القرون في المنزل، ومع مينو القط الذي لم يكن أقل دهشة منه. اهتمّت كارمن اهتماماً وثيقاً بأطراف أريكة المدخل، ولكن لم يتسنّ لها ما يكفي من الوقت لمهاجمة ستائر الصالون، لأن والدي أخذها بسيارة الفيراري الصغيرة إلى إيكموفيل، وصادف نجاحاً كبيراً جداً عند الشارات الحمراء في الفيراري المكشوفة بصحبة العنزة الصغيرة الجالسة إلى جانبه. في عائلتنا طُرفٌ عديدة أخرى مرتبطة بالحيوانات. هناك تلك الصورة الشهيرة التي أُرى فيها في حديقتي في إيكموفيل مع الحصان الذي دخل إلى الصالون، ووقف إلى جانبي. وهناك أيضاً القصة التي جرت مع ليو، الطائر الذي تملكه أخت جدتي في اللوت. كان لخالة والدتي، التي أُمضي عندها نصف فترة الصيف مع جدتي، ببغاءٌ ماليزيّ يُدعى ليو يُقلّد تماماً الأصوات، والضحكات، ويصفر، ويغني أحياناً بصوتٍ ثاقب. ذات يوم جاء جورج بومبيدو للغداء عندها، وكان حينها رئيساً للجمهورية، فهو يمتلك منزلاً على الهضاب قرب كاجار، على بعد بضعة كيلومترات من هناك. وما إن اجتاز عتبة غرفة الطعام حيث وُضِع قفص الببغاء، حتى بدأ الطير بإنشاد المارسييز[1]. أُعجِب رئيس الجمهورية إعجاباً شديداً بهذا الاستقبال غير المتوقَع، والرسمي جداً.

1- النشيد الوطني الفرنسي.

-8-

ولِد والدي، روبرت جيمس ويستهوف، المعروف باسم بوب ويستهوف، في 3 مارس 1930 في الولايات المتحدة، في أوجيلفي، من ولاية مينيسوتا. جاء ثمرةَ زواجٍ ثانٍ، وهو الطفل ما قبل الأخير في عائلةٍ من ستة أولاد أكبرهم، وهو ذكر، يسبقه بعشرين عاماً. والده، الذي هاجر من هامبورغ في بداية القرن، رجلٌ لامعٌ ودؤوبٌ. وعلى الرغم من كون العائلة متواضعة، فإنها تمكنت من البقاء في مأمنٍ من الفقر الذي أصاب أمريكا خلال الفترة التي تبِعت انهيار 1929. استأثر بوب، منذ نعومة أظفاره، بفضول أقربائه الذين كانوا يصفونه بأنه «فوق المتوسط». فبالإضافة إلى حيويته، كان لديه رهافةٌ في الذكاء والنباهة، واستقلالية خارجة عن المألوف. وهذا ما أقرّ له به الجميع في وقتٍ مُبكر. لديه مواهب حقيقية في الرسم، والموسيقى، والفنون بشكلٍ عام، وهي مزايا كان من شأنها أن تتيح له إقامة علاقةٍ قوية مع والده، غير أن تسلّطيّة هذا الأخير ستُبقي دائماً مسافةً بينهما. ولحسن الحظ، وجد بوب في إخوته وأخواته شركاء أمناء جداً، فراح يتّفق معهم على القيام بألف حماقة وحماقة. واستفاد من التسامح الذي كان يمنحه إياه عمر والده (الستيني) ليتصرف دائماً بحرّيةٍ أكبر، وهذا ما قاده سريعاً إلى رفض كل سلطةٍ بشكلٍ عام. وعندما انتقلت العائلة من أوجيلفي لتستقرّ في مدينةٍ صغيرة على حدود وسكنسن، حيث الشارع العام لا يضمّ سوى ستة منازل، ضجرت روحه الحرة وبدأ يحلم بآفاق جديدة. في ذلك العام 1947، لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة. زوّر التاريخ على شهادة ميلاده، أو ربما استعار بطاقة هوية من أحد رفقائه الأكبر سنّاً، لا نعرف بالضبط، وتطوّع في الجيش. اختار القوى الجوية، وذهب ليتّبع دورته في سان أنطونيو في

ولاية تكساس، واجتاز بنجاح اختبار مدرسة الضباط، وترفّع بسرعةٍ وأصبح أحد أصغر ضباط الجيش الأمريكي عمراً. وعندما اكتُشفت خديعته بعد ذلك بعدة أشهر، كان قد بلغ سنّ الرشد. وكما تشهد كاتبة السيرة[1] لم يُطرَد، ولم يتطوّع تحت راية أمّةٍ أخرى. فالقوى الجوية الأمريكية التي لم تكن ترغب قط بالتخلي عن عنصرٍ لامعٍ مثله، تغاضت عن الأمر. وعندما انتهت فترة تكساس، اختار أنكوراج في ألاسكا، وهو موقعٌ متقدمٌ من مواقع الدفاع الأمريكية في حال حصول نزاعٍ مع الاتحاد السوفيتي. إننا الآن في العام 1948، وكان الجيش قد طوّر في ذلك المكان مشروع تُرسٍ ضدّ أي اعتداءٍ من الجو سمّيَ «نايكي»[2]. كانت معدّات الحرب الباردة على وشك أن تركّز في مكانها. وراحت الولايات المتحدة، التي ازداد لديها وسواس الشيوعية، تنشر سيطرتها وقواعدها العسكرية عبر العالم. فالاتحاد السوفيتي الهائل انتصر لتوّه على المعتدي النازيّ، وهزَّ تلاحم حلفائه القُدامى في مؤتمر يالطا.

لم يكن أهل بوب يعرفون الشيء الكثير عن المهام الموكلة إلى ابنهم سوى أنه لا يطير، وأنه مجرّد مدرِّبٍ. ويبدو أن بوب قد استمرأ تلك الأرض التائهة على حدود الدائرة القطبية، إذ إنه جدد خدمته لثلاث سنوات على قاعدة إيلمندورف، حيث لا يدوم النهار لأكثر من بضع ساعاتٍ في الشتاء، وتهبط درجات الحرارة إلى دون 30 درجة تحت الصفر. وخلال إجازته، كان يلتقي بذويه، ولكن رغبة السفر تسلّطت عليه فلم يعد ينوي التوقّف عند حدود مينيسوتا. وعندما مرّ ثانيةً ليلتقي بأهله في شتاء 1951، قبل أن يطير إلى كاليفورنيا، ومن ثم إلى آسيا، كان يعرف أنه لن يرى عائلته ثانيةً، إلا بعد فترةٍ طويلة. في نهاية العام 1953، أُرسل كمستشارٍ خاص إلى هاي فونغ، في الهند الصينية، من أجل مساعدة الحملة العسكرية الفرنسية المزودة بعتاد أمريكي. وفي بداية شهر مايو 1954، أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية، التي كانت تتوقع الهزيمة الوشيكة للفرنسيين في ديان بيان فو، أرسلت طائرةً

1- هكذا وردت في النص. ربما كان المقصود كما تشهد سيرة حياته.

2- الاسم مأخوذ من الميثولوجيا الإغريقية حيث يشير إلى إلهة النصر. وهو نفس الاسم الذي اعتمدته شركة المنتجات الرياضية الموجودة حالياً في السوق.

خاصة لإخراج والدي من فيتنام. بعد ذلك بخمسٍ وعشرين سنةً، سوف يعبّر لي عن مدى صدمته بما رآه وعاشه على تلك القاعدة الصغيرة في هاي فونغ حيث تواجه للمرة الأولى مع الحرب، والخوف، والهزيمة، وموت فتيانٍ من عمره، كان البعض منهم من أصدقائه. تلك المرحلة الآسيوية التي سيختتمها بمرحلة عابرة لبضعة أسابيع أمضاها في هونغ كونغ، سوف تضع حداً نهائياً لالتزامه بالجيش.

وبما أنه من المحاربين القدماء فقد أتاح له وضعه الحصول على منحةٍ دراسية، فقرر حينها الذهاب إلى مكسيكو حيث سُجّلَ في الفنون الجميلة. وهناك، منذ بداية وصوله، التقى بفرقة هوليداي أون آيس، وسرعان ما وضعت هذه المصادفة حدّاً لمقاصده الدراسية. وإذ استرعى الانتباه بمزاياه كمتزلّجٍ على الجليد، دخل للمرة الأولى في عالم الاستعراض. ومن ثم عاد إلى الولايات المتحدة، واستقرّ في سان فرانسيسكو، في كاليفورنيا.

وهناك، أجهلُ كل شيء عن الطريقة التي التقى فيها بأحد مُصمّمي أزياء الرجّال، الذي أُخِذَ دون شك بقامته، ومشيته، فعرض عليه القيام بالدعاية لإنتاجه من الألبسة. والدي، بعمر الثامنة والعشرين عاماً، طويل القامة، نحيل، ومُغرٍ جداً من الناحية البدنية، ذو طلعة ساحرة وهو شابٌ جيد التربية؛ يتمتع بتلك القامة المكتملة التي يتّصف بها بعض الشبّان الأمريكيين في تلك الفترة، طبيعية دون استهتار. قَبِل العرض وأُخذت له صورٌ للمجلات. وبعد أن كان بوب ويستهوف أصغرَ ضباط الجيش الأمريكيين عمراً، أصبح أحدَ أوائل عارضي الأزياء المصوَّرين في عصره. هذه الفترة المهنية القصيرة نوعاً ما، والبعيدة جداً عن ذوقه، وعن مواهبه، والتي لم يكلّمني عنها قط بشكلٍ حقيقي، لابد أنها أتاحت له الاستمتاع بحفلات السرور والبهجة مع أصدقائه، فاتحاً لهم المجال للاستفادة من المال المكتسَب بسهولة. وما أنا متأكدٌ منه، أن والدي لم يكن يهتمّ بالمال إلّا من حيث إنه يمكنه إنفاقه وأن يضعه في خدمة كرمه.

ولكن كما أنه كان يكره السلطة بأشكالها كافةً، سواء أفرضت عليه، أم اضطر هو إلى فرضها على غيره، أعتقد أنه كان يمقتها أكثر من كل شيء عندما يتوجب عليه فرضها على نفسه. وعلى هذا فإنه يرفض كل الواجبات

والالتزامات أياً كانت. لا شيء يستطيع تقييده ولا تهديد حريته. والآن، وبعد عشرين أو ثلاثين عاماً من ذلك، أدركت أن والدي كان أحد الأشخاص النادرين الذين عرفتُهم، والذين ما كانوا يقبلون بهدر حريتهم مقابل أي شيء في العالم. لم يكن شخصاً غير قابل للفساد فحسب، بل كان، إن جاز لنا التعبير، منيعاً. إذ إن المال والسلطة وكل ما من شأنه أن يمنحه، بحسب رأيه، تعالياً على الآخرين لا يعنيه في شيء على الإطلاق. وإذا ما اضطلع بدوره كأب بجدية، فإنه عانى على الدوام من التصرف معي بصرامة ومن تعنيفي. لقد أدركت ذلك في وقتٍ مبكرٍ جداً، من موقفه المحرَج جداً عندما لم تكن درجاتي في الصف جيدة، وتحاول والدتي أحياناً جعله يأخذ دوره كأب، وتطلب منه أن «يشدّ لي أذُني». حينها كنت أستحق عن جدارة «جلسة تأنيبٍ» خلال غدائنا أو عشائنا التالي فيروح يشرح لي خلاله برفقٍ المنغّصات التي يمكن أن يُشكّلها إغضابي لوالدتي بسبب حماقاتي، ويكلمني عن التبعات التي يعتبرها جديةً أكثر بكثير من سوء نتائج الرياضيات والعلوم الفيزيائية. وعبر ما كنت أستشعره على أنه تهيّبٌ[1]، كنت ألمح السلطة والتشدد اللذين أظهرتهما والدتي تجاهه (أحياناً عن حق وأحياناً لا)، واللذين اضطرّ أمامهما أخيراً لمغادرة المنزل بشكل نهائي، تاركاً جادة سوفرين في بداية السبعينيات.

وعلى العكس، إذا كان والدي يعرف كيف يبدو مسترخياً، متساهلاً، وسلس المعشر (وهي خصاله بالفعل) فإنه يُبدي صرامةً أكبر، وتشدداً أكبر بكثير، في بعض المجالات، على سبيل المثال: فيما يخصّ مظهره الذي كان يسعى لأن يكون على الدوام لا عيب فيه، وينمّ عن ذوقٍ رفيع، وعن سلوكٍ مُتّزن. سُتَراته، وبناطيله المفصّلة بأدق ما يمكن من الإتقان، خالية من أيّ تجعيد؛ ألوان قمصانه، وربطات عنقه (عندما كان يلبسها) متناسقة تماماً، يداه وقصّة شعره بمنتهى العناية. كان دقيقاً في تصرفاته ولبِقاً بشكلٍ مطلق في الظروف كلها. فهو يعتبر (وبهذا يتفق مع والدتي) أن احترام الآخر، وما يُسمّى قواعد اللياقة، ينبغي أن تُسيطر على أية علاقة بشرية، حتى لو كانت مؤقّتة. ذلك مبدأ من مبادئ الحياة.

1- ربما المقصود التهيّب من اتخاذ بعض المواقف الصارمة أحياناً.

وكذلك كان والدي يُبدي تشدداً بخصوص الاستخدام السليم للغة الفرنسية لا يضاهيه إلّا تعلقه بها. وعلى الرغم من أنه احتفظ حتى نهاية حياته بلكنةٍ أمريكية خفيفة (وهي لا تفتقر إلى الجمال) كان يجيد التعبير في لغتنا حتى إن العديد من الناس اعتبروه من المتزمّتين. وعندما نجلس معاً، كان ينبهني على الدوام، ويُصحح لي حينما أرتكب غلطةً نحْوية، أو أستخدم بشكلٍ مغلوط أحد الأزمنة الفعلية، أو إذا ما استخدمتُ الحوشي من الكلام. فكلماتٌ مثل mec (كلمة عامية بمعنى شخص) و zinc بدلاً من طيارة، أو القول « partir à » بدلاً من « partir pour » كان من شأنها أن تستثير عصبيته. كما حصل ذات يوم حين استخدمتُ تلك المقولة التي أثارت انزعاجاً شديداً لديه: «إنه يتكلم الفرنسية مثل بقرةٍ إسبانية.» وشرح لي أن هذه العبارة مشوَّهة لفظياً عن العبارة الحقيقية: «يتكلم الفرنسية كما يتكلم الباسكي الإسبانية.» [1]

غالباً ما تطرّقنا، أنا ووالدتي، إلى مثل هذه المسائل اللغوية المتعلقة بالمفردات وبحسن استخدامها. فكانت تتكلم عنها بحنانٍ كبيرٍ لأنها ملأت حياتها منذ نعومة أظفارها، وكانت تتغذّى بها. فلكل كلمةٍ نبرتُها، وموسيقيّتُها، وجمالها الخاص. إنها تجد بعض الكلمات مثل كلمة balcon وmélancolie رائعة. إذ تكفي بعض الكلمات المختارة بشكلٍ جيد، والمنسَّقة بشكلٍ جيد، للتعبير عن أية فكرةٍ، أو أيّ انفعالٍ مهما كان، وأن تنقل الشخص الذي في قربها إلى عالمٍ خياليّ أو شاعريّ. فأن تستحضر الكلماتُ الأفكارَ كان بالنسبة إليها أمراً صحيحاً كما يصحّ عكسه. فلولا تعلّم المفردات، ولولا القراءة، ولولا المدرسة، لأصبحنا كمن بُتِرَ أحد أطرافه، ومحكومين بنوعٍ من الانعزال لكوننا محرومين من وسيلة تفسير وعرض فكرةٍ، وتحريك زوايا الفكر، وإفهام الغير لفكرنا. وعندما كُنا نُعاود مراجعة هذه العموميّات حول حُسن استخدام الكلمات، يذهب والدي، الذي يعتبر

1- الباسكي من سكان منطقة الباسك بين فرنسا وإسبانيا لهم لغتهم الخاصة. والعبارة هنا تأتي من الخلط بين كلمة vache بقرة وكلمة Basque باسكي.

«Parler le français comme une vache espagnole»

«Parler le français comme un Basque l'espagnol»

مثل هذه المجادلات عقيمةً، ليجلس على انفراد. كان اهتمامُه منصباً أكثر حول التقيّد بقواعد الصرف والنحو أكثر مما كان مهتماً باعتباراتنا التجريدية.

في العام 1958 أو 1959، غادر والدي سان فرانسيسكو. أبحر برفقة بعض الأصدقاء على مركبٍ ضخمٍ من نيويورك باتجاه أوروبا. أعطاه شارل دي روهان-شابو عنوانه وأرقامه في باريس وطلب منه الاتصال به حال وصوله. (أجهل كيف التقيا، ربما حصل ذلك خلال مروره في نيويورك)، ولا شك أنه أُخِذ بسحر والدي (وعلمت في وقتٍ متأخرٍ جداً أن شارل كان يتشارك معه بميله إلى الرجال بقدر ما يميل إلى النساء). سوف يكون لقاؤه مع شارل دي روهان-شابو أكبر منعطفٍ في تاريخ حياة والدي الذي، حين أبحر على تلك الباخرة، لم يكن يعرف بعد إن كان سيبتعد عن وطنه، وعن عائلته، وعن ماضيه بشكلٍ نهائي.

تخيّلت، وهذا ما أُكِّد لي وأصبحت مقتنعاً به تماماً من الآن فصاعداً، أن لقاءه مع أوروبا، ومع فرنسا وباريس بشكلٍ خاص، كان أشبه بحبٍ من النظرة الأولى. منذ اليوم الأول لوصوله، لم يعُد هنالك، على ما يبدو، أيّ مجالٍ لرجوعه. واعتباراً من هذه الانطلاقة المفاجئة جداً، سوف ينقطع عن عائلته لأكثر من عامين (حتى زواجه). لم يكتب أية كلمة، لم يُرسل أية برقية، ولم يُجرِ أيّ اتصالٍ هاتفي مع والدته، ولا مع شقيقته ماري جو، رغم أنه مقرَّب جداً إليها، ولا مع أشقائه. أما بالنسبة لذويه فإنهم يعرفونه على أنه ذلك «الطائر الغريب»، كما يقول أحياناً، الموهوب والغريب الأطوار، وعلى هذا لم يَستَثِر صمتُه الاستغراب بشكلٍ كبير، كما لم يتسبب بأيّ قلق.

شعر بوب بأنه حرٌّ تماماً ومُطمئنٌّ في بلدٍ لا يتكلّم لغته بقدر ما يفهمها، ولكنه يبدو جديراً بتلبية تطلّعاته، وميوله، ورغباته. استقرّ في مرسمٍ في مونمارتر حيث مارس النحت. شارل دي روهان-شابو، الذي التقاه ثانيةً في باريس، رجلٌ غنيٌّ، أنيقٌ، متميزٌ، يحب اللّهو. اصطحب والدي إلى حفلات العشاء، وأمسيات اللّهو، والنوادي المشهورة في تلك الفترة، وكان ذلك، في معظم الأحيان، بصحبة زوجته العتيدة باولا سانجوست، التي لم تكن سوى أفضل صديقةٍ لوالدتي.

لم تُولِّد لديّ الظروف الدقيقة للقاء الأول بين بوب وفرانسواز قط اهتماماً

كبيراً جداً بحيث يدفعني إلى سؤال أيٍّ منهما عن الأمر، بيد أن والدتي روَت لي الطريقة التي تقاربا فيها. هي التي كانت تتكلم في ذلك الوقت الإنكليزية بشكلٍ سيئ، وهو الذي لم يكَد يُنهي سنته الأولى على وصوله إلى فرنسا، وما زال يتكلم الفرنسية برطانةٍ شديدة جداً.

في ربيع 1961، قرر شارل وباولا الاحتفال بزواجهما الرسمي لأسباب أتخيل أنها غامضة وعاطفية مرتبطة بمزيج من التحفّظات والمحظورات والأعراف التي فرضتها عائلة كلٍّ منهما: باولا ابنة رجلٍ سليلِ عائلةٍ إيطاليّة كبيرة، وامرأةٍ اسمها شعارٌ في الأوساط المالية. أما الكونت شارل دي روهان-شابو فهو وريث سلالةٍ طويلةٍ من الأرستقراطيين قد ترقى أصولها إلى القرن الحادي عشر. التواطؤ والصداقة اللذان ربطا باولا وفرانسواز جعلاهما غير قابلتين للانفصال. حتى إن مشروع شهر العسل، وبالتالي فكرة انفصال إحداهما عن الأخرى بشكل مؤقّت، دفعت بباولا للطلب من والدتي إعارتهما منزلها في إيكموفيل لبضعة أيامٍ من شهر سبتمبر 1961، وإذ كانت تستشعر الانفراد المزعج مع زوجها الجديد، طلبت منها أيضاً... أن تبقى إلى قربها في البيت. وإذ اعتبر شارل أن توازنهما كزوجين قد يضطرب، أصرّ بدوره على ألّا يكون وحيداً، وطلب من والدي البقاء هو أيضاً إلى قربه في البيت.مكتبة سُر مَن قرأ

منذ الأيام الأولى لشهر العسل الغريب، تصاعد الصراخ وأصوات الزوجين الشابين إلى طوابق المنزل، واحتدّت أمزجتهما وهاجت، واصطفقت الأبواب. أصبحت الخلافات شديدةً جداً حتى إن والدتي، المغلوبة على أمرها، اضطرت إلى الالتجاء إلى ركن عند قفص الدرج، برفقة ذلك الأمريكي الشاب الذي تحمّل مثلها عواصف الزوجين المفاجئة شارل وباولا. إلا أن الدرج بدا بسرعة ملجأً قميئاً، ووالدتي كما كانت تفعل، وكما ستفعل غالباً فيما بعد، فضّلت الانطلاق بسيارتها، مصطحبةً معها بوب بالطبع.

وعلى الرغم من أنهما لا يجيدان الكلام إلا بجملٍ مجتزأة، فقد وجد والدي ووالدتي، دون أدنى شكّ، فيما بينهما ميولاً ونزوات قلبٍ قريبةً بما يكفي حتى إن جولاتهما التائهة على الطرقات الضيقة في ضواحي هونفلور (التي امتدّت فترة طويلة بعد إقامة شارل وباولا في إيكموفيل حيث دُعي

بوب إلى البقاء بعد مغادرتهما) قادتهما إلى نُزلٍ في بينيديبي، على بعد حوالي خمسة كيلومترات من هونفلور. ذات يوم، وبينما كنا نمر في قرب ذلك المكان على الطريق الإقليمي 513، أكد لي والدي، بشيءٍ من الفخر، أن الحمل بي قد تم هناك، في بينيديبي، ذات عصر خريفي لطيف.

بهذه التداخلات المفاجئة في الذكريات، وما فرضْتُه على نفسي من حيث إيرادها بحيث تقترن مع نقاط علاّم ملموسة بالنسبة إلى القارئ، فقد بدا لي الآن بشكل أكثر وضوحاً أنّ والديَّ متشابهان جداً، إلى درجة أنّ التفاهم بينهما حاصل لا محالة. لقد اختارا تبنّي طريقة حياة تتيح لهما، مهما حصل، أن يبقيا حرَّين (تتمتع والدتي بمهنة واستقلالية مالية)، والتصرف بالزمان والمكان كما يريدان (لطالما سكنت والدتي في شققٍ فسيحة بحيث تتيح لها إمكانية الانعزال لساعةٍ أو ساعتين في اليوم، وهذا ما تعتبره ضرورياً جداً لتوازنها الحيوي). ولكن، في ما خلا هذين الامتيازين، المكان والزمان، اللذين تعتبرهما والدتي جوهر الرفاه، اتضح أنهما يحبان بالقدر نفسه التوجّه إلى الآخرين، والتشارك، وابتكار لحظات غير متوقّعة. يحبان الضحك، ويهربان من الضجر وكأنه الطاعون. وعلى غِرار الكثير من الناس في تلك الفترة، على ما أعتقد، ما كانا يوليان كبير أهميةٍ للمال. قد تبدو الحياة السهلة، والغريبة، والحرة، التي تشارك فيها والداي خلال حياتهما كزوجين من 1960 إلى 1969، وقحةً، لا بل مُستنكَرة في يومنا هذا. في إحدى المقابلات، صرّحت والدتي بلسانها: «لقد وقعت في فترةٍ مباركةٍ، حيث كل شيءٍ ممكن، الحب والخيال؛ السنوات الثلاثين الوحيدة التي جرت على هذا المنوال خلال عشرين قرناً! لم أعُد أجرؤ حتى على رواية ما كنت أفعله: فمثل تلك الأمور أصبحت باطلة ومُثيرة للحسد.»

اكتشفتُ فجأةً أن الفترة الزمنية المُنقضية بين لقائهما الأول والحمل بي كانت قصيرة نوعاً ما، فشهر عسل شارل وباولا حصل في شهر سبتمبر 1961، ووُلدت ولادة مبكرة، كما هو معلوم، في 27 يونيو للعام التالي، وهذا لا يترك سوى بضعة أسابيع لتصنيعي. وحين أدركتْ والدتي أنها حُبلى في نهاية العام 1961، وإذ كانت لا تتصور نفسها أن تكون أماً عزباء، قررت عقد قرانٍ خاطفٍ مع بوب، جرى في شهر يناير 1962 في بلدية بارنفيل-لا-برتران الصغيرة،

وهي قريةٌ لا روح فيها؛ لا شيء فيها يُمتع الناظر سوى دار البلدية الواقعة على بعد كيلومتر تحت قصر بروي. مع أن والدتي كانت قد لُدِغت في فشل زواجها الأول مع غي شولر، ولكن الشغف الذي شعرت به منذ البداية تجاه والدي طغى على كل تحفّظاتها المحتمَلة؛ ومن ثم، على كل حال، لم يكن بإمكانها على الإطلاق، حباً بوالديها، التهرُّب من هذه التسوية الشرعية. «تزوّجتُ للمرة الثانية بدافع الحنان، بميلٍ حقيقي، وكذلك بحسٍّ بالمسؤوليات تجاه ابني. كنت أنتظر مولوداً وكان بوب مجنوناً من الفرح لفكرة أنه سيكون لديه ابن، أما والدتي فقد كدّرتها فكرة أن تكون ابنتها أُمّاً عزباء».

قبل عيد الميلاد ببضعة أسابيع، عرَّفت أهلها على زوجها العتيد. والروايات التي حُكيَت لي عن هذا اللقاء الأول جعلتني أشعر بأن والدتي شعرت بتخوّفٍ حقيقي رغم كل ذلك التواطؤ الذي كان يربطها بوالدها. بوب رجل قادِم من أمريكا؛ أهلها يجهلون كل شيءٍ عن أصوله، لم يكن يتكلم الفرنسية إلا قليلاً، التقت به قبل وقتٍ قريبٍ جداً، وتنتظر منه مولوداً. ولكن والدي كان يتمتع بتلك الفتنة وتلك اللياقة الطبيعية اللتين جعلتاه يحظى مباشرةً بالقبول لدى الأشخاص الذين يلتقي بهم، فتبدّدت بسرعةٍ كبيرة الأفكار الأوّلية المسبقَة لدى بيير وماري كواريز. ليس هناك أدنى شك أن جدتي قد افتُتِنت برهافة حسّهِ، وذكائه، وأناقته. وإذ اطمأنَّت على مزايا صهرها العتيد، استفسرت منه عن مهنته كنحّات. جدتي تهتم بكل شيء، وبالتالي فهي تهتم بالفن، وتتمنى التعرف ذات يوم على عمله، ورؤية أحد أعماله، حتى لو اضطرت في سبيل ذلك للذهاب إلى مونمارتر لزيارة مرسمه. ووالدي، الذي لم يكن من شأنه أن يتخيل رفض ذلك لها، وعدها بأن يجلب لها، في لقاءٍ قادم، أحد إبداعاته. لا أعرف شيئاً عن الزمن الذي انقضى بين هذين اللقاءين، إلا أن والدي اضطر، على ما يبدو، إلى تصميم، وتشكيل، وقَوْلَبة، وشيّ قطعة على جناح السّرعة لحماته العتيدة. خلال الغداء التالي، وصل إلى شقة مالزيرب ومعه تلك القطعة الشهيرة، جفنة صغيرة ذات مظهرٍ بسيطٍ نوعاً ما، وشكلٍ تقليدي. وإذ إنني أعرف جدتي، وأعرف تهذيبها الذي لا تشوبه شائبة، أتخيّلها وهي تُهنّئ والدي، وتُغدق عليه المديح تلو المديح حول نوعية وجمال منحوتته، مظهرة اطمئنانها حول موهبة صهرها العتيد.

ولكن بعد ذلك ببضعة أسابيع، حصلت الحادثة المضحكة التالية: خلال زيارة والدي التالية، عندما ذهب إلى المطبخ لسبب من الأسباب وجد أن جفنته الصغيرة التي نفّذها بسرعةٍ ومهارة، موضوعة على الأرض وهي مليئة بالماء، عند أسفل باب النملية. لا شكّ في أنّ جدتي عهدت، دون قصدٍ، وفي لحظة شرودٍ، إلى جوليا مدبرة المنزل بهذه المنحوتة، فوضعتها مباشرةً على الأرض، مملوءةً ماءً، قرب قصعةٍ أخرى. وهذا ما أدخل السرور إلى قلب كلب جدي القصير القوائم. أضحكت هذه القصة العائلة كلها، وبشكلٍ خاص والدي الذي لم يكن يتخلّى عن روحه الفَكِهَة تحت أي ظرفٍ من الظروف.

وعلى الرغم من أن زواجهما قد تم تنظيمه في الدقيقة الأخيرة، وأنه جرى في جوٍّ حميميٍّ صارمٍ، وكانت باولا وشارل شاهدي الزواج، واستُدعيت خالتي سوزان على جناح السرعة، فإن الخبر سرى في كل المنشورات الفرنسية قبل أن ينتشر في العواصم الأوروبية، إلى أن اجتاز المحيط الأطلسي، حتى إنه خُصص لهذا القِران تقريرٌ تم بثّه في الجريدة المتَلفزة في إحدى القنوات الأمريكية.

لا شك في أن القدر قرر بشكلٍ جدّي معارضة مشاريع والدي بالاختفاء، حتى إن أخته ماري جو أُعلِمت، ذات مساء، في يناير 1962، من قِبَل مراسلٍ في الصحافة المحلية، ففتحت التلفاز ووقعت على صورة أخيها بوب ببزّته الداكنة، وعُقدة الفراشة، واقفاً قرب والدتي مؤكِّداً زواجه منها. وكانت هذه النشرة المُتلفَزة هي التي أتاحت لبوب وعائلته إعادة العلاقات بعد أكثر من سنتين من الصمت التام. والأغرب من ذلك، هو أنه كان يحبهم جميعاً، بشغفٍ كبير، وكل زيارةٍ يقوم بها بوب إلى مينيابوليس، أكان ذلك قبل أو بعد زواجه، تتحول إلى مناسبةٍ لاحتفالٍ حقيقي، ولتبادل مشاعر الحنان، وإقامة تجمّعاتٍ بين الأخوة والأخوات، حيث تصدح الأغاني، بعفوية دائمة، كما بفعل طقسٍ شعائري. وقد واتتني الفرصة أن أحضر بعض هذه الاجتماعات وهذه الأغاني التي يصدحون بها بشكل جماعي (فكلهم متمكنون منها) وتعطي صورةً نادرةً عن اتّحادٍ عائلي، صورةَ تماسك كامل في عشيرة ويستهوف.

لم تذهب والدتي قط إلى مينيسوتا، لأنها تعتقد (كما قالت لي في أحيان كثيرة) أن الويستهوف ينتمون إلى طائفة الصّاحبيين[1] [المُرتعدين]، وهم أناس تقليديون يمارسون العقيدة الكاثوليكية المُتشددة. لم تكن عائلة والدي، التي اهتدت بلا شك إلى الكاثوليكية، لا كئيبة، ولا متزمّتة، وإنما حنونة، مُحبة، وعفوية. هل جعل والدي عن قصد والدتي تعتقد بمثل هذا الشيء، للحفاظ على تلك الهُوّة التي يودّ إبقاءها بينه وبين ذويه؟ هل اخترعت والدتي ذلك لتعطيني صورةً غير جذابة عن عائلة ويستهوف؟ عندما بلغت الثانية أو الثالثة عشرة، علمت أنها كانت تخشى، دون وجه حق، أن يأخذني والدي تحت ذراعه، ويصطحبني عنوةً إلى الولايات المتحدة، وألّا يسمح لي بالعودة أبداً. بيد أن مثل هذا الأمر لم يكن من شِيَم أيٍّ منهما، فليس من شيم والدي أن يصبح فجأةً مختطِفاً، ولا أن تُكَوّن والدتي حُكماً غير حصيف عن الإنسان الذي أحبّته، والذي عاشت معه بكلّ هذا الحنان. وفي يومنا هذا أيضاً، ما زلت أعترف بأنني لم أفهم أسباب هذا السلوك.

بعد الزواج، جاء والدي (الذي بقي مقيماً حتى ذلك الوقت في مونمارتر، حيث يمارس النحت بشكلٍ يومي)، للسكن مع والدتي في منزلها في الرقم 28 جادة الأنفاليد، في الدائرة السابعة، ثم في شارع مارتينياك في الشقة التي انتقلت إليها قبيل مولدي بوقتٍ قصير.

اكتسب والدي بسرعة سمعة الإنسان الجيد في كل مكانٍ وُجد فيه، ومع أيّ شخصٍ التقى به. إنه من مواليد برج الحوت[2] عن جدارة (فقد ولد في 3 مارس) ولم يكن يعبأ بالأنماط الاجتماعية، ولا بالأصول، ولا بالتقاليد، ولا بالرُّتب، لذلك كان يُخالط الناس الذين يلتقي بهم جميعاً، ويتفاهم معهم بشكلٍ مُطلَق. لم أسمعْه قط يتذمّر من البرد، أو من المطر، أو من مطعمٍ، أو

1- طائفة دينية انشقت عن الأنجليكانية في إنكلترا في القرن السابع عشر. يتخاطبون فيما بينهم بكلمة صاحب أو صديق ومن هنا أتت تسميتهم بالصاحبيين. كما أتتهم تسمية المرتعدين من عبارة توراتية تقول ما معناه: ارتعدوا أمام وجه الرب.

2- يُعتقد أن مواليد برج الحوت مسالمون لا يحبون المواجهة وذوو فكر غير محدود يهتمون بالعموميات دون الدخول بالتفاصيل ويتصرفون بما يمليه عليهم حدسهم. وهذا ينطبق إلى حد بعيد على طباع بوب.

من فيلم. وذات يوم، اصطحبتُه إلى صالةٍ صغيرة، خلف ساحة الأوديون، لمشاهدة فيلمٍ مدّته ساعة ونصف الساعة وهو فيلمٌ كرتوني للطائر السريع[1] وأتذكر أنه ضَحك أكثر مني.

ما عاد والدي ووالدتي ينفصلان، لا في النهار، ولا في الليل الذي كانا يُطيلانه حتى الفجر في معظم الأحيان عند ريجين[2]، في نيو جيميز في مونبارناس. من مزايا ذلك المكان أنه ليس كبيراً جداً، وأنّ فيه زاويةً حميمة، وأن له مدخلاً مزوّداً بمقعدٍ كبيرٍ، يمكن لمن أطال رقصة الجيرك أو التشا-تشا-تشا أن يُريح عقبيه وساقيه، أو أن يجلس للثرثرة حول كأسٍ، دون أن تُغطي المحادثةَ موسيقى الصالة المجاورة. كان هناك شيئان يُضجِران والدتي بخصوص علب الليل الحالية: كون الناس ما عادوا يرقصون بشكلٍ ثنائي، وإنما فرادى، وهو أمرٌ محزنٌ، كما كانت تقول (وفي هذا ليست مُخطئة على الإطلاق) وأن الموسيقى، في يومنا هذا، قويةٌ جداً حتى أصبح تبادل الحديث مستحيلاً (وهنا أيضاً لم تكن مخطئةً تماماً). يُتيح الليل قيام محادثاتٍ أكثرَ حريةً مع الناس الذين لم يعُد فكرهم منشغلاً بالالتزامات، وبالمواعيد، وبالهموم. يخلق الليل جواً ملائماً للإصغاء والانتباه للآخر. كانت تقول «في لحظةٍ ما، يبدأ سُراة الليل بالحديث، وبالاسترسال. لا يُحوِجونك إلى طرح الأسئلة: إنهم يسترسلون في الحديث عن قصصهم، تأخذهم الرغبة بالاستفاضة، وبالسرد، أو أحياناً بمجرد الظهور بمظهر المرح. يعجّ الليل بأناس مجهولين يبادرونني بالكلام بينما هم في معظم الأحيان، لا يعرفون من أنا. أكان ذلك لذيذاً أم مؤلماً، ولكنه آسر جذاب على الدوام.» وكذلك يخلق الليل جوّاً مؤاتياً للخيال، حيث يُعيد المرء اختراع حياته. كانت والدتي تحب مختلقي الأكاذيب الليليين. وتقول عنهم: هؤلاء الكذّابون أناسٌ ساحرون في معظم الأحيان، لأنهم دون شك أشخاصٌ شاعريون إذ عليهم دائماً إيجاد الأساليب لتجميل حياتهم. إنها تحب كذب أولئك الذين

1- مسلسل كرتوني عرف باسم Road Runner أو بالفرنسي Bip Bip et Coyotte.

2- ريجينا زيلبربيرغ، 1929 -... مغنية فرنسية وربة أعمال. أسست العديد من المقاهي والبارات في العالم أجمع، ومنها نيو جيميز في حي مونبارناس في باريس. لقبت بملكة الليل.

يختلقون الأفكار ليجعلوا من أنفسهم أقوى، وأكبر، وأكثر شاعريةً، إذ إن تلك الكذبة تتطلب حداً أدنى من الخيال، وهي تحب الخيال. ومن ثم فإنّ هؤلاء الناس يكذبون سعياً لإثارة الإعجاب، وعندما يرغب المرء باكتساب الإعجاب يغدو فاتناً على الدوام. كانت والدتي تفضّل مئة مرة أن يروي لها أحدٌ ما قصةً لا تصدّق، وهي تعلم أنها مختلقَة، من أن تصغي إلى روايةٍ مبتذلةٍ، مضجرة، وهي تعلم أنها مليئة بالحقيقة. كانت تحب كذب الحالم. وبالمقابل تكره كذب الجبان، الكذب الذي يُستخدَم لجرح الآخرين.

مدخل نيو جيميز الصغير، وهو ممر إلزامي لكل القادمين وكل المغادرين، وصفه لي أهلي على أنه مكانٌ لا نظير له من حيث الغرابة وكثرة الحركة. ترى فيه أناساً يلتقون أزواجاً، وتُشاهَد فيه لحظات انفصالٍ، وتُسمَع فيه المحادثات الأكثر غرابةً، وأحياناً يهتاج بعض الناس إلى درجةٍ تولِّد شجاراً عاماً. في بداية الستينيات، لم يكن من النادر أن يتشاجر الرجال بالأيدي، وفي معظم الأحيان بسبب قصص غيرةٍ غبية. يتضاربون ويتلاكمون، وأتخيل الآن أنهم ربما يتقاذفون بالكراسي، وبالكؤوس. بحسب أقوال والدتي، كان بوب يُتقن العراك، وهذا ما يُترجَم مباشرةً في فكري بصورة والدي وهو يتعارك في حانةٍ، مع رجالٍ يعتمرون قبعاتٍ كبيرة. كان فيه شيءٌ من سمات الكاوبوي، يجلب أحياناً عبَق الغرب الأمريكي إلى هذا النادي العصري. لابدّ أن والديّ قد أمضيا سهراتٍ مضطربةٍ جداً، ومسلية جداً. وأعتقد أن ما كانا يحبانه أكثر من كل شيء، فيما عدا الرقص، والحديث، والمجادلة، والاستمتاع بوقتهما معاً، كانت المشاركة في بعض لحظات الحرية، والتبادل واللامبالاة.

في النهاية، أصبح حمل والدتي صعباً ومُلزماً. أمرها طبيبها بالبقاء في وضع الاستلقاء خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة وهي التي لم تتوقف قطّ عن الحركة واللهو.

بعد ولادتي، ولأسباب تتعلق بالراحة والرفاهية، استقرت والدتي لبضعة أسابيع مع والدي عند أهلها، في رقم 167 جادة مالزيرب. كانت جدتي تُكنّ للأطفال حباً يشبه العبادة، وبالأخص للصغار جداً منهم، ولا شكّ في أنها شعرت بسعادة كبيرة بتدليلي ومناغاتي. وبينما كانت تدللني وتُطعمني وتهدهدني، استمر والداي، وهما ما زالا بعمر الثلاثين، بالذهاب للرقص عند

ريجين. وهكذا، ذات ليلة، عاد والدي إلى شقة جادة مالزيرب، وعلى عينه لطخة ورم ضخمة. ربما سطوة النعاس الشديد، أو شدة السكر من الكحول، هي التي جعلته يذهب ليستلقي وينام مباشرةً، وقد نسي اللطخة على عينه تاركاً إياها دون أية معالجة. في صباح اليوم التالي، أحضرت جوليا، مدبرة المنزل لدى جدتي، الفطور لوالديَّ في غرفتهما، وأصيبت بصدمةٍ شديدة عندما رأت والدي بهذا الشكل، حتى إنها سقطت مغشياً عليها. وقعت منها الصينية على الأرض، مما أدى دون شك إلى قلب القهوة وعصير الفاكهة والشطائر وكل ما كان فوقها. لا شك أن رؤية بوب في ذلك الصباح وعينه متورمة بلطخةٍ سوداء، بالنسبة لجوليا التي نشأت في قريةٍ صغيرة، لا يتجاوز تعدادها بضع نسماتٍ، تائهةٍ في تلال اللوت، كان من شأنها التأكيد على أن هذا الأمريكي، الممشوق القوام، آتٍ حتماً من الغرب البعيد.

بالطبع، ليس لديّ أية ذكرى عن هذه اللطخة على عين والدي، ولا أية لطخة أخرى. وأتخيل أنه قرر في ذلك اليوم أن يأخذ دوره كقدوةٍ بجديةٍ أكبر، وأن يتحاشى، منذ ذلك الوقت، الضربات المباشرة جداً على الوجه. ومهما بحثت بعيداً في ذاكرتي، تعود إليّ ذكرى والدٍ حريصٍ، جاهزٍ، وهادئ. أحتفظ عنه بذكرى رجلٍ ذي مزاجٍ مستقر، وروحٍ مليئةٍ بالفكاهة، رجلٍ مُغرمٍ بالموسيقى وبالرحلات، رجلٍ لا يهمه لا المال، ولا السلطة، ولا العمل. فبالنسبة إلى المال، وصلت لا مبالاته إلى درجة كبيرة من التجرد حتى إنها عكست لي طبعاً حازماً وشجاعاً، بعكس ما قد تشي به المظاهر. وقد اكتشفت فيما بعد أنه، تحت ذلك الغطاء الودود بقدر ما هو فاتن، كان يُخفي منذ زمنٍ طويلٍ إدماناً على الكحول. وإن لم أكن أعلّق على ذلك أهمية كبيرة (فذلك خياره في حياته وقد تمسك بذلك بوضوحٍ إذ رفض الخضوع للمعالجة مراتٍ عديدة)، فإن هذا الإدمان اتّخذ فجأةً منحىً مرعباً أكثر، عندما رأيته ذات يوم وهو يترنّح. وما صدمني حينها، وبشكلٍ قاسٍ جداً، اكتشافي أنه أصبح سريع العطب. ورأيت فجأةً أن تلك السنوات التي أمضاها في اللهو جعلته هشاً، وأن هذه الهشاشة قد أصبحت بيّنةً واضحة، وأنها إذا ما أصبحت ظاهرةً جداً لعينيّ كما حدث، فستكون كذلك بالنسبة للآخرين. وهكذا، ما بدا لي أمراً غير مُحتمَل هو أن يُعرّض والدي نفسه إلى

الخطر، حتى ولو كان ذلك في أن يُصبح عرضةً للسخرية، وأن يكون تحت رحمةِ شخصٍ آخر.

وبعد ولادتي بقليل، في العام 1963، عُرض عليه أن يعود ليصبح عارضاً وأن تُؤخذ له صورٌ لسلسلةٍ جديدةٍ من الألبسة، بصحبة امرأةٍ شابة بمناسبة رحلة الباخرة *فرنسا*، وهي آخر باخرةٍ خرجت من ورشات الأطلسي[1]. وخلال الأيام الثلاثة التي استمر فيها السفر، وقع المركب في عاصفةٍ مما اضطرّ كلّ المسافرين تقريباً، وجزءاً كبيراً من طاقم السفينة، بحسب أقوال والدي، إلى الذهاب والاحتماء في المقصورات، لا بل حتى في غرف الحمامات. ووالدي، الذي لم يكن يشعر بدوار البحر، وجد نفسه وحيداً على متن المركب فاستلم قيادته. هذه الرحلة، والتقرير المُصوَّر الذي أُخذ عنها، والذي لم أشاهده قط، كشفا أن شريكته، وهي عارضةٌ روسية شابة اسمها كيرا، كانت قد رزقت هي أيضاً بصبي صغير وهو بعمر بضعة أشهر، اسمه جان باتيست. وبأكبر المصادفات غرابةً، التقيت جان باتيست هذا بعد ذلك ببضع سنوات، وكنت في الثامنة أو التاسعة من العمر في المدرسة الثنائية اللغة، وأصبحنا منذ ذلك الحين من أفضل الأصدقاء في العالم.

1- ورشة بناء السفن في فرنسا في مدينة سان نازير وهي أضخم ورشة في أوروبا.

-9-

إذا ما ضممت ذكرياتي الشخصية إلى بعض الشهادات سيتضح منها أننا لم نعش حياتنا العائلية الحقيقية، أنا ووالدتي ووالدي، إلا في جادة سوفرين. حياة عائلية اختار والداي تشاركها عن سابق إرادةٍ وتصميم بعد أن قررا، بنفس التصميم، الطلاق قبل ذلك ببعض الوقت. توازى قدومنا إلى جادة سوفرين في 1966، مع رغبة والدتي في استتباب إيقاعِ حياةٍ أكثر انتظاماً في البيت. فمنذ ذلك الحين أصبح هناك صبيٌّ إلى قربها، يحتاج لأن تكون له غرفة، وألعاب، وتوقيت، باختصار أن يكون هناك معطيات ملموسة تتيح له أن ينمو وأن يتفتّح وعيه. في تلك الفترة، وصلت أوليفيا الطباخة، وتيريزا الخادمة وكلتاهما برازيليتان، ووصل معهما أوسكار السائق ومدبّر البيت الأرجنتيني. وفي تلك الفترة أيضاً، كانت والدتي ما تزال تحتفظ بذكرى فقدانها لكلبها يوكي فقبلت، بناءً على مبادرةٍ من صديقتها إيلكه، تبني الجرو الألماني فيرتر، بالإضافة لمينو القط الكبير الأصهب الذي كان قد أصبح من سكان المنزل. وبالاعتماد على هذا التنظيم الجديد، صار بإمكان والدتي، منذ ذلك الوقت، تناول كأس الشاي الأول في اليوم عند الظهيرة، دون أن ينتابها أي قلقٍ حول سير إفطاري الذي أتشاركه في معظم الأحيان مع والدي. الشقة على صورة والديَّ ومثالهما. يطيب فيها العيش، جيدة العناية، حيوية، يجري فيها دائماً شيءٌ ما مرِحٌ وملوّن، على غِرار طاقات الورد الكبيرة المقصوصة التي تملأ زوايا عديدة من المنزل. وقد تبيّن لنا أن تيريزا وأوسكار شخصان قريبان إلى القلب، مخلصان، ويقظان. ومنذ نعومة أظفاري، تذوّقت الفيجوادا، الطبق البرازيلي الوطني، والفاروفا الذي تحضّره أوليفيا، وهو عبارة عن

منيهوت[1] مقلي، يُضاف إليه قطعٌ صغيرة من السجق، والبيض، والتوابل. تيريزا تهتم بأموري، وأذهب إلى المدرسة برفقة السائق أوسكار أو والدي. وعلى الرغم من أن مفهوم «مثاليّ» بالنسبة إلي وأنا في السادسة من عمري، يعتبر مفهوماً مجرّداً جداً، يمكنني اليوم القول إنها الكلمة المناسبة التي يمكن أن تصف حياة طفلٍ صغير.

تعود إليّ ذكرى تلك المرة التي غادرْنا فيها إيكموفيل أنا ووالدي وفيرتر ومعنا حقائبنا عائدين إلى باريس، تحت جنح ليلة ماطرة[2]. انطلقنا في الفيراري الصغيرة 250 كاليفورنيا (أقول «صغيرة» لأنها من طِراز sw، وهي عربة ذات «هيكل قصير» بمقعد لشخصين، والمساحة فيها ضيقةٌ جداً حتى إن فيرتر اضطرّ أن يمضي سفرته على رُكبتَيّ). احتفظ هذا الطراز من سيارات فيراري، بعد خمسين عاماً، بمظهرٍ وأناقةٍ رائعين. يتخاطفها الأثرياء من المُجمّعين في معارض بيع السيارات القديمة بأسعار خيالية. وقد تمكّنّا من إيجاد سيارة والدتي من جديد، إلا أنّها في حالةٍ مزرية (فقد امتلكها بعد ذلك منتجٌ سينمائي لم يكن يهتم بها كثيراً) ثم أُعيد ترميمها بالكامل، وبيعت في معرض بيعٍ في جينيف في سنيّ التسعينيات حيث حطّمت سقف الأسعار في المزاد بفضل شهادة «منشئها الساغاني». محرّكها الجميل V12، الهش والنزِق كما هي محرّكات الفيراري في تلك الفترة، كان يتمنّع في كثيرٍ من الأحيان. فإن كان هناك ازدحام وعرقلة، تبدأ حرارة السيارة بالارتفاع؛ وإذا كان الطقس بارداً جداً، أو رطباً جداً، ترفض الإقلاع دون أي مبرر آخر. حصلت والدتي على هذه السيارة من نوع سبايدر[3] بعد سيارتها الأخيرة الجاغوار من طراز E الرمادية في عام 1965 أو 1966، وكانت لها علاقاتٌ عاطفية معها قد تتحول أحياناً إلى علاقات عاصفة. هذه السيارة مطواعة جداً، وتبعث قيادتها على نشوة كبيرة، حتى إن والدتي كانت تدّعي أنها هي التي تقودك حيثما ترغب وأنك، بعد قيادتها، تخرج دائماً منها مُشعَّث الشعر،

1- نبات من المناطق المدارية يستخرج من جذوره دقيق نشوي.
2- نلاحظ هنا ميل الكاتب إلى الاستطراد إذ يبدأ برواية حادثة ثم ينتقل للكلام عن السيارات ليعود ويكمل رواية الحادثة في الفقرة التالية، بعد ما يزيد على الصفحة.
3- Spider أوSpyder سيارة مكشوفة ذات مقعد خلفي

ولكنك في مزاجٍ رائع. عيبها الوحيد أنه ينبغي عليك أن تكدّ وتعاني أحياناً لأكثر من ساعة لكي تتمكن من إغلاق الغطاء، وهذا ما يُثير أعصاب والدتي أكثر من أي شيء، حتى إنها، ذات يوم، تعبت من إنجاز تلك العملية فانتهى بها الأمر بأن أهدتها لأحد أصدقائها. عدت ورأيت كاليفورنيا الصغيرة في باريس، بعد ذلك ببضع سنوات. كانت قد اكتست ثوباً أسود وقد غطته في ذلك اليوم طبقة من الغبار، ولكنني تعرّفت مباشرةً إلى رنّة صوتها الخاصة ذات النبرة المُشرقة والنقيّة، كما هي غالباً ربّات الجمال القادمات من إيطاليا.

كانت السماء تُمطر بغزارة على الطريق الوطني 13 الذي سلكناه ونحن عائدون إلى باريس (في ذلك الوقت لم يكن طريق نورماندي السريع موجوداً بعد)، وبدأت الفيراري الصغيرة تبتلع مياه البُرك الواحدة تلو الأخرى، والريح، والمطر، مما أزعجها كثيراً حتى إنها عندما وصلت إلى مقابل إيفرو بدأت تهدر، وتسعل، وتوقّفت بشكل نهائي. في حين كان المطر يُضاعف من شدّته، ونحن وحيدون في الظلمة، في وسط الريف النورماندي. تمكّن والدي من دفع السيارة إلى الطريق الترابي الجانبي، وأَخَذَ الكلبَ بإحدى يديه، وأخذني مع الحقائب باليد الأخرى، ونجح في إيصالنا، لم أعد أعلم بأية أعجوبة، إلى غرفة فندقٍ في مركز المدينة، حيث نمنا حتى الصباح الباكر. عملية الإنقاذ هذه من المياه كانت إحدى الذكريات التي أثّرت فيّ كثيراً. ولم يتبقَّ في ذاكرتي، من حياتي وأنا في عمر خمس أو ست سنوات، سوى شيئين أو ثلاثة (ومنها هذه الحادثة) مختلطةً ببضع صورٍ هروبٍ ما زلت أتساءل عن سبب بقائها ماثلةً في ذاكرتي حتى الآن.

في عمر ست سنوات، كنت بعيداً عن تخيُّل أن هناك جوّاً متأزّماً يلوح من وقتٍ إلى آخر بين والدي ووالدتي. يعيش والداي حياةً صاخبةً، ينامان ويستيقظان في وقتٍ متأخر. حياة والدتي يملأها شغفها بالكتابة، وكل المشاريع التي تنشأ بنتيجة نشرها لكتبها، وكانت في ذلك الوقت عديدةً جداً: لا يمرّ بها يومٌ دون الالتقاء بوكيلٍ، أو التكلّم مع أحد ناشريها، أو الحديث عن اقتباس إحدى رواياتها، أو الإجابة على مقابلة. أما والدي، إذا ما كان يُشاركها دائماً ميلها إلى اللهو والمرح، فإن عمله كنحّات بعيدٌ كل البعد عن استثارة نفس الحماسة لديه كالتي كانت عندما كان يسكن وحيداً،

وبدأ يتخلّى بهدوءٍ عن النحت مستعيضاً عنه بميلٍ متزايدٍ إلى الخمول. فمنذ أن التقى بوالدتي، ابتعد عن مهنته وبما أنه اختار العيش مع والدتي فقد اضطرّ إلى التخلّي عن مشغله في مونمارتر.

وعلى الأرجح بدأت والدتي تشعر بالانزعاج المتزايد تجاهه، بسبب هذه العطالة الناعمة، بسبب رخاوته، وانعدام حس المسؤولية لديه (الذي مع ذلك يتماشى مع كل ما شكّل فتنته، أي استقلاليته، وعدم اهتمامه بالأشياء المادية)، وبسبب ذلك التعلّق الذي لا يرتوي بالكحول. خلال تلك الفترة، لا شك في أن والدي شعر بأنه قيد المراقبة أكثر مما سبق، وعلى هذا، يبدو أنه بدأ يُضاعف، بشكلٍ عرَضيٍّ أو مقصود، هفواته، ونسيانه، وإهماله. وهكذا عندما عادا من عطلة نهاية أسبوعٍ استأجرا خلالها سيارةً، إذ إن سيارتهما كانت متعطلة، وطلبت منه والدتي الذهاب يوم الاثنين صباحاً لإعادة السيارة إلى مكتب التأجير. انطلقت لديه عملية الرغبة في إثبات ذاته. ولأسباب لا أحد يعرفها غير والدي، عمل كلّ ما بوسعه، متذرّعاً بألف سببٍ وسبب، للتهرّب من هذا الطلب، وعدم إعادة السيارة، تاركاً فاتورة الإيجار تتضخم أكثر فأكثر دون أيّ مبرر. صحيحٌ أن والدتي كانت تعبد والدي، إلا أنها تضايقت كثيراً من هذه الحادثة، حتى إنها روتها لي معبّرةً بذلك عن انزعاجها.

أعتقد أن والدي في تلك الفترة، وبفضل تمكّنه الذي أصبح تاماً في اللغة الفرنسية، بدأ بالترجمة الأدبية. إنه يشارك والدتي حياتها، وهي الكاتبة الشهيرة التي تُتَرْجَم كلُّ روايةٍ من رواياتها إلى أكثر من ثماني عشرة لغة، ومنها الإنكليزية، لغته الأم. طلبت منه دار النشر الأمريكية بنغوان بوكس ترجمة «خفقات قلب» التي نُشرت في الولايات المتحدة في العام 1966، و«حارس القلب» التي ستُنشر بعد ذلك بعامين. عن هاتين النسختين باللغة الإنكليزية، يمكن القول إنهما كاملتان بالنسبة لمترجمٍ كانت تلك أعماله الأولى. عهِد إليه فيما بعد جان ديبوفيه[1]، وهو صديقٌ لفرانسوا جيبو[2]، بترجمة كتاب كبير

1- 1901–1985: رسام ونحات وفنان تشكيلي فرنسي واضع نظرية «الفن الخام» المستوحى من إنتاج الناس البسطاء والمرضى النفسيين. له أسلوب خاص وصعب جداً في الكتابة.

2- 1932–....: كاتب ومحامي فرانسواز وصديق بوب وعضو في لجنة جائزة فرانسواز ساغان.

جداً، كتبه هو بنفسه، إلّا أنّ والدي تباطأ فيه لعدّة أشهر، دون أن يصل إلى نهاية العمل الذي تسبب له بأكبر الصعوبات. أمضينا معاً خمسة عشر يوماً في النورماندي، في فترة عيد الفصح، قمت خلالها بجولاتٍ على الدراجة ولعبت بالكرة مع الكلب، في حين كان يُعاني الأمرَّين بكل معنى الكلمة في غرفة المنزل الكبيرة حيث وضع آلته الكاتبة من نوع ريمنغتون ذات الكرة الكهربائية. كنت بحدود الرابعة عشرة من عمري، ومازلت أحتفظ بتلك الصورة عنه وهو جالس إلى الطاولة التي كانت تُستخدَم في عشاءات الصيف الكبيرة، واضعاً رأسه بين يديه وقد غاص في نوعٍ من اليأس العميق، الذي لا يُدرَك له قرار. كان يقول لي: هذا الكتاب الضخم كابوس حقيقي، إنّه تشابكٌ مُخيفٌ من النظريات المُجرَّدة، ومن الألفاظ التقنية العويصة التي لا يمكن لأحد أن يفهم منها أيَّ شيءٍ على الإطلاق.

وبالمقابل، فعلت والدتي كل ما بوسعها لجعل والدي يعمل. فبعد أن قدّمت له حياةً سهلة، لاهية، ولا مبالية على مدى قُرابة سبع سنوات ولعلمها بأنه لا يمتلك مزايا الرجل المُحب للعمل، كانت تتوقع ألّا يكون ذلك سهلاً. مع ذلك وجدت له وظيفة محرِّر-مصمّم[1] إعلانات عند دار نشر بوبليسيس، وهي وكالة دعايةٍ كبيرة أقامت مكاتبها في نهاية شارع الشانزلزيه. هذا العمل، من حيث المبدأ، مثالي بالنسبة إلى والدي، الذي لا تعوزه الأفكار المبتكَرة ولا الفكاهة، والذي يعشق استخدام اللغة الفرنسية ومعانيها المرهفة. في اجتماعٍ كان فيه الجميع يُنهكون أنفسهم لإيجاد كلمة توحي بالنضارة والحداثة والجِدّة لنوعٍ من اللبن، صرخ والدي بشكلٍ مفاجئ: «يوبليه!» (Yoplait!). إنني لطالما اعتقدت وما زلت متأكداً أنه هو الذي اخترع هذا الاسم الذي أصبح في يومنا هذا شهيراً جداً. وكذلك اقترح، بعد ذلك ببعض الوقت، فكرة مجموعة ضِماداتٍ بلونٍ غامق مما يجعلها أكثر سريةً من أجل الأشخاص ذوي البشرة الداكنة. وهي فكرةٌ لم تؤتِ أُكُلَها للأسف الشديد.

وعلى مر الأسابيع، بدأ حضوره في مكاتب بوبليسيس يزداد نُدرةً،

1- محرر ومصمم إعلانات. من مهامه ابتكار أفكار وكلمات من شأنها تحويل الشعارات الدعائية إلى عبارات مقتضبة سريعة التأثير وسهلة التداول.

مقابل ازدياد ارتياده للمقهى القائم تحت مقر الوكالة. بالطبع، كان يستمتع بالالتقاء بأشخاص جدد كل يوم، وبجوّ أقل تراتبية، وبأحاديث أكثر شاعريةً، وبإنسانية أقل اكتراثاً بمشاغل الحياة وأكثر تمشياً مع طبيعته. بدأت علاقة والدي بالكحول تُثير قلق والدتي. إنها لا ترى فيها سبب حماقاته المتكررة أكثر مما ترى فيها نذيراً سيئاً بالنسبة لمستقبله كإنسانٍ أنيقٍ، متميزٍ، ومثقّف. راحت تنظر إلى بوب، رفيقها منذ ثماني سنواتٍ، ووالد ابنها، يغوص في نوعٍ من الدمار المتسارع وهي عاجزة عن فعل أي شيء. استطاعت إقناعه بالخضوع للعلاج، وكما يُقال آخر الطب الكي، خضع والدي لعملٍ جراحيٍّ يقوم على وضع زُرعةٍ على المعدة، وهي نوعٌ من الدواء الدائم الذي يُحدث الغثيان والتقيّؤ عند ابتلاع أول نقطة كحول. والدليل الواضح على ذلك هو أن والدي، بعد العملية ببضعة أيام، ذهب بكل جرأة وحَميّةٍ إلى المشفى، وطلب من الجرّاح الذي أجرى له العملية أن يزيل من جسده، في الحال، ذلك الجسم الغريب الذي يُعكر عليه حياته. بالتأكيد، هذا النكوص الجديد من قبل والدي، والذي لا يستطيع أحد حياله أي شيء، زاد من جزَع والدتي أكثر فأكثر. أضف إلى ذلك أن محاولاتٍ أخرى للعلاج سبق أن باءت بالفشل.

لم نتطرق أنا ووالدتي بشكلٍ جدّي إلى إدمان والدي على الكحول إلّا في وقتٍ لاحقٍ ومتأخرٍ جداً. فكل الأشخاص في محيطه يعلمون بحالته، ولكنهم اضطروا جميعاً إلى الاعتراف بعجزهم عن إقناعه بالعلاج. كان والدي قادراً تماماً على إثبات إصراره وتمسكه الصارمين عندما يحاول أحدٌ ما التدخّل في خياراته، أو تهديد حريته. وقد مضى وقتٌ طويل على قطعه الطريق بكل تهذيب على كل النصّاحين، والمُعنّفين، وحتى الأكثر طيبةً من بينهم، مثل فرانسوا جيبو، وحتى أيضاً والدتي. فقد حوصِر الجميع في معقلهم كمراقبين عاجزين لا حول لهم ولا طَوْل.

وعندما يبلغ التوتر بين والدَيّ حداً غير محتمَلٍ، وبما أن كليهما يمقتان الشجار، فقد صارا يُفضّلان الهرب على المجابهة. يأخذ والدي بعض الملابس، ولوازم الحمام، ويمضي للإقامة في شارع مسيو عند صديقه فرانسوا جيبو، ريثما تتبدد تلك الغمامات القبيحة. فترات الغياب تلك (التي

لم تطل قط) لم تكن مؤلمةً جداً كما قد يحلو للبعض أن يعتقد. فعلى ما أذكر، كان حضور والدي، الذي يناديني «بُني»، مناسبةً مريحةً. عرفته والداً يهتمّ بي، حريصاً على دوره كأبٍ وكمربٍّ. وقد جعله تعلّقه الكبير باللغة الفرنسية يحرص، منذ أن صرت بعمر الخامسة أو السادسة، على تأهيلي بتدريباتٍ كتابية، وإملائية، ونحوية. ويُبدي انتباهاً، وصرامةً، وصبراً مثالياً، في سبيل أن أكتب فروضي المدرسية بشكلٍ سليم. وبما أنه يحب الموسيقى بشغفٍ كبير، عرّفني على العديد العديد من الأعمال الكلاسيكية. إلا أنه تسبب لي، دون قصد أو علم، بمعاناتي من فترة هلعٍ، إذ جعلني أصغي المرة تلو المرة، إلى «بيير والذئب» لسيرغي بروكوفييف، التي أصبحت في يومنا هذا من الكلاسيكيات في نوعها. وتهدف هذه الحكاية الموسيقية إلى جعل الصغار يكتشفون الآلات الأساسية في الأوركسترا السمفونية. في هذه الحكاية، اقترنت كل شخصيةٍ بآلةٍ موسيقية وذلك تبعاً لطبعها الخاص: فارتبط العصفور وخفّته بآلة الفلوت الكبيرة، وكذلك ارتبط القط وشقاوته بالكلارينيت، وهكذا. بالإضافة إلى الأصوات الجهيرة لبعض الآلات النحاسية، وأصوات النقر الدراميّة (التي تهيج في نهاية الحكاية عند وصول الصيادين) وأصوات الكلارينيت التي تُجمّد الدم في عروقي، كنت أخشى اللحظة التي يبتلع فيها الذئب البطة بكل شراهةٍ. سبق أن مررت بتجربةٍ كئيبةٍ مع الذئب، في بيت جديّ، مع «عنزة السيد سيغان[1]» التي كانت تقرأها لي جوليا مساءً، قبل النوم. وعلى هذا، ارتبطت تربيتي الموسيقية، التي تقاسمها والداي، بالخوف: خوف الذئب مع والدي، وخوف أستاذ الصولفيج مع والدتي. كنا نأخذ، كلانا، دروس بيانو مملة إلى درجةٍ مرعبة، بيد أننا تخلينا عنها بسرعةٍ كبيرة.

في العام 1969، تركنا جادة سوفرين أنا ووالدتي، وذهبنا للإقامة في الدائرة السادسة عشرة، شارع هنري-هين في منزلٍ خاص ضيّقٍ وعالٍ، مع حديقةٍ مشتركة. عاش والداي انفصالهما المزيَّف الثاني. فبعد طلاقهما في

1- قصة قصيرة لألفونس دوديه (من مجموعة رسائل من طاحونتي)، تروي حكاية عنزة شدّها حبها للحرية إلى الهروب من حظيرة صاحبها، رغم معرفتها بالمخاطر التي ستواجهها. وهكذا التقاها الذئب وافترسها بعد مقاومة شرسة.

العام 1962، واستمرارهما بحياتهما المشتركة، لم يقيما تحت سقفٍ واحد، ولكنهما استمرا في علاقتهما الغرامية. وباعترافهما الشخصي، سوف يبقى والدي وأمي عشيقين لمدةٍ طويلة بعد ذلك الانفصال الثاني.

بعد ذلك الحين، ستتم لقاءاتنا، أنا وأبي، في فتراتٍ مختارة، ومتميّزة. وقررنا على جناح السرعةِ مواعيدنا الأسبوعية: في تلك الفترة كان التلاميذ أحراراً يوم الخميس. إذن سيكون موعدنا يوم الأربعاء مساءً أو ظهر الخميس للغداء، وأحياناً سيكون في عطلة نهاية الأسبوع أيضاً. لكلّ نزهةٍ مع والدي عبق المغامرة الحقيقي. فهو الذي ينظّم طريقة التنقل (وكنت أشعر بتشويقٍ كبيرٍ عند ركوب التاكسي، وهذا كان تنويعاً وخروجاً عن عادات الركوب بالأوستن مع أوسكار). أما بالنسبة للطعام، فقد كان يكتشف دائماً أماكن لها نكهتها الخاصة. نذهب، على سبيل المثال، إلى «الويسترن»، المطعم الأمريكي في فندق هيلتون في جادة سوفرين، الذي يُقدم طعاماً لذيذاً من جنوب الولايات المتحدة (تكساس، لويزيانا، نيو مكسيكو) قوامها قطع كبيرة من أضلاع العجل المنقوعة، ويخنة الفاصوليا الحمراء بالتوابل، وخبز الذرة ذو الحلاوة الخفيفة؛ كما كنا نذهب أيضاً إلى مطعمٍ ياباني، أحد مطاعم الطبخ على الصاج في جادة سان-جاك، حيث يُقطّع الطِباخ ويُنضج قطعاً من لحم العجل، أو الفروج، أو القريدس مع الخضار، على صفيحٍ معدني قبل أن يضعها مباشرةً في صحننا. وفي معظم الأحيان، ننهي فترة بعدَ الظهر في السينما، بفيلمٍ يختاره دائماً بعناية، فأنا لا أذكر أنني قد ضجرت ذات مرة، ولا أنني ارتعدت من الخوف على مقعدي. تكررت مواعيدنا الأسبوعية وأصبحت فترات متميّزة عن جدارة. رحت أنمو، وأتغير، وأُثبت ذاتي، بدأت أصبح رجلاً، وذات يوم لم يعد هناك لزومٌ لأن أدعوه «daddy» وإنما صرت أناديه «dad»، الكلمة التي تناسب عمر الشباب أكثر. نادراً ما نتكلم الإنكليزية. فهو لا يرغب بذلك، وكان امتناعه عن استخدام اللغة الإنكليزية معي أفضل لي إذ إنني أتكلم الإنكليزية على الطريقة المدرسية، دون أي تشابهٍ مع الإنكليزية الحقيقية، تلك التي نسمعها في شوارع نيويورك أو في الأفلام. بدا كأن والدي يستصعب التعبير بلغته الأم، على غِرار تلك الرحلة التي قام بها مع والدتي إلى مانهاتن، وقد رفض التلفّظ بأقل كلمة

إنكليزية طيلة تلك الإقامة، مما حدا بها، هي، إلى الكلام، وحتى إلى الكلام عنه، مضطرّةً للتخلص من المآزق بلغتها الإنكليزية الخرقاء من أجل طلب إفطارها على الهاتف صباحاً، أو إعطاء العناوين لسائق التاكسي. وعلى الرغم من أن هذه القصة قد تبدو مضحكة، فقد أقسمت لي أنها لن تقع في مثل ذلك المأزق بعد الآن.

أول أحاديثي الجديّة مع والدي حصلت وأنا في عمر الثانية أو الثالثة عشرة، عندما استقبلت والدتي في شارع غينيمير امرأةً شابة رائعة، من أصلٍ جنوب أفريقي شبه تائهة، اسمها فرانسواز جانمير. فتاة حساسة، تنضح بالفتنة، والعفوية، والمرح، والكرم. أصبحت فرانسواز موقع اشتهاءٍ من عددٍ كبيرٍ من الفتيان، والبعض منهم من معارف والدتي من أمثال برنار فرانك أو جاك ديلاهاي. وهكذا جمّعت فرانسواز جانمير المغامرات، أو «أصحاب الحظوة» كما كان يتردد على أسماعي، وإذا ما استثنيت برنار فرانك، فإن تلك البائسة لا تلتقي ولا تُغرَم، في معظم الأحيان، إلّا بفتيانٍ لا يُنصح بصحبتهم على الإطلاق. وربما تركت نفسها تنساق خلف شريكٍ وربِّ عمل شقيق والدتي ألبير ديبارج، الذي كان يُدير في تلك الفترة مخبراً صيدلانياً هاماً جداً، فتعلّقت بالمواد السُميّة الذائعة الصيت. وبقدر ما كان ذلك الشاب متسلطاً ودون وازعٍ أخلاقي، كانت مُغرمة وتائهة، فجرّها إلى حيث يريد وكما يريد. وفي اللحظة التي بدأت فيها انحدارها الأخطر، جاءت والدتي لتنقذها من بين براثن ذلك الرجل. وعلى هذا أتت فرانسواز للسكن عندنا في شارع غينيمير، مقابل اللوكسمبور. وحرصت والدتي على حمايتها، لكنها لم تستطع فعل أي شيء عندما وقعت فرانسواز تلك في غرام أحد الشبان بشكلٍ مجنون، وهو أيضاً مدمن مخدرات، تعاطى ذات ليلة جرعةً زائدة في مراحيض أحد الكباريهات الباريسية الشهيرة. موت هذا الشاب الذي حصل في حين كان المشهد على المسرح في أوج اصطخابه تسبب في اضطراب شديد وخوف فظيع لدى أصحاب الكباريه، حتى إنه تقرّر إخراج الجثة من المراحيض، وحملها عبر القاعة وهي ممددة، فوق الرؤوس، كما يُحمل المنتصرون، ضمن فقرةٍ راقصة ارتُجلت من أجل تحاشي زرع الهلع وسط الجمهور. ولكن عندما علمت فرانسواز جانمير بتلك الفاجعة

في الساعة الخامسة صباحاً، ابتلعت كميةً كبيرة من المنومات وغارت في شبه غيبوبة. لا أعلم كيف اكتُشفت حركتها تلك في الوقت المناسب، إلا أنّ حركة اضطرابٍ غير معهودة في المنزل أيقظتني بشكلٍ عنيف عند أول أنوار الفجر. كنت أسمع أصوات أناسٍ يتحركون بانهماك خلف باب غرفتي. إنهم الأطباء المسعفون ورجال الإطفاء والإنقاذ الذين يعالجونها. جاء أحدهم إليَّ، من قبل تيريزا، وأمسكني بيدي واصطحبني لإبعادي عن ذلك الجزء من الشقة. احتل رجال الإطفاء الممشى الذي يقود إلى آخر الشقة التي كنت أتشاركها مع فرانسواز: حقائب أدوات طبية، زجاجات أكسجين، ومحفّة كانت موضوعة أمام غرفتي. وكان هناك طبيبٌ يحاول إنعاشها. مثل هذا المشهد، وهذا القرب من الموت، كان من شأنهما أن يصدماني، أنا الفتى الصغير بعمر لا يتجاوز العشر سنوات. مع ذلك وبسبب العمر، ولكوني صبياً، أعتقد أنني تأثرت أكثر بمنظر الخوذ، والملابس الجلدية، وتجهيزات الإطفائيين أكثر مما تأثرت بالمأساة التي تجري تحت ناظرَي.

أُنقذت فرانسواز جانمير. بعد إقامةٍ قصيرةٍ في المشفى، عادت إلى بيتنا وتمكنت، في غضون بضعة أشهر، من إنقاذ نفسها بنفسها: التقت بغنيٍّ إنكليزي، ووقعت في غرامه بشكلٍ كبير. منذ ذلك اليوم لم تلمس المخدرات. على الأرجح، منذ تلك الحادثة المأساوية لانتحار فرانسواز جانمير المُحبَط، وعلى مدى لقاءاتنا التي تتالت، لاحظت أن والدي يمقت كل ما يتعلق بالمخدرات والعقاقير. حذّرني من تأثيراتها ونتائجها، وجعلني أعده بشكلٍ شبه رسمي بأن لا ألامسها في أيّ ظرف من الظروف. بدت لي تنبيهاته التحذيرية المتكررة غير مبرَّرة أحياناً، حتى إن تلك العظات اكتست طابعاً هوسياً. أصابتني الدهشة لرؤيته يعود إليها بتصميم لا يعادله أي تصميم، علماً بأنه هو بالذات لم يلمس تلك المواد باستثناء مرة أو مرتين بطريق الغفلة. إحداهما كانت خلال سهرة لدى ديبارج المذكور. والشيء القليل الذي كشفه لي عن تلك السهرة، حيث كان برفقة والدتي، أوحى لي أنه مرّ بكابوسٍ مطلقٍ، وشعورٍ رهيبٍ بالعجز. كان والدي يعتبر عن حق أن العقاقير تُحدث دماراً يصيب السلوكيات الإنسانية بالضرر، وتخرّب الصداقات. العقّار يحط من قدر الإنسان أخلاقياً وبدنياً، ويجعل المرء مهووساً، أنانياً. وينتهي بعزله

عن العالم. لم يكن يستطيع تحمّل فكرة أن تتحول فرانسواز جانمير، تلك المرأة الشابة، الجميلة جداً، والمليئة بالحياة، ذات يوم إلى ما يشبه خرقة رثّة، إلى فتاة نحيلة، مريضة، ساخطة، ومنقطعة عن الآخرين. وأعتقد أيضاً أن والدي قد عانى أحياناً من الآثار الجانبية لإدمان والدتي الذي أصبح لصيقاً بها منذ حصول الحادث: لابد أنه تحمّل تلك الطفرات المزاجية المفاجئة، ونزواتها المباغتة وغير المبرَّرة في آن معاً، والسلوكيات الغريبة إلى حد كبير، التي ليس لها من تفسير سوى استهلاك المواد المخدّرة.

وعندما أقام والدي في بداية السبعينيات في الرقم 3 من شارع مسيو Monsieur[1] في فندق سان-سيمون، عند فرانسوا جيبو، لم يكن يعرف بعد أن هذا الانتقال هو انتقالٌ نهائي، دون رجعةٍ إلى والدتي. منذ أن بدأ والداي يتشاركان حياتهما كمطلّقين شابين في جادة سوفرين، وعندما كانت العلاقة بينهما تتطلّب انفصالاً لبضعة أيام، أو حتى لبضع ساعاتٍ، كان فرانسوا يُعير والدي انتباهه، وصداقته، ومكاناً خاصاً هو عبارة عن غرفة، ومكتب، وغرفة حمام مستقلة. أصبح شارع مسيو ملاذاً له. وعلى مدى الزيارات، أفترِضُ أنه اكتشف في فرانسوا أكثر من صديقٍ حقيقي. إنهما مشتركان في الميل إلى الموسيقى، والميل إلى التصوير، والميل إلى الرحلات. إنهما شخصان قلّ نظيرهما، يعرفان كيف يضعان المسافات عندما يلزم، ويلتقيان في خوفهما من التقاليد، وكرمهما، وفكاهتهما، واهتمامهما بالآخر، وإنسانيتهما. ربما كان فرانسوا، الذي يعمل على دراسة مؤلفات سيلين[2]، وأصبح فيما بعد كاتب سيرته الرسمي، هو الذي جعل والدي يكتشف هذا الكاتب.

منذ وصول والدي إلى هذا الحي الجديد، ارتبط مع جميع الجيران، مع الأشخاص الذين يلتقيهم في المقهى، حيث سيعتاد بعد قليل على قضاء جزء كبير من وقته. وبما أنه اجتماعي، وذكي، وكريم، وذو معشرٍ سهلٍ، فقد حاز مباشرة على القبول. ولعدم اهتمامه بالمظاهر وبالثروات، بدا لطيفاً، وطبيعياً، مع الأميرات اللواتي يسكُنَّ أجمل البيوت الخاصة في شارعه،

1- لقب كان يطلق على أكبر أشقّاء الملك.

2- 1894-1961 لويس فردينان ديتوش (ملقب بسيلين) من أكثر الكتاب الفرنسيين شهرة وقد ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات. كتب فرانسوا جيبو سيرة حياته.

أو مع الملك نوردوم سيهانوك، الذي زاره خلال إحدى الرحلات الرسمية برفقة فرانسوا، كما مع العمال، وحارس البناية، والحرس الجمهوري المقيم في شارع بابيلون (هؤلاء «الحراس» كما يسميهم، سيبقون أيضاً بالنسبة إلي وعلى مدى فترةٍ طويلة من طفولتي، سراً حقيقياً: لماذا كان لابد من وجود حراس في شارع بابيلون، وماذا يوجد بهذا القدر الثمين حتى تتوجب حمايته في ذلك الشارع؟[1]) أو مع سائقي سفارة تونس القريبة جداً. الجميع ينظرون إليه بنفس الاحترام، وبنفس المحاباة، وبنفس العاطفة. كم مرةً سمعت: «كان والدك رجلاً لطيفاً جداً، وذا تربيةٍ جيدة، وإنسانياً جداً.» ولهذا أحزنني إلى أقصى حد وصدمني تعبير أحد كتّاب السيرة حين ادّعى أن والدي كان: «سائحاً بقي غريباً عن ذاته، لم يشغل أيّ مكان، واجتاز الحياة دون أن يترك أثراً أكثر مما يترك قِطٌ على المزاريب.» لقد اتّخذ والدي منزلةً حقيقية: منزلة القلب، والصداقة، والذكاء، والكرم.

وعندما استقر والدي بشكلٍ نهائي في شارع مسيو، وأنا في شارع هنري-هين، استمررنا في لقاءاتنا وأحاديثنا أكثر فأكثر. جعلني أشاركه شغفه بالأعمال الكلاسيكية (وبشكلٍ خاص الغنائية Lyrique[2]) إذ كان يتعرف في الحال على أصحاب أصوات الباريتون، والتينور، والسوبرانو، على مستوى الكرة الأرضية، حتى الذين لم يسمع بهم أحد من قبل. إنه لا يُجارى بخصوص بوتشيني، وفيردي، وفاغنر، وبلليني. لديه هوس حقيقي بالأوبرا، وقد واتاه الحظ بأن يتشاركه مع صديقه فرانسوا، الذي كان يصطحبه إلى كل عروض أوبرا غارنييه، ثم فيما بعد إلى أوبرا الباستيّ[3]، وأدخل والدي إلى نوادٍ مغلقة جداً تقتصر على المولعين بالموسيقى، الذين يبنون حياتهم كلها حولها. كانوا ينظّمون مغامراتٍ للذهاب إلى عرض دون جيوفاني في

1- في هذا الشارع توجد ثكنة للحرس الفرنسي بنيت في العام 1780

2- المقصود الأعمال الغنائية (أوبرا، كوميديا...) الملحنة والمغناة.

3- Opéra Garnier دشنت في العام 1875 وتعتبر من معالم باريس التاريخية الهامة؛ Opéra Bastille دشنت في العام 1989 في ساحة الباستيّ (أو الباستيل كما هو معروف لدى العامة) في الذكرى المئوية الثانية لهدم السجن الشهير. وكلتاهما تشكلان مؤسسة واحدة تحمل اسم: أوبرا باريس.

فيينا، أو للاستماع إلى بلاسيدو دومينغو، أو لوسيانو بافاروتي، في لندن أو ميلانو. وقد شارك والدي في جميع الرحلات دون انقطاع. وسرعان ما جعله ذوقُه ورهافةُ أذنه المرجعَ الموسيقي المطلق في المجموعة. فعندما كانوا يتساءلون عن المغني الإفرادي في الاستراحة، أو بعد العرض، هل سيكون باريتون، أم تينور؟ أو حول عدد الكمانات؟ كان أحدهم يقول على الدوام: هيا بنا نسأل بوب، سوف يعرف. ويجيب والدي دون أدنى تردد أو تلكؤ على كل الأسئلة. ويُضيف أن الكلارينيت الجهيرة[1]، في ذلك المساء، لم تكن صحيحةً تماماً.

عندما أمسك بيدي واصطحبني للمرة الأولى إلى أوبرا غارنييه لمشاهدة البوهيمية لبوتشيني كان عمري تقريباً أربعة عشر عاماً. بالطبع سَعِدتُ كثيراً وشعرت بفخرٍ كبير. كنت أتخيل قاعة الأوبرا على أنها مكانٌ فريدٌ من نوعه، مظلمٌ، ومقصورٌ على بعض المطّلعين، حيث تُمثَّل كل مساء، تحت أنظارٍ حادة، وآذانٍ لا تقل عنها حدّةً، نوعٌ من الطقوس السرية، المؤلَّفة من آلاف الأصوات، وآلاف الأزياء، آلاف الأضواء. وكنت في منتهى السعادة إذ إنني وجدت كل شيءٍ هناك: فكل ما تخيّلته وأنا أُصغي إلى البوهيمية أكثر من مئة مرة مع والدتي في المرسيدس، على أشرطتنا ذات المسارات الثمانية، وجدته متطابقاً تماماً مع العرض الذي يجري أمامي على مسرح أوبرا باريس. بعدها، عدنا إلى أوبرا غارنييه عدداً قليلاً من المرات إلى أن تقرَّر افتتاح أوبرا الباستيّ. كان والدي يُتيح لي الاختيار: فيردي، أو بوتشيني، أو غونو، أو موتسارت، أو فاغنر. أعتقد أن آخر عرضٍ غنائيٍّ شاهدناه معاً هو «الناي المسحور» لموتسارت الذي غيّر فيه بوب ولسون كل المعالم الكلاسيكية في الأداء وفي العرض. وهكذا في عمر السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وتحت تأثير بوب ولسون وموتسارت، ومدير أوبرا باريس، وفرانسوا جيبو، بدأت أشارك والدي بأذواقه وميوله في الموسيقى. وفي الوقت نفسه، تحت تأثير مدير مدرستي، الذي كان يُحضّرنا لشهادة الثانوية الفرنسية، بدأت أشارك والدتي في أذواقها وميولها للأدب، وبالحديث معها

1- أول من استخدمها هو فيردي في أوبرا عايدة.

عن الكتب. وعندما كنت أتعشّى مع والدي، أسأله عن رأيه حول المؤلّفات التي اقترحتها عليَّ والدتي للقراءة؛ وعندما أتحادث مع والدتي، أكلّمها عن الأوبرا، وأسألها عن رأيها بهذه المسرحية أو تلك.

خلال الصف الثاني[1]، وبذريعة أنه قد ظهر لي نتائج سيئة جداً، طلبت ترك الدراسة في مدرسة سان-سولبيس التي ارتدتها منذ ست سنوات، للذهاب إلى إحدى الثانويات، التي ستضمن لي، بحسب رأيي، صفاً نهائياً لامعاً ونجاحاً لا يقل إشراقاً في الامتحان النهائي. اتُّخذ موعد لقاء بين مدير المدرسة وأهلي لإعلامه بمغادرتي لمؤسسته (كان اسمه مسيو بولان ويشبه إلى حد بعيد هنري فلاماريون، ناشر والدتي الذي كانت على خلافٍ مميتٍ معه). وخلال تلك المواعيد مع مديري المدارس، التي سوف تتكرر عدداً كبيراً من المرات بدءاً من ذلك اليوم، كانت والدتي تستدعي والدي محمّلةً إيّاه واجباته كأبٍ سلطويٍّ وحريصٍ على علامات ابنه. لم يكن يتكلم إلّا ما ندر، ويُظهر ذلك الوجه المتردد الذي، رغم كل شيء، يعطي المدير انطباعاً بأنّه أب مهتم بدراسة ابنه إلى درجةٍ كبيرة. وعندما سألتني والدتي عن مبررات نتائجي السيئة في اللغة الفرنسية، أجبتها بأن النصوص لا تعجبني، وأن بعض المؤلفين مملّون. حينها طلبت رؤية قائمة المؤلّفين الذين ينبغي علينا دراستهم، ووقعت منذ النظرة الأولى وبطريق المصادفة على «الأرستقراطيون الجدد» لميشيل دي سان-بيير. ما زلت أجهل أسباب استخفاف والدتي بهذا الكاتب، ولكن نتج عن ذلك أنني غادرت في الحال، وبشكل فعلي، مدرسة سان-سولبيس.

1- السنة السابقة للشهادة الثانوية، الجزء الأول.

-10-

بعد مغادرتي لمدرسة سان-سولبيس، مرّت دراستي بفترة مضطربة. فمدرسة شارلماني الثانوية التي اخترتها وهي مدرسة تحضّر للبكالوريا تضم أكثرية كبيرة من الطلاب الكسالى، من العائلات المنعمة، لا همّ لهم سوى الخروج والتسلية. وعلى عكس ما قد يعتقده الناس، ومهما بدا ذلك غريباً، فأنا لم أخرج ليلاً إلّا بعد أن بلغت سن الرشد ولا أعرف حقاً إن كان السبب هو إرادة والدتي أم إرادة والدي. بدأت الرقص في نوادي السبت بعد الظهر (تقريباً كما فعلت والدتي في عمري في سان جيرمان دي بريه في الأفنتور، في جادة فيكتور هيجو، ومن ثم في أبوبليكسي في شارع فرانسوا الأول)، مع كل أولئك «الكسالى البليدين» كما كانت تسميهم والدتي، والذين سأستمر في لقائهم على مدى سنواتٍ لاحقة في بيئة باريس الليلية، ولكنني لم أكتشف حقاً ما هي عُلب الليل إلا في شهر يوليو 1980 برفقة برنار فرانك، عندما اصطحبني إلى نيو جيميز للمرة الأولى في حياتي. وبمناسبة بلوغي الثامنة عشرة، حضّرت لي والدتي حفلةً رائعةً، على سبيل الهدية، في منزلنا في شارع أليزيا (الذي تركته لي بالكامل مع كل أصدقائي)، حيث أُقيمت مأدبةٌ كبيرة، أشرف عليها متعهد إطعام مع رؤساء خدم بلباسهم الرسمي، يقدّمون لنا الشمبانيا على صَوانٍ كبيرة. لقد انتشيت انتشاءً عظيماً بأولى سهراتي الحقيقية كبالغ حتى إنني أسرفت منذ بداية السهرة باحتساء الشمبانيا، فأمضيت جزءاً كبيراً من الليل وأنا مريض. بعد ذلك ببضعة أيام، اصطحبتني والدتي، التي كانت تتمنى أن نتمكن من الاحتفال بعيد ميلادي على انفراد، إلى العشاء في لاتور دارجان. وقدّم لي عرّابي، جاك شازو، كُرّاساً جميلاً جداً مغلّفاً بالجلد من طِراز القرن التاسع عشر، وقد خطّ على

الصفحة الأولى هذه الكلمات القليلة: «عيد ميلاد سعيد يا عزيزي الصغير، تبدأ حياتُك في عمر الثامنة عشرة، عرّابك.» وإذ وجدني غائباً في تلك الليلة، ترك لي الدفتر على البيانو، فوقع عليه نظر برنار فرانك بالمصادفة، وقرأ تلك الخاطرة الصغيرة، وكتب على الصفحة الثانية من الدفتر: «ميلاد سعيد يا صغيري ديني، لا تبدأ الحياة أبداً بأفكار شائعة، برنار».

قليلاً ما تكلمت عن عرّابي الذي كان عرّاباً مثالياً. تقرَّر قبل ولادتي أن يكون جاك شازو أباً لي أمام الله، كما تفرض التقاليد. فإذا ما حصل شيءٌ ما لوالدي الطبيعي، سيحميني ذلك الأب الروحي. وهذا لا يمكن أن يناسب شخصاً آخر أكثر من جاك، لأنه يتمتّع بفكرٍ وذكاءٍ عاليين، بالإضافة إلى الحنان، والإخلاص، والمودة العميقة، التي يكنّها لوالدتي. جاك، الذي يعتبر نفسه مؤمناً، اضطلع بهذا الدور بجديّةٍ كبيرة. وقبل معموديتي بقليل، ذهب إلى محل بوشرون ليشتري لي سلسلةً وأيقونةً عليها صورة القديس ديني[1]. وأصابه عجبٌ شديدٌ حين عرضت عليه البائعة قديساً مقطوع الرأس، إذ إن القديس ديني الذي كان الأسقف الأول في العاصمة في عام 272، قُطع رأسه، مما اضطرّه إلى حمل رأسه تحت إبطه إلى مسافة ستة كيلومترات قبل أن ينهار في المكان الذي توجد فيه اليوم كنيسة سان ديني. انزعج عرّابي كثيراً، وسأل البائعة إذا ما كان من الممكن، وبشكلٍ استثنائي، إعادة الرأس إلى جذع ذلك البائس لنحت الأيقونة.

كان جاك يتباهى، وعن جدارة، بكونه عرّاباً مثالياً، حريصاً على واجباته والتزاماته تجاهي، وأمام الله. لم أُمضِ أي عيد ميلادٍ دون أن يتصل بي، أو يصطحبني إلى العشاء في معظم الأحيان عند «ليب» Lipp، أو نذهب، طيلة فترة طفولتي، إلى القزم الأزرق، وهو أجمل محل ألعابٍ في باريس. وكما روى لي، كنت تقريباً بعمر الرابعة أو الخامسة عندما أثرت إعجاب كل البائعين في القزم الأزرق، حين أصلحت قارباً كهربائياً كان متعطلاً في حوضٍ كبير مجهّزٍ خصيصاً في الطابق الأول من المخزن. بدأت أمتلك بعض الألعاب في المنزل

1- القديس ديني (أو ديونيسيوس) أول أسقف في باريس، جاء من إيطاليا حوالي العام 245 واستشهد بين عامي 250 و275 م

وعلمتني تجربتي أن العطل فيها غالباً ما يكون بسبب بطاريةٍ رُكّبت بالمقلوب، إشارة (+) مكان إشارة (–). ومهما رجعت بذاكرتي، لا أتذكّر جاك إلّا وهو مُصر على أن أناديه بكلمة «عرّابي». ذات يوم، وكنت تقريباً بعمر السادسة أو السابعة عشرة، ودون انتباه، دعوته باسمه «جاك». أصابته نوبة غضب شديد، وشرح لي (وكان ذلك إثباتاً على رهافة حسّه)، أنه لا يتحمل أبداً أن يكون هناك أدنى التباس عندما نتناول الغداء أو العشاء معاً عِند «ليب» أو في أي مكان آخر. إذ لا ينبغي للناس الذين يحيطون بنا، في أي حالٍ من الأحوال، التفكير، أو مجرّد الافتراض، أنني قد أكون محظيّه، أو غلامه. وبما أن مثليّته معروفة تماماً، فإنه يعتبر مخاطبته باسمه الشخصي، وبصيغة المفرد، يمكن أن تؤدي إلى التباس. وقد حاولت كثيراً طمأنته بأن رأي الآخرين لا يهمُّني نهائياً، وأن الألسنة الناطقة بالشر يمكنها أن تفكر كما تشاء، فهذا لا يغير أي شيء في أنني ابنه بالمعمودية، وأن العاطفة التي يكنّها أحدنا للآخر فوق كل الشبهات. إلا أن هذا لم يغيّر شيئاً في موقفه. كان وسيبقى دائماً عرّابي.

وبدءاً من عمر الثامنة عشرة، بدأت أشعر بالإحساس الكبير بالحرية مع والدي. أَسْرَرْتُ له بقصصي الغرامية الأولى، التي كانت تنتهي أحياناً بالفشل، وأطلب منه نصيحته. أسأله عن آخر الكتب التي قرأها، وآخر الأفلام التي شاهدها. لطالما كان سنداً متيناً وناصحاً موثوقاً عندما ألجأ إليه من أجل تضميد جراحات قلبي، أو تفتيح ذهني أو بث الفرح فيه. جعلني أكتشف إحدى الروايات التي هزّت وجداني إلى حد بعيد: «طريدة اللهب» لوليم ستايرون[1] وسأظلّ معترفاً بجميله ذاك إلى الأبد.

عندما أخبرت والدتي بهذا الاكتشاف اللذيذ، عبّرت لي عن كل إعجابها بهذا الكاتب. في الواقع كانت قد التقت بستايرون، في باريس، في مناسباتٍ نادرة، وأنشأت معه علاقة فريدة من نوعها. فكلما التقيا، يتعانقان ليس كعاشقين، وإنما كصديقين عرف أحدهما الآخر منذ زمنٍ طويل، وتشاركا في

1- 1925–2006: كاتب أمريكي له مواقف ضد العنصرية لذلك كانت كتبه موضع جدال ومعارضة في بيئته. في روايته «طريدة اللهب»، يقدم لنا ويليام ستايرون، انطلاقًا من معطيات قصة بوليسية، دراسة صارخة عن أخلاقيات ما يسمى بالحضارة، وتعتبر وثيقة ذات أهمية كبيرة في الأدب المعاصر.

كل شيء. حتى صارت تصدر عنهما، في لحظات معينة، ردود الأفعال نفسها، ونفس الحركات، وتقريباً نفس الكلمات. وليم ستايرون، الذي عرّفتني عليه والدتي ذات عصر ربيعي في مضمار الخيل في أوتوي، خلال مروره في باريس، تملّكه إعجابٌ شديد بالسباقات، إذ أن داستي فلاغ سجّل، في ذلك اليوم، أحد أهم انتصاراته. من أعمال ستايرون، كانت والدتي تُفضّل «سرير الظلمات» الذي تعتبره إحدى أجمل الروايات التي قرأتها على الإطلاق. وأعترف أنني فشلت في قراءته على الأقل مراتٍ ثلاث. وبنزوة عصبية، ارتميت على «مسير الليل» و«اعترافات نات تورنر»، إلا أنهما بدتا لي أقل جودة من «طريدة اللهب». وكمتابعةٍ لاندفاعي، نصحني والدي بـ«الصخب والعنف[1]» لوليم فوكنر وكنت بالضبط قد وجدت أول جزءين من سلسلة البلياد في مكتبة والدتي، لقد اختطفني فوكنر بسرورٍ مماثلٍ تقريباً والتهمت في اندفاعتي تلك «سارتوريس» و«الملاذ» اللذين وضعتهما في مكانةٍ أعلى من «الصخب والعنف». وبعد أن أطلعتهما على تقييمي، اتفقنا نحن الثلاثة بالإجماع على التصنيف الذي اعتمدته. في معظم الأحيان، كان لدى والدتي خيارات مختلفة عن الخيارات السائدة بشكلٍ عام. فمثلاً، عند ستندال، وهو من كتّابها المفضلين، كانت تُفضّل «دير بارما» وتشجعني على قراءته قبل قراءة «الأحمر والأسود» الذي تعتبره ثانوياً؛ وعند همنغواي نصحتني بقراءة «وداعاً للسلاح» قبل «الشيخ والبحر»؛ وعند دوراس «جياد تاركوينيا الصغيرة» قبل «العشيق»؛ أما بروست، فكانت له معاملة خاصة إذ ينبغي عليّ أن أبدأ البحث[2] بـ«ألبرتين المفقودة» قبل «جانب منازل سوان». فذات يوم، في فترة مراهقتها، وفي مخزن العشب ذي الحرارة الخانقة في بيت الجدة في كاجار، حيث كانت والدتي تُمضي كل سنة وحتى بلوغها الرابعة عشرة أو الخامسة

1- أخذ العنوان عن جملة من مسرحية ماكبث لشكسبير. ترجم الرواية إلى العربية الأستاذ جبرا ابراهيم جبرا وقد اعتمدت العنوان كما ترجمه الأستاذ جبرا.

2- البحث عن الزمن المفقود. الجزء الأول منه بعنوان «جانب منازل سوان» بينما يحمل الجزء الثالث عنوان «ألبرتين المفقودة». ويحكى أنه عند نشر الجزء الأول قال عنه النقاد لقد قرأنا سبعمئة صفحة ولكننا لم نجد فيها رواية فما كان من بروست إلا أن رد عليهم: هذه ليست الرواية وإنما هي مقدمتها.

عشرة فترةً ما، وجدت ذات يوم «ألبرتين المفقودة» وهو أحد كتب مارسيل بروست الأربعة عشر[1]، محشوراً بين ثلاثة كتبٍ لدوستويفسكي وكتاب لمونتيني، ومن ثم راحت تنصح كل من لا يتمكّن من قراءة بروست بالبدء بهذا الجزء. كانت تقول مع «ألبرتين المفقودة» ندخل مباشرةً ضمن المأساة والحدث الرئيس (العقدة). إنها المرة الوحيدة التي يُعطي فيها بروست الكلام للمصادفة، وحيث المصادفة تبدو على شكل برقيةٍ: «يا صديقي المسكين، عزيزتنا ألبرتين رحلت.» وبما أن الحديث عن بروست تكرر بشكل متواتر في محادثاتنا، وقبل أن يبدأ بإضجاري، أو حتى بتنفيري، دخلت دخولاً مباشراً وقوياً في «ألبرتين المفقودة» مزوداً بقدر كافٍ من الأفكار المُسبَقة، تدفعني إلى تأجيل «جانب منازل سوان» إلى ما بعد. مع بروست وقعت في حيص بيص، وشعرت أنني أحياناً كأنني في دوّامة خيلٍ، في تلك اللحظات حيث الكلمات والجمل تقذفك من حافة إلى حافة من تفكيرك، ولكنني كنت دائم الشعور برغبةٍ، بشكلٍ من أشكال الترقّب، تجعل فكري دائم التعطّش ومضطرباً، مما يدفعني إلى الغوص في البلبلة أكثر فأكثر. كانت والدتي تقول يمكننا أن نقرأ بروست عشر مرات، دون أن نكون قد قرأنا بروست على الإطلاق.

كانت مجلّدات البلياد، النادرة جداً عند والدتي، تكتسي بالنسبة إلي تلك الصبغة الصارمة والغامضة التي تتصف بها الكتب التي لا تتحرك من مكانها إلا نادراً. وعزوت السبب، بيني وبين نفسي، وأنا طفل إلى أنها وُجدت بقياسٍ يسهل فيه أخذها. ومما يزيد في إثارتها للإعجاب أنها لا تتحرك من مكانها في مكتبة والدتي، بينما لا تفتأ باقي الكتب تروح وتأتي في حركة مستمرة. إذ تصل كل أسبوعٍ مغلّفات كبيرة، أو علب مُقوّى كاملة، مليئة بما اختاره الناشرون أو انتقاه الصحفيون وبمختلف الترجمات. مثلاً عندما تتلقى والدتي عشر نسخٍ من الترجمة السلوفاكية لـ «المرأة المتبرجة»، وعشر نسخ من «لمحة مفقودة» باللغة الفنلندية، ينبغي أن نجد لها مكاناً. هذه الكتب تنتهي مهملةً على الرف الأخير، الذي يُعتبَر رفّ العزلة الأبدية. ولكن هناك أيضاً الكتب التي تشتريها والدتي بنفسها، تلك الروايات التي تذهب لشرائها

1- يتألف البحث، كما كتبه بروست، من سبعة أجزاء إلا أنه طُبع على أربعة عشر كتاباً

ليلاً، بسيارتها الأوستن كوبر الصغيرة، في لا هون أو في متجر بوبليسيس سان-جيرمان، والتي تعود بها بملء يديها بأكياس كبيرة مملوءة بالكامل. وعودةً إلى مجلدات البلياد، عندما كنت طفلاً حصل أن فتحت أحدها وأغلقته بسرعةٍ لشدّة ما أخافتني الصفحات الألف التي يتضمّنها، وربما ذكّرني أيضاً بكُتيّبات الصلوات التي كنا نمسك بها عندما تصحبني جدتي إلى القداس. وعلمت بعد ذلك بوقتٍ طويل أن صفحات البلياد ليست سوى ورق من ورق الكتاب المقدس[1]!

في تلك الفترة التي اكتشفتُ فيها فوكنر، وفيتزجيرالد، وجويس، وآخرين كُثُراً، استطعت تخصيص كل وقتي للقراءة: ذهبت إلى إيكس-لي-ميل، غير بعيدٍ عن إيكس-أن-بروفانس لتأدية خدمة العلم. وقد أيّد والدي والدتي في رغبتها بأن أُنجز هذا الواجب في فرنسا، وفي أقرب وقتٍ ممكن. مردداً أحد تعابيره المفضلة: «بهذا نكون قد أنجزنا شيئاً جيداً». وبالأخص كان يشعر بالارتياح التام لمعرفته أنني لن أجد نفسي ذات يوم في الجيش الأمريكي، فهو بالذات كان عسكرياً في الولايات المتحدة. وبما أنّ أمريكا لم تكن قط هادئةً بما يكفي فإنه يخشى أن يُرسَل «بُنيُّه» إلى باناما أو إلى غرينادا. فهناك دائماً في العالم مكانٌ تتصارع فيه الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن والدتي لم تكن من النوع المناضل على الإطلاق، فقد أصرّت كثيراً على أن أؤدي خدمة العلم. وتعتبر، لسوء حظي، أن التجنيد شيءٌ أساسيٌّ لتربية الرجال الشباب. إذ تتميز خدمة العلم بشيءٍ خاص، كما تقول، ألا وهو أنها تُتيح لك، لمرةٍ واحدةٍ في الحياة، فرصة الالتقاء بأناسٍ من أصولٍ، ومن تقاليد، ومن أوساط مختلفة تماماً عن وسطك. فهي، بالنسبة للكثير من الفتيان، فرصة للانفتاح، ولاكتشاف العالم. كانت تعتبر أن هذا الاختلاط الإلزامي لكل هؤلاء الشباب، ولكل تلك الأنواع، ولكل تلك البيئات، ولكل وجهات النظر، لا يمكنها إلا أن تفتح الناس على العالم وتُجبرهم على تفهّم الآخر، وبالتالي على التسامح. رغم أنني في تلك الفترة لم يكن لدي سوى رغبة واحدة، هي أن أنطلق وأحصل على تسريحي. أمضيت ستة

1- ورق رقيق جداً وكتيم يستخدم في طباعة الكتاب المقدس وغيره من الكتب الضخمة

أشهرٍ في خدمة العلم، وفي نهايتها حصلت على تسريحي عن طريق طبيبٍ نفسي. وعلى هذا أصبحت في نظر الجيش غير مؤَهّلٍ عقلياً. وعند عودتي إلى باريس، على الأغلب في شهر مايو، عدت من جديد، يملأني الفرح والسرور، إلى العاصمة وإلى بواكير عبيرها الصيفي. ذهبت لرؤية والدي الذي ذُعر من رؤيتي في هذا الوقت المُبكِر. ليس لكونه انزعج من أنني لم أمضِ في خدمتي إلى نهايتها، ولكن لما سيكون عليه ردّ فعل والدتي، وهو نفس السبب، وبنفس الطريقة، التي جعلته يقلق فيها قبل ذلك بعدّة سنوات عندما حصلت على درجاتي السيئة في المدرسة.

يمكننا إطلاق صفة الفترة المتميزة على السنوات العشر التالية التي قضيتها مع والدي. وتوفر لنا الوقت لنلتقي وقد أصبحت أخيراً بالغاً، وصرنا نستطيع الكلام عن كل شيء بحرية كبيرة (حتى لو أنه احتفظ دائماً بذلك الخفر الذي يُسبغ عليه أحياناً هيئة من لا يصغي عندما لا يعجبه الحديث أو يُضجره، مما يعني أنه ينبغي الكلام عن شيءٍ آخر). في تلك الفترة لم أكن أقدّر بعد حقاً مدى شغفه بالموسيقى بشكلٍ عام، وإنني لأشعر بالأسف اليوم لأننا لم نتكلم أكثر عن الموسيقى المعاصرة. من الواضح أن ذوقينا مختلفان حول هذا الموضوع، إذ إن اهتمامه منصب بشكلٍ حصري على الموسيقى الكلاسيكية، والفن الغنائي في حين أنني لم أكن أحب سوى موسيقى السول[1]، والروك، والجاز الكلاسيكي، وجاز الروك[2] بشكلٍ خاص الذي كنت أُكنّ له نوعاً من العشق الحديث والتام في آن واحد، حتى إنني رفعته إلى مصاف الفن الكلاسيكي. أما ثقافة والدي الكلاسيكية فكانت واسعة على قدر اتّساع ميله للموسيقى، بينما ثقافتي أنا فقميئة، بالطبع باستثناء الأعمال الأكثر شهرةً لموتسارت، وشوبان، وشتراوس، وبعض الآخرين. على كل حال هل بإمكاننا الكلام عن أي شيءٍ يُعادل الحميمية التي تقدمها لنا الموسيقى؟ كم كنت أود لو أُسمِعَه ألبوم «الزوايا الأربع» لفرقة بيلوجاكيتس، أو Lyle Mays[3] لليل مايس، أو Off ramp لبات ميتيني مثلًا، ليُخضِعها إلى

1- موسيقى أفرو-أمريكية انتشرت بين أعوام 1950 و1960.
2- تيار موسيقي يدمج الجاز مع الأنواع الأخرى ومنها الروك انتشر في بداية السبعينيات.
3- الألبوم يحمل نفس اسم مؤلفه نشر في العام 1986.

قابليته وميله الطبيعيين الكبيرين جداً، ليعطيني رأيه الحقيقي بها، وأن يضع مراجعه الكلاسيكية موضع المقارنة مع هذه المؤلَّفات التي يعتبرها الكثير من عشّاق الجاز العصري الأكثر ابتكاراً. وباستثناء الأوبرا، لم نحضر قط معاً حفلاً موسيقياً للموسيقى المعاصرة، وأتساءل كيف كانت ستكون ردّة فعله لو أنني اصطحبته إلى إحدى تلك القاعات، حيث الموسيقى صاخبة جداً ويصل الجمهور، أحياناً، إلى ذروة الهيجان.

منذ 1987 أو 1988، لم أعد أعرف بالضبط، تدهورت صحته بشكلٍ مفاجئ. بدأ يتشكّى من ساقيه، وواجه صعوباتٍ في المشي لمسافاتٍ طويلة. أُغلقت شرايينه بشكلٍ غير قابل للعلاج بسبب الاستهلاك المتزامن للكحول وللسجائر التي لم يشأ قط التخفيف منها. تقرر إجراء تجسيرٍ وريدي، والالتفاف حول ذلك الأنبوب الذي من شأنه أن يمرر الدم. جرت عمليته بنجاحٍ، واستعاد والدي قدرته على استخدام ساقيه. ذهبنا ذات مساء للعشاء في مونبارناس، كما تعودنا أن نفعل في أحيان كثيرة. وبينما كنا نسير على الجادة لإيجاد تاكسي، ناداني والدي وقال لي: «يا ديني، أنا مصاب بالسرطان».

التحاليل التي أُجريت بمناسبة عمليته الجراحية في الساقين كشفت المرض في حنجرته وأمعائه. وبينما كان ما يزال في فترة النقاهة، توجّب عليه اتّباع علاجٍ ثقيلٍ جداً ومُلزِم، وبشكلٍ شبه يومي، في معهد جوستاف روسي في فيلجويف. لقد هدّني أن أراه مضطرّاً لتحمل كل ذلك، رغم أنني كنت مطمئناً إلى حد ما إذ بدا لي أن الأمور عُولِجت في وقتٍ مُبكر، وأن والدي بين يدي أفضل الأطباء. في بداية شهر ديسمبر 1990، دخل إلى المشفى من أجل إجراء سلسلةٍ من الفحوص الجديدة سوف تستغرق بضعة أيام.

والدي لن يخرج أبداً من المشفى. فقبل عيد الميلاد ببضعة أيام، علمنا أنا وفرانسوا جيبو أن وضعه لا يسمح له في الواقع بالعودة إلى منزله. وعلى هذا ذهبت للقائه في فيلجويف. كان ذلك في عشية الرابع والعشرين ووجدته في حالةٍ مرعبة، مرعبة جداً لدرجة أن عينيَّ، في الواقع، رأتا شيئاً، بينما رأى ضميري شيئاً آخر. كان والدي يُحتضر ولم ألاحظ ذلك. كنت أرفض الأمر بشكلٍ مطلق. تركته في فترة بعد الظهر، وذهبت إلى الريف. في مساء ذلك اليوم، اتصل بي فرانسوا الذي بقي إلى قربه ليُعلن لي أن والدي قد تُوفي.

-11-

يُشير مطلع سنيّ السبعينيات إلى بداية منعطفٍ كبيرٍ ثالثٍ في حياة والدتي. ذات ليلة من عام 1974، حصل لها حادث ولكنه، لحسن الحظ، دون خطورة بالمازيراتي ميسترال، بينما كانت تقود بأقصى سرعة باتجاه النورماندي، على طريقٍ ريفيّ مقفِر. انزلقت السيارة وبدأت تدور قبل أن تصطدم مقدمتها من اليسار بحافةٍ معدنية. سببُ الحادث هو أن شاحنة انزلقت في المكان نفسه قبل ذلك بساعةٍ أو ساعتين تاركة بركة كبيرةً من الزيت على الطريق. تضررت المازيراتي بشكلٍ جدّي بسبب الصدمة، وكان لا بد من أجل إنقاذها إعادة ضبط وتصحيح هيكلها. لم تعد والدتي ترغب بالمخاطرة بقيادة سيارةٍ أصبحت مختلة التوازن. وقد أصبح إهمالها للمازيراتي نذيراً ببداية فتور في تاريخ العشق الطويل بين والدتي وسيارات السباق. منذ ذلك الوقت، أصبح ميلها يوجهها نحو السيارات الأمريكية الكبيرة، ذات السقف المتحرك، فهي أكثر راحةً وصمتاً، وتولد إحساساً شبيهاً بما يحصل على مركبٍ أكثر مما هو على سيارة سباق. ولكن للأسف الشديد، لم يكن هناك فقط الافتراق عن المازيراتي ميسترال، إذ بدا هذا الفراق تافهاً أمام ما تبقى. فقبل ذلك بسنتين رحلت باولا، صديقتها المفضلة، وشريكتها الحنون على مدى سنواتٍ عديدة، التي أودى بها السرطان بعد صراع لم يدم سوى بضعة أشهر. وفي الفترة نفسها تقريباً، حدث الانفصال المؤلم مع إيلكه التي، بين ليلة وضحاها، لم نعد نراها في المنزل. وإذا ما حدث أن مرت لماماً بين فترة وأخرى بعد ذلك، فإن المياه لم تعد إلى مجاريها. وكذلك، في الفترة نفسها أيضاً، بدأت والدتي تنزعج من دفع كل تلك الضرائب. لا لكونها تعترض على المبدأ بذاته. ولكن مظاهر الظلم التي تلاحظها، والتباين في المعايير

الذي أصبح ظاهراً للعيان منذ وصول جيسكار إلى السلطة، هي التي تثير غضبها. وهذا ما أدى بها إلى التفكير في مغادرة فرنسا، والذهاب للسكن في إيرلندا بصفتها لاجئة ضريبية[1]، البلد ذي الطبيعة والجمال الوحشيين، بعيداً نوعاً ما عن كل شيء، البلد الذي سكانه مضيافون ويحبون الاحتفالات ويُبدون قلّة اهتمامٍ بالأمور المالية. باختصار، كانت إيرلندا معزولةً كما هي اللوت، وخضراء كما هي النورماندي. في تلك الفترة، أصبحنا قريبين جداً من اللجوء حتى إننا قمنا بزيارتين طويلتين، خلال الصيف، من أجل تحديد المواقع على الساحل الغربي قرب كيلارني. كانت والدتي قد استأجرت بيتاً كبيراً منخفضاً جداً يُشرف على خليجٍ طويل. وباستثناء بعض النزهات الطويلة على الشاطئ المُقفر، وبعض الجولات على الحصان، وفترات التسلية بالصيد في النهر، لم يكن هناك شيءٌ كثيرٌ نفعله ما عدا الذهاب مساءً إلى المقهى الشعبي الوحيد في القرية، على بعد بضعة كيلومترات من المنزل، حيث كنا نلتجئ بالقرب من الموقد. مازالت في ذاكرتي تلك الرائحة الخاصة، المعسولة إلى حد ما، المنبعثة من التربة المُسمّدة التي تمتد فوق الريف الإيرلندي. لم تشترِ والدتي منزلاً في إيرلندا، ولم نتحول قط إلى لاجئين ضريبيين.

في السنة نفسها بدأت تتشكّى من آلامٍ حادة ومُعنّدة في بطنها. أُجريت لها فحوصاتٌ عديدة، واكتشفوا لديها التهاب بنكرياس (كان الألم شديداً جداً حتى إن والدتي، بعد ذلك بسبعة عشرة عاماً، أوهمت بيغي روش المحتضَرة أنها تعاني من المرض نفسه). خضعت والدتي لعملٍ جراحي في الخريف، ومنذ ذلك اليوم مُنعت منعاً باتاً من الشرب، حتى ولو نقطة واحدة من الكحول، أكان ذلك خمراً أم ويسكي أم أيّ شيءٍ آخر، وأيّاً كانت الكمية المُستهلكة. هذا الحظر المفاجئ أفقد والدتي شريكاً في لحظات اللهو والمرح بقي ملازماً لها زمناً طويلاً بما يكفي ليغدو بالنسبة إليها رفيقاً حقيقياً. «كان الكحول بالنسبة إلي دائماً شريكاً طيباً، وأيضاً عنصرَ مشاركةٍ، مثل الخبز والملح.» يمكن للكحول أن يستثير همّتك، أن يُعطيك دفعةً

1- اللجوء الضريبي: تغيير قانوني للموطن الضريبي من أجل إيجاد وضع ضريبي أفضل

صغيرة إلى الأمام لتفتح باباً نحو شخصٍ ما، يُتيح تسريع الحياة، ووالدتي دائمة الانجذاب نحو ما يُتيح لها المضي بسرعة أكبر. في البيت كان ضيوفنا يشربون في أغلب الأحيان ويسكي صرفاً أو مُرافقاً بقطع الثلج، أكان ذلك في الساعة الثالثة بعد الظهر أم الثامنة مساءً، أكانوا صحفيين، أم كُتّاب عدلٍ، أم وكلاء، أم أطباء.

ليس لديّ أية ذكرى عن والدتي وهي تشرب بإفراط، كما أنني لا أتذكرها أبداً وهي تترنح، أو تتلفّظ بكلامٍ غير لائق، أو يصدر عنها تصرف مغيظ أو في غير مكانه. وحتى إنني لم ألاحظ قط، على مدى كل تلك السنوات، أن للكحول أي تأثيرٍ مُخلٍ بالتوازن أو مُهينٍ على البالغين الذين يستهلكونه، مما قد يجعلني أبتعد عنه خشية أن أصبح مثلهم. في معظم الأحيان، كانوا مرحين، يضحكون بعفوية وتظهر عليهم علائم التسلية والمرح. ولكن أَلَيْس ذلك لكونهم أصحابَ فكرٍ مرهفٍ وأنْ ليس للكحول أي تأثيرٍ سوى في حث واستثارة روح الظرف لديهم؟

بعد عملية البنكرياس التي أجريت لوالدتي، ومن أجل مساعدتها على صرف النظر نهائياً عن الكحول، أُرسلَت إلى ما يشبه المشفى الخاص في ضواحي مونليري. كان ذلك المكان محروماً من كل شيء إلا من الكآبة والضجر. وهكذا فإن توقفها النهائي عن الشرب، ورحيل باولا، واختلافها مع إيلكه، وإعادة التفكير بشكلٍ أعمق حول الحياة، في فترة بلوغها الأربعين من عمرها، مع بدئها بالتساؤل عما إذا كانت ما تزال جديرةً بالإعجاب، كل ذلك تراكم بشكلٍ مفاجئ. في مونليري، شعرت أنها مهملَةٌ جداً، كئيبةٌ جداً، حتى إن الأشخاص النادرين الذين سُمح لهم بزيارتها صاروا يغادرونها منزعجين وقلقين. كان عليها البقاء لأسبوعين أو ثلاثة رهينة في ذلك المشفى، وكأنها في سجن، مُحتجَزة، دون هاتف، ومنقطعة عن العالم. كان زميلها في النزل ميشيل بولناريف[1]، وهو أيضاً مُحتجزٌ، وربما لأسباب مماثلة. في الطابق الأرضي من المشفى يوجد صالون، وفيه بيانو. في الليل، كانا يلتقيان هو ووالدتي في تلك القاعة الكبيرة للثرثرة. حيث يجلس

1- 1944 -... مؤلف، وملحن ومغنٍّ فرنسي اشتهر كثيراً في سني السبعينيات

بولناريف إلى البيانو. في هذه الأثناء، تدخّلت ماريلين ديتشري وتمكّنت من إقناع الجميع أنه ينبغي إخراج والدتي من ذلك المكان مهما كلف الثمن، وإلا فإنها ستقع ضحية اكتئابٍ شديد، لن تُشفى منه نهائياً.

وفي تلك السنة نفسها، في العام 1975، غادرنا شارع غينيمير لنسكن في شارع أليزيا، في الدائرة الرابعة عشرة.

-12-

فيما عدا الأسابيع الأولى من حياتي، حيث استقر والداي في شقة جادة مالزيرب، وعهدا بي إلى رعاية جدتي، في حين كانا يخرجان للاحتفال، أمضيت جزءاً كبيراً من طفولتي ومن مراهقتي في بيت جـدّيّ. جادة مالزيرب، كما كنا نسميها اختصاراً، شقة واسعة على الطراز الهوسماني[1]، حيث انتقل آل كواريز في العام 1930. كانت مقسمة إلى جزءين متميزين: جزء للاستقبال، مؤلّف من مدخلٍ (أطلق عليه جدّاي اسم الممشى)، وصالون كبير فيه بساط (موكيت) أحمر داكن، وأثاثٌ مَهيب (كنت الوحيد تقريباً الذي أشغله إذ وضعت فيه لعبتي الكبيرة: المضمار 24[2])، ومن الجهة الأخرى من المدخل، صالون صغير، (حيث يقبع جهاز تلفازٍ لا نُشغله إطلاقاً)، وقد استخدمته والدتي كغرفة نوم ومكتب بعد «مرحباً أيها الحزن». في هذه الغرفة، استقبلت الصحفيين وصوّرها بشكلٍ خاص جاك روشون؛ وقاعة كبيرة للطعام مع شرفة تطلّ مباشرة على الغرب مما يجعل منها الغرفة الوحيدة المليئة بالنور، حيث كانت جدتي تحب أن تأتي بعد الظهر، وتُدفّئ قدميها في الشمس. الجزء الثاني من الشقة وهو الجزء المشترَك، جزء ضيّق، طويل، ومتعرّج، موزع على جانبَيْ ممشى من ثلاثةٍ وعشرين متراً (قالت والدتي إنها قاسته لشدّة ما ذرعته ذهاباً وإياباً) وأنا بنفسي صغت بعض الافتراضات، حول المسافة التي قطعتها جوليا، مدبرة المنزل، منذ دخولها

1- نسبة إلى جورج أوجين هوسمان 1809-1891: مهندس وسياسي فرنسي، واضع مخططات مدينة باريس الحديثة في القرن التاسع عشر.

2- لعبة هي عبارة عن مضمار لسيارات السباق اخترعها إتيين جويه وانتشرت على نحو واسع جداً بين 1961 و1973.

في خدمة العائلة في العام 1932 (وتوصلت إلى نتيجة لا تُصدَّق: اثنا عشر ألفاً وخمسمئة كيلومتر). كان الممشى يُخدّم الغرف المشتركة في المنزل: غرفة خدمة، غرفة حمام، غرفة جدتي، وغرفة نوم أطفال حيث أسكن في أيام الخميس والعطل الأسبوعية، وغرفة جدي، وغرفة جوليا، وفي الآخر مطبخ كبير.

أظهر بيير وماري كواريز، على الدوام، حناناً كبيراً جداً، وعناية غير اعتيادية تجاهي، الأمر الذي لم يحصل دائماً مع الأحفاد الآخرين. علماً بأنني أعتقد أن جدتي كانت تحب كل أطفال الأرض ويمكنها مداعبتهم، بعكس جدي الذي كان «مزاجياً في تفضيلاته» ويعرف كيف يغدو قاسياً، أو ظالماً، أو أحياناً عنيفاً مع أحفاده، كحاله مع ولدَيه الكبيرين سوزان وجاك. كنت الحفيد المُفضّل. فهل مردّ ذلك لكوني، أنا بالذات، ابن ابنتهما المفضلة؟ أم لأنني الابن الأخير للابنة الأخيرة؟ هل قررت جدتي أن تحميني نظراً للحياة «المُنحلّة» التي تعيشها ابنتها، ونومها واستيقاظها في ساعاتٍ غير مناسبة، وكل أولئك الناس المحيطين بها والذين قد تتخيّلهم غير جديرين بالمعاشرة بالنسبة لطفلٍ صغيرٍ من عمري؟ وأياً كان الأمر، كان بيير وماري كواريز جدّين رائعين. لقد انحشرت ما بينهما، وتدفّأت بوجودهما طيلة فترة طفولتي، واستفدت بشكلٍ واسع من رعايتهما ومن حنانهما، وكذلك من فكاهتهما. كلاهما يتمتعان بحريةٍ فكريةٍ كبيرة، وهذا يعني تسامحاً إلى حدٍ ما، والكثير من الفرادة، إن لم نقل من غرابة الأطوار.

كانت جدتي مرهفة الذوق وشَرُوداً. كنا نمزح كثيراً بخصوص ميلها للقبعات التي توصي عليها عند مصممة الأزياء بوليت في باريس. وقد زعم البعض أنها، في يونيو 1940، في حين نجحت العائلة في مغادرة العاصمة قبل وصول الجيوش الألمانية، طلبت بإلحاح القيام بنصف دورة، عائدةً بعكس تيار النازحين، للذهاب وإحضار قبعاتها التي نسيتها. لم أعلم قط ما إذا كانت هذه الحادثة حقيقية، أم اختُرِعَت لتشهد على غُنج تلك المرأة المفرط، التي لم تكُن تتخيل كيف تُمضي الحرب دون قبعاتها.

كانت جدتي على قدرٍ كبير من الرعونة والطيش. وكما تقول والدتي: «هناك دائماً خمسون شخصاً فوق رأسها». تحب الضحك، وعلى ما أذكر،

لديها مجموعةٌ من الصديقات، كلّ منهنّ أشدّ رعونةً من الأخرى. فهناك ماري فوشران، التي اضطرّوا ذات يومٍ إلى لفّها في سجادةٍ عجميّة من صالون جدّيَّ، لنقلها بشكلٍ إسعافيّ إلى شعبة الطب النفسي، لأنها هدّدت جدّي بمسدس. وأتذكّر أيضاً أوديت سكوت، وهي تكبرُها ببضع سنوات، أي أنها كانت بحدود الأربعين من عمرها في فترة الحرب، وتدّعي أنها قد قُلِّدت الأوسمةً مرات عديدة لبطولاتها في المقاومة. قالت إنها صديقة ونستون تشرشل وراحت تتباهى بأنها الوحيدة من بين النساء التي انضمّت إلى الفدائيين المظلّيين. وخلال إحدى المهمّات التي أنجزتها، هبطت بمظلّتها فوق فرنسا، واستقرّت ليلاً في منطقةٍ مستنقعيّة تعجّ بالألمان، وتمكّنت رغم كل شيء من الإفلات من رقابتهم، إذ غمرت نفسها في بركةٍ وبقيت مختبئة طيلة ساعات طويلة وهي تتنفس عن طريق عود قصب، أبقت أحد طرفيه خارج الماء. فقد جعلت منها شجاعتها وأعمالُها البطولية شخصاً مشهوراً مُعترَفاً به وموضع إعجاب في البلاط الإنكليزي. وبهذه الطريقة، أصبحت مُقرّبة بشكلٍ حميمي من الملك جورج السادس، ومن وليّة العهد اليزابيت. كانت تُدعى بشكلٍ منتظَم إلى قصر بكينغهام وهذا ما ألزمها في كل مرة على حبس نفسها في شقتها، مُغلقةً كل النوافذ، ليظُنَّ الناس بأنها فعلاً ذهبت إلى لندن. وعند عودتها من إحدى تلك الرحلات، روَت لجدتي أنها، عندما خرج الموكب من القصر، كانت جالسة في العربة إلى جانب الملكة. أوديت، التي كانت تصرّ على مُناداتها باسم ليدي سكوت، دائمة العناية بهندامها، وتتزيّن بشكلٍ كامل، وتُصفّف شعرها بشكلٍ دقيق جداً، وبالإضافة إلى ذلك، تستخدم لكنةً بريطانية عريقة تحميها من بعض الأسئلة المحتملة التي يمكن أن تُطرح عليها، بتطفل زائد، حول ماضيها البطولي المذكور. مع ذلك، جاء أحد أصدقاء جدي للعشاء، ذات يوم، في جادة مالزيرب، برفقة أحد أصدقائه وكان *بالفعل* طياراً في القِوى الجويّة الملكية، واشترك في معركة إنكلترا. كانت ليدي سكوت حاضرةً وتجهل أن هذا الشخص هو من المحاربين القدماء. وعندما تطرّقَ الحديث إلى شبكات المقاومة، روت قصة هبوطها بالمظلة، وعود القصب في المستنقع، ولكن، خلال سردها لقصّتها كان الطيّار الإنكليزي يشحب ويصفرُّ ويُظهر كلَّ علامات

الهلع الكبير، إلى اللحظة التي تحوَّلت فيها دهشته إلى غضبٍ كبير، إذ لم يعُد بمقدوره سماع أكثر من ذلك، نهض عن الطاولة كالملسوع، وأمر ليدي سكوت بحزم بإيقاف تُرّهاتها على الفور. صمتت، وأعتقد أنني، بدءاً من ذلك اليوم، ما عُدت رأيتها عند بيت جدّيّ على الإطلاق.

أما جدّي فهو سليلُ عائلة صناعيين ميسورين من شمال فرنسا. ولِد في بيتون، في 25 يونيو 1900، ويتباهي بأنه ولِد في القرن التاسع عشر، داعماً أقواله بحجّة أن العام صفر ليس له وجود. كان باستطاعته التصرّف كإنسانٍ ذي فكرٍ حُر، طريفٍ، واستفزازي، بقدر ما يبدو مُتطلّباً ومُنحازاً إلى حدٍّ مُخيف. يُقال إن جدّيَّ التقيا خلال حفل زواجٍ في سان جيرمان-أن-ليه في صبيحة الحرب العالمية الأولى، وإن الاندفاعة التي دفعت جدّي نحو تلك الفتاة الصغيرة ماري، القادمة من اللّوت، كانت قويةً جداً حتى إنه امتطى درّاجته الناريّة في الأيام التالية ليزورها في كاجار، قاطعاً المسافة كلّها دُفعةً واحدة من بيتون[1]. كنت محظوظاً بكوني الصبيَّ الصغير المدلّل والمُنتظَر كلَّ خميسٍ، وفي عطلة نهاية الأسبوع، وفي شهر أغسطس الذي كنت أُمضيه في سوزاك، في اللّوت، مع جدّتي. كانت شقة جادة مالزيرب ملاذاً، حيث كدّستُ كومةً من الذكريات المليئة بالرعاية، وبالحنان، وبالمرح. إنها كنزٌ حقيقي، وربّما ما تزال تحميني في يومنا هذا، وهي التي أتاحت لي الصمود خلال محنة التّركة التي دامت طوال سنتين. من يدري إذا ما كان بيير وماري كواريز هما اللّذان أنقذا تركة ابنتهما بواسطتي.

في شقة جادة مالزيرب، كانت هناك أيضاً جوليا لافون التي أحببناها جميعاً. فتاةٌ وُلِدت في قريةٍ نائيةٍ في تلال اللّوت الكلسيّة، وقد احتواها جدّاي قبل أن تُصبح مدبّرة منزلهما. جوليا هي التي ربّت سوزان وجاك وفرانسواز، وفيما بعد، اهتمّت بشؤوني بشكلٍ جيد جداً. ما زال لديّ بعض الذكريات الطفوليّة. فعند أوّل علائم الرشح (الذي كنت أُصاب به في الشتاء لا محالة) يضعني أوسكار في السيارة ويقودني إلى شقة جادة مالزيرب حيث، وبالرغم من الحمّى التي تعتريني، كان جدّاي، وبشكلٍ خاص جدّتي،

1- المسافة بين بيتون وكاجار بحدود 800 كم تقريباً

ينتظرانني كما يُنتَظر المسيح. فيعطيانني علاجاً مؤلّفاً من حساءٍ من الخضار، ونقوعاً من الزعتر، وكمّاداتٍ من الكافور، كما يوليان اهتماماً شديداً جداً بمراقبة منحنى حرارتي.

لقد حوّلتُ عربة الخدمة ذات العجلات العائدة لجدّيَّ، والتي هي مخصصة في العادة لإحضار الصحون والأطباق من المطبخ إلى غرفة الطعام، حوّلتها إلى عربةٍ جهنميّة، حيث ثَبّتُّ رايةً للصليب الأحمر من تصنيعي، وكنت أُحزِّم دبّي المُخملي المُفضَّل بفوط الطّعام، وأندفع في سباقٍ على الفَرَس بأسرعِ ما يمكنني (مُولولاً بالطبع كما تُولول صفّارة سيارة الإسعاف) وصولاً إلى المطبخ من أجل وضع الدب بين يديّ الجرّاح المُفترَض. كان هناك منعطفٌ كبيرٌ يبدأ من غرفة الخدمة وينتهي أمام باب غرفة جدّتي. أحياناً يتحوّل هذا المنعطَف إلى نقطةٍ عويصة بالنسبة لمساري، إذ تصطدم عجلات الطاولة مع نعل الجدار. أمّا الدب، فيقع على الأرض على الرغم من أربطته.

كان جدي شخصاً فريداً لا يخشى من أي شيء، لا من المال، ولا من السلطة، ولا من الرجال (الذين غالباً ما يُظهر نحوهم القليل من الاعتبار)، ولا من الرأي الذي يمكن أن يكوّنه الناس عنه. وعلى الرغم من أنه غير ميّال إلى إظهار عواطفه (وهذه الآن سمةٌ خاصة متمكنة لدى كل أفراد عائلتي)، كان يُكنّ لابنته الثانية، فرانسواز، عاطفةً تعلو بكثير على تلك التي يكنّها لابنته الكُبرى سوزان، ولابنه جاك الذي كان يبدي نحوه أحياناً قدراً كبيراً من الصرامة. مع كيكي[1]، يتغاضى عن كل شيء، وذلك منذ أوائل طفولتها: يسمح لها (هذه ميزةٌ لا ثانيَ لها) بمخاطبته بضمير المفرَد. وبعد نجاح «مرحباً أيها الحزن» اقترن هذا التواطؤ الحنون بالإعجاب وبشيءٍ من الفخر. روى أحد كتّاب السيرة أن بيير كواريز منع ابنته من حقّ استخدام نسبته عند نشر رواياتها. ليس هذا القول سوى نقطة واحدة من بين نقاطٍ عديدة مؤسفة ومزعجة صدرت عن كاتب السيرة نفسه. كان يبدو لي جدّي حقاً غير قادرٍ على مثل ذلك التسلط على ابنته. ومن جهةٍ أخرى، ليس لدى بيير كواريز

1- لقب فرانسواز ضمن العائلة

عقليّة «البرجوازي الرّيفي» تلك، وهو آخر إنسان في العالم يهتم بأقاويل الناس. وكما قلت سابقاً، إنه لا يخشى أي شيء ولا أي شخصٍ. إنه إنسان طريف، يعرف كيف يتصرف في المواقف الصعبة. وعلى ما أعتقد، عند قراءته لمثل تلك الادّعاءات بخصوصه، كما هي الحال بالنسبة إلى الادعاء القائل إنه طلب من ابنته الولادة بالسر، لكان صفع مؤلّف هذه الاتهامات الكاذبة بكلّ بساطة وعلى العلن وطرده من بيته بأكبر ضجّةٍ ممكنة. وفيما بعد علمت، على لسان والدتي بالذات، وهذا ما أكّده لي شهودٌ آخرون، أن تغيير النّسبة كان مردّه إلى رينيه جوليار بالذّات، الذي اتّصل ذات يوم بوالدتي ليُعلمها بانزعاجه من وضع اسم كواريز على الغلاف. كان يخشى أن مثل هذا الاسم المفتقِر إلى الألَق وذي النّبرة الجافة نوعاً ما، قد يضرّ بالكتاب. سألها: «أليس في ذهنك أي اسم آخر تقترحينه عليّ؟»، والدتي، التي كانت حينها مستلقيةً وبين يديها نُسخةٌ من «البحث عن الزمن المفقود» وتقرأ فقرةً تحكي عن الأمير ساغان، أجابت في الحال: «ما رأيك بساغان؟» وهكذا تحولت من فرانسواز كواريز إلى فرانسواز ساغان.

كان جدي يتصرّف بطريقةٍ طريفةٍ، وغير متوقَّعة. ذات يوم عاد في وقتٍ متأخرٍ أكثر من المعتاد من عمله، بينما كان مُنتظَراً على العشاء مع العديد من المدعوّين، إلا أنه أخطأ في الطابق، وقرع الجرس على جيران الطابق الأسفل. فُتح له الباب، وتوجّه نحو غرفة الطعام، مقلّداً الفارس على حصانه ومكرّراً: «هأنذا أَصِلُ، خبباً، خبباً، خبباً». ثم حين أدرك خطأه، رجع نحو الباب مردِّداً: «وأنا أذهب، خبباً، خبباً، خبباً». وفي يومٍ آخر، جاء صحفيٌّ ممن ارتبطت والدتي معهم بعلاقة صداقة، إلى شقة جادّة مالزيرب ليصطحبها إلى العشاء، فتصادف حينها مع جدي وسأله، كما كانت تجري العادة في تلك الفترة: «هل تسمح لي يا سيدي بأن أختطف ابنتك من أجل العشاء؟» فأجابه جدي بسرعة، وبهيئةٍ في منتهى الجدية: «يا سيدي إنني أقبل عرضك بشرطٍ واحد، هو ألا تعيدها إليّ». ثم أضاف في حضرة الصحفيّ المذهول موجّهاً الكلام إلى والدتي بأبسط نبرةٍ ممكنة: «أمنحك حتى الساعة العاشرة والنصف، لا أكثر.»

كانت جدتي تعرف كل الأشجار، كل الزهور، وبإمكانها التعرّف على

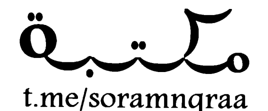
أيّ طائرٍ من أول نظرة. وهذا ما كان يُدرَّس للفتيات، سليلات العوائل المحترمة، في المدرسة الداخلية حيث كانت طالبةً داخلية في كاهور خلال طفولتها. لقد تلقّت تعليماً تقليدياً. أعتقد أنها توجّهت في وقتٍ مُبكر نحو المواد الأدبية، إذ إنني عرفتها مُحبةً دائماً للكتب، ومُكثرةً من القراءة، وهذا على الرغم من أنها عانت عندما بلغت الستين من شحٍّ نظر شبه كامل في إحدى عينيها، وبضعف نظرٍ شديدٍ في العين الأخرى، فصار هذا العمى النصفي يزيدُ من مظهر الشّرود الذي يبدو عليها. بالإضافة إلى هذه التربية المدرسيّة، علّموها الاعتناء بالمنزل، والخياطة، والطبخ، واستقبال الناس. من هذه التربية، ومن التعاليم التي نقلتها لها والدتها، كانت جدّتي تستقبل ضيوفها بشكلٍ رائعٍ جداً. ففي كل مرةٍ نزورها فيها، كنا نعرف أن زيارتنا ستكون لحظة لطفٍ، ومرحٍ، مليئة بالطيّبات. فهي تُبدي كلّ عنايتها الخاصة لتجعل من المنزل منزلاً مرحِّباً، والمائدةَ جميلةً، والخوانات والمناديل والأطباق الفضية مرتّبة بشكلٍ تام. لقد علّمت جوليا تحضير الطعام بطريقة برجوازية بعد أن أضافت إليه بعض المنكّهات والمذاقات من اللّوت. على سبيل المثال، البطة أو الإوزة أو الكمأة (التي تُكنّ لها شغفاً حقيقياً) وفطر البوليطس، والجوز وبعض المعجنات، ومنها الأنقليس، وهي حلوى خاصة في تلك المنطقة، تُحضَر عجينتها، وتُمدّد بشكلٍ لا نهائي، ومن ثُمّ تُلَفّ بعضها حول بعض على شكل قوقعة الحلزون. كما كانت تجهّز بشكلٍ رائعٍ المشاوي، والحبيشات، والدجاج، والملفوف المحشي، والكعك المنفوخ، والسمك، مع تنويعةٍ لا تُصدّق من الخضار (البعض منها ما عدت ذقته على الإطلاق بعد ذلك الوقت)، مجموعة كبيرة من الأطباق، ومن المذاقات، تبدو لي في يومنا هذا خارقة، إذا ما قورنت بعاداتنا الغذائية الحالية. كانت جوليا تعتني عنايةً كبيرة بما تُحضّره من طعام، حتى إنها لم تعد بحاجةٍ لقراءة الكرّاسات الصغيرة المخصصة للملاحظات التي أملتها عليها جدتي لتصبح طبّاخةً رائعة.

شهرة المائدة في بيت بيير وماري كواريز لا تقل على الإطلاق عن أكبر الأسماء التي نجدها حين ذاك في الأدلّة الغذائية، حتى راح جورج بومبيدو يردد في مناسبات عديدة أن في شقة جادة مالزيرب: «أفضل مائدةٍ

في باريس». وبالإضافة إلى تعليمات جدتي، يتوجب على جوليا أيضاً تلبية متطلبات جدي، الذي يُظهر تشدّداً لا يقبل الجدل بخصوص إتقان تحضير الأطعمة. وعلى الرغم من أنني لم أحضر شخصياً هذا النوع من المشاهد، كان يحصل أن يُعيد طبقاً إلى المطبخ بطريقةٍ بمنتهى الحدة والفظاظة. وخلال الأسفار الطويلة النادرة التي قمنا بها في سيارة الأولدزموبيل (كان يقود دائماً سياراتٍ أمريكية، يجدها أكثر صمتاً، وأكثر راحة. وتجدر الإشارة إلى أن صورة والدتي التي استُخدمت لتزيين الطبعة الثانية من «سموم» عند دار نشر ستوك أُخذت لها وهي خلف مقود جراهام بيج مكشوفة وهي من سياراته)، وبينما نحن متجهون نحو اللّوت، وقد أصبحنا في الريف، على مقربةٍ من شاتورو أو ليموج، وقد حان وقت الغداء، كان يمكنه القيام بدورةٍ طولها مئة كيلومتر من أجل الذهاب إلى مطعمٍ متخصّصٍ بالرقبات المحشوة أو، كما حصل ذات مرة، لتناول بطاطا مقليةً بشحم الكِلى. إنني أذكر قصة البطاطا المقلية بشحم الكلى عن قصد، والتي روتها لي خالتي سوزان، إذ إنها تمثّل نهمه، وقد بعثت فينا تسليةً كبيرة.

يقول البعض إن والدتي، عندما جمح بها نجاح كتابها، أدارت ظهرها لجذورها، وتركت اللّوت. بل إنني أعتقد أنها لم تشأ أن تخلط الدوّامة التي دخلت فيها حياتُها بإيقاع كاجار، ذلك البلد الذي يعيش على البطيء، والذي تتعلّق به تعلّقاً عميقاً. فما كانت لتهتم على الإطلاق، إذا ما قيل عنها إنها ابنة مدام لوبار، جدتي، وإنها أصبحت الآن «تلك التي تكتب الكتب». فهي لن تأتي بعد ذلك الوقت إلى اللّوت إلا بخيارها، ولمتعتها، في الخريف وفي بداية الشتاء، عندما يكون السيّاح قد غادروا واستعادت كاجار فتنتها الهادئة. كانت تحب التنزّه في الهضاب، بالسيارة، عندما تكتسي الطبيعة ألوانها الخريفية. فبين منتصف سبتمبر ونوفمبر، يتجلى الريف بجمالٍ لا يُصدَّق بألوانه الصفراء والشهباء والحمراء. تقبع القرية في وادٍ محفوفٍ بهضابٍ صخرية. في الصيف، الحرارة فيها خانقة. «الهضبة هي امتدادٌ لكيلومتراتٍ عديدة من التلال حيث ما زالت تنتصب أطلال ضِياعٍ مبعثرة أفرغها الظمأ». «تتفادى تلك المنطقةُ بشكل مُذهل الفعاليات السياحية، والتلفاز، والطرقات السريعة، والطامحين.» اللّوت هي المنطقة الوحيدة التي ستجد فيها والدتي

الراحة وحتى النهاية، حيث يمكنها العودة، في كل مرة، إلى إيقاعٍ حياة ناعمٍ، دون تصدُّعٍ، ولا ضجيج. كانت دائمة الشعور بحاجةٍ حيويّة إلى الهدوء والطمأنينة والصمت (على الأقل لمدّة ساعة في النهار) أينما وُجِدت. في اللّوت، بقيت الروائح، والألوان، والأنوار، كما عرفَتها في سنواتها الأولى. إنها تستعيد فيها طفولةً لطالما قالت، هي بالذات، إنها ليست متأكّدة من مغادرتها إياها على الإطلاق. «فإمّا أنني كنت بالغةً بشكلٍ مُزيَّف منذ البداية، وإما أنني بقيت في طفولتي وأنا أترعرع. لم أشعر قط بانفصامٍ بين طفولتي وحياتي كبالغة، وهذا ما أزعجني على الدّوام بشكلٍ كبير». لقد قذف بها نجاح «مرحباً أيها الحزن» بعنفٍ في عالم البالغين، دون أن يترك لها أدنى فرصة للنّمو وحدها. وبشكلٍ غريب، إذا كان هذا الكتاب قد منع والدتي من أن تُصبح بالغةً، فقد أتاح لجيلٍ بأكمله بلوغ نضجٍ جديد.



-13-

انتُقد بعض أصدقاء والدتي بأنهم اقتربوا منها أكثر مما يجب، وأنهم حمَوْها، وأنهم أرادوا الاحتفاظ بها لهم وحدهم، وانتُقِدَت والدتي، في الوقت نفسه، بأنها أحاطت نفسها بعُصبةٍ من الناس لم تكن موجودة إلا لتكون جزءاً من حاشيتها، والاستفادة من كرمها، واسترعاء عنايتها. تضمّنت دائرة الأصدقاء المُقرَّبين، جاك شازو، برنار فرانك، شارلوت آيو، نيكول فيزنياك، فلورانس مارلو، ماسيمو غارجيا، فريديريك بوتون وآخرين. وبالقرب منها تماماً، في مركز تلك الحلقة، كانت هناك بيغي. أعتقد أن علاقة والدتي بها قد بدأت فعلاً في فترة الانفصال عن إيلكه، في 1973 أو 1974. ولكن الصداقة بين بيغي ووالدتي تعود إلى عدّة أعوام سابقة، فقد علمت مؤخَّراً أن التعارف بينهما يعود إلى العام 1969.

لقد وُجِّه اللّوم لبيغي روش، ولمدّةٍ طويلة، وعن جدارة، بأنها سيطرت سيطرة تامة على والدتي وعزلتها عن الكثير من الناس من حيث إن والدتي كانت لا شك تستثير تلك الرغبة في حمايتها، تلك الحاجة لأن تكون لها تلك العلاقة الحصرية معها حتى لو كلّف ذلك إبعاد الآخرين. كنت غالباً أسمع الناس يتبجّحون بأنّهم «أفضل صديقٍ لفرانسواز»؛ في تلك الفترة، كان هذا اللّقب دارجاً جداً، ومُتنازَعاً عليه كثيراً. فهناك دائماً من يحاول أن يكون أقرب، وأكثر حمايةً من الآخرين. إنه سباق غريب حاول الكثيرون المشاركة فيه. فإما أن تكون الأقرب أو لا تكون. وإذا ما عُدنا إلى بيغي، فقد كانت الأكثر حمايةً بين كلّ الحامين، أصبحَتْ سندَ والدتي ودعامتها خلال النصف الثاني من حياتها. خلال قرابة عشرين عاماً لم تنفصل عن ظلّها. لقد أخذت بيغي على عاتقها مُجمَل الأمور اليومية (وبشكلٍ جوهريّ الواجبات) التي تُسئم والدتي: شراء الحاجيات، المآدب، سير المنزل بالشكل الصحيح، أيّ زوجٍ من الأحذية تختار للذهاب إلى أبوستروف، كيف

تلبس هذا المساء للذهاب إلى ذاك العشاء، أيّ اتّجاهٍ تسلك للذهاب إلى أمكنة الاستجمام المُشمسة؟ بوصول بيغي، وجدت والدتي نفسها فجأة متحرِّرةً من كل ذلك. بيغي تُقرر كل شيء. أحياناً، تبدي بيغي طبعاً عاصفاً إلى درجةٍ قُصوى، وتتميّز بغريزةٍ مسيطرةٍ بشكلٍ مُطلَق. لا ريب في أن حدسها وحكمها السديد جداً على الأشخاص والأشياء، اللذين تفتقر إليهما والدتي، يُسبغان على علاقتهما تكامليّة تامة. بيغي تستشعر الناس في نفس الثانية التي تراهم فيها، وبهذا تُجنّب والدتي كل اللّقاءات غير المرغوب فيها. وإذ كانت تتمتع بطبع حاد كشفرة موسى، فإنها تطرد من المنزل النصّابين، والدجّالين، والانتهازيين، وصغار المروّجين، وكل أولئك الذين، لعلمهم بأن والدتي كريمة جداً، يأتون ليقرعوا بابنا. فتلجأ أحياناً إلى طبعها الحاد الشرس وأحياناً أخرى إلى أناقتها الطبيعية ولباقتها، من أجل إبعاد الطُفيليين ببضع كلمات، أو بعنف وصخب. وتحرص أيضاً على حماية والدتي من شياطينها الداخليّة، أولئك الذين يحاولون استجرارها نحو الإفراط كما تعلمون. عندما تركت والدتي شارع أليزيا في العام 1981، لتسكن في شارع شيرش-ميدي، نظّمت بيغي عملية الانتقال، ونسّقت الأعمال، وجهدت في أن يكون المنزل مُرحِّباً بوالدتي عند وصولها. في فترة الانتقال سكنت هذه الأخيرة في فندق، وعندما أصبح منزلها الجديد جاهزاً، أُخبِرت ودخلت إلى منزلها كأن شيئاً لم يكن. قيل لها: «غرفتك هنا، غرفة حمامك هناك، حاجيّاتك معلّقةٌ في هذه الخزانة...» منذ تلك الفترة بدأت بيغي تُمارس هيمنةً متزايدة على والدتي، وراحت تشغل مكانةً متزايدةً في الأهميّة. وبما أنها تتميّز بروح تملّكٍ مَرَضيّة مع صديقتها، لم تكن تقبل أو تتحمّل أن يُقترَبَ منها كثيراً، ولفترةٍ طويلة، ما عدا الأصدقاء الحميمين والعائلة. في العام 1981، أقامت بشكلٍ نهائي في شارع شيرش-ميدي وتسببت في طرد تيريزا وأوسكار اللذين كانا في خدمة والدتي منذ العام 1968. أكان ذلك شكلاً من أشكال الغيرة، أم هي طريقةٌ لتثبيت سلطتها؟ أجهل ذلك. وكذلك تسببت بطرد ماريلين ديتشري، تلك المرأة المنتمية إلى مصرف روتشيلد، والتي أخذت على عاتقها الاهتمام بأمورها المالية منذ عشرين عاماً، وأجبرتها على دفع ضرائبها، ومنعتها من ارتكاب ألف حماقةٍ وحماقة، مُجنّبةً إيّاها الكوارث الضريبية المحدقة بها. بدءاً من ذلك اليوم، استعادت والدتي دفتر الشيكات وبطاقة

الائتمان، وعادت فأصبحت مستقلّةً وتمكّنت من التصرّف بحرية بمالها. ومما لا شك فيه أن شلال المشاكل المالية الذي ستواجهه في سنيّ التسعينيّات كان منشؤه منذ تلك اللحظة.

بيغي روش، وهي ذات ذوقٍ لا غبار عليه على الإطلاق، كانت تعمل في تلك الفترة كمحرّرة أزياء، وكاتبة مقالات بالصفحة[1] للعديد من المجلات النسائية ومنها Elle (هي) وماري-كلير، وماري-فرانس، وفوغ Vogue. كانت ذات موهبةٍ حقيقية، وملكة طبيعية بالنسبة للموضة. فبإمكانها إنجاز أعاجيب بقطعة شريطٍ وخرقتين قديمتين. وتُلبِس تمثالَ عرضٍ بتميُّزٍ كبيرٍ، حتى إن غريتا غاربو[2] كانت ستبدو خادمة قميئة بالمقارنة معه. تكاد بيغي لا تعيش إلا من أجل الموضة. تقول عنها والدتي «إنها الشخص الوحيد الذي يستطيع، في السينما، تمييز شكل قبعة البطلة وانحناءة حذائها في اللحظة التي توشك فيها على تلقي طعنات خنجر وحشية.» وباستخدام موهبتها وسلطتها، أجرت بيغي إعادة نظر لمجموعة ملابس والدتي (التي بقيت، حتى تلك اللحظة، تلبس بطريقةٍ تقليديةٍ جداً) وحوّلتها إلى امرأةٍ أكثر رهافة وأكثر أناقة. لقد تسببت بصمة «بيغي روش» بتغيُّر هام لدى والدتي التي، حتى تلك اللحظة، لم تكن تُعلِّق أهمية كبيرة على مظهرها. وعندما تُرى عند بيفو Pivot، مثلاً، فقد تغيّر مظهرها وهندامها بشكلٍ جذري بدءاً من 1980. فكان هناك: ما قبل بيغي روش وما بعدها. حاز هذا التحوّل على إعجابنا الشديد لمعرفتنا بالكره الذي تكنّه والدتي للموضة بالذات، التي تعتبرها، مع ظاهرة المجلات النسائية، أشبه بالدكتاتوريّة والطُغيان على جيلٍ بأكمله من الفتيات الشابات، اللّواتي كان عليهنّ التقيُّد بنماذج جامدة، والتخلّي عن حُرّيتهنّ في طريقة مظهرهنّ والخضوع إلى صورةٍ لا تتطابق في معظم الأحيان مع شخصيتهن. ذات يوم عرضت والدتي على مديرة صحيفةٍ نسائية أن تؤلّف لها عدداً خاصاً، يتضمّن عكس ما يُقتَرح عادةً: كيف تكون المرأة خمولةً، عاطلةً عن العمل؟ كيف تصبح عجوزاً، بدينةً، قبيحةً، وكئيبةً، في خمسة عشر يوماً؟ مما جعل مُحرِّرة الصحيفة، التي تفتقر دون شك إلى روح الفكاهة،

1- أي أنها تتقاضي أجراً على كل مقال بحسب طوله

2- 1905-1990: بدأت كعارضة أزياء في بلدها السويد قبل أن تنتقل إلى هوليوود وتصبح من أشهر الممثلات وأجملهن في العالم. من أهم أفلامها آنا كارنينا.

تُصاب بالذهول. بكل بساطة، كانت والدتي تجد تلك النساء اللواتي يتبعن الموضة مُخيفات، يلبسْن كلّهنّ بنفس الطريقة، ويعِشن بالوكالة حياة نجمات تلك المجلات، وهنّ يحاولن التشبّه بهنّ. هذا النوع من السّعي الحثيث إلى التشبّه بالغير يُثير غيظها.

بدءاً من العام 1984، قررت بيغي التخلّي عن مهنتها كمحررة أزياء، لتصبح مصممة أزياء. ذوقها ومواهبها (وأعتقد أيضاً تشجيع والدتي وتحفيزها) دفعتها إلى الاعتقاد أنه يمكنها أن تصبح مُبدعة ملابس وإطلاق خطّ إنتاجها الخاص. ومن حظ بيغي، التي لديها الكثير من الأفكار الدقيقة، ولكنها لا تُتقن الرسم، أنه كان لها صديق هو جاك ديلاهاي، شابٌ ذو موهبةٍ كبيرة، وكان له في منتصف السبعينيات علامته الخاصة، ولكن تجارته انهارت بسبب عدم وجود إدارةٍ صارمة. باختصار انطلقت بيغي. وأصبح اسم «بيغي روش» علامة خط إنتاج ألبسة، وافتتحت مخزناً على الضفة اليسرى في شارع بريه-أو-كلير الذي سوف يصبح أكثر الشوارع أهميةً ورواجاً في حي سان جيرمان. طلبت من جاك ديلاهاي رسم عددٍ كبيرٍ من النماذج البسيطة، وسهلة اللّبس، والأنيقة معتمدة أساساً على الجيرزي، والصوف، والفانيلّة. كانت الألوان بسيطة، «ألوان أساسية» (أزرق ليلي، وأسود وبيج)، قطع غير قابلة للتشوّه، أو للاهتراء، أو لفوات الموضة، يمكن أن تُجمَّع كيفما اتفق. ولكن، على الرغم من أن حماسة بيغي كانت دون شائبة، ودعم والدتي كاملاً (إذ إنها لم تعد تظهر في الصور أو في التلفاز إلّا وهي تلبس أزياء بيغي روش، ولا تفوّت فرصةً لكيل المديح لأسلوب صديقتها في الصحافة)، فلم تكن أيّ منهما تمتلك الحد الأدنى من المعرفة بالأمور المادية، والمالية، والمحاسبية، المطلوبة لإقامة واستمرار شركة ألبسة جاهزة فاخرة في باريس. التقيت مؤخَّراً، وبمحض الصدفة الغريبة، أحد المحاسبين الذين واتتهم السعادة للاهتمام بشركة بيغي في تلك الفترة. وأقول «السعادة» لأنه احتفظ بذكرى لذيذة جداً عن اللامبالاة، والخفة، والمرح التي كان القليل من العملاء قادرين على تقديمها له، دون أي اهتمام بالاحترافية. كان يحدث أن تطلب بيغي، عن طريق الخطأ، كميّات من القماش أكثر بخمس أو عشر مرات من الكميّات اللازمة، وأن تنسى موعداً مع شارٍ هام، وأن تهمل مطالبات بعض المورّدين. أتخيّل أن والدتي قد موّلت بسخاءٍ كبير المجموعات الأربع أو الخمس التي

توالت في شارع شيرش-ميدي (فقد وضعت بيغي مشغل ابتكاراتها في المكتب الصغير في شقتنا) دون أن تبشّر مبيعات المخزن بما يشبه التوازن المالي بشكلٍ جدّي. تصرّفت والدتي بدافع الحنان، والصداقة، والاحترام، والحب لبيغي. وأعتقد أنها لم تكن تأمل أيضاً برؤية ثمرة مساعدتها تعود عليها تحت شكلٍ آخر سوى شكل حب بيغي غير المشروط. وأكرر ذلك، كانت بيغي صديقةً، عشيقةً، حاميةً، ناصحةً. وقد سرى بين هاتين المرأتين، مزيجٌ من الهوى، والحنان، والإعجاب المشترك، والامتنان المتبادل، والصداقة، والتواطؤ كما لم تعرفه والدتي من قبل، لا قبلها ولا بعدها على ما أذكر. مع بيغي، صارت تشعر كأنها قد تخلّصت وخفّفت عنها كل ضغوط الحياة العادية التي تجعلها تغوص في مهاوي الاضطراب والتشوّش. ما كانت تُعير اهتماماً كبيراً لكون بيغي قد كلّفتها الكثير من المال بإنتاجها للملابس، وبمخزنها، إذ إنه لم يكن هناك دليلٌ على الحب أجمل بالنسبة لوالدتي من تلك الانطلاقة ballon de légèreté [1]، وقد فهمت بيغي ذلك تماماً. لقد أُخِذ عليها كثيراً نزعتها التملكيّة المفرطة تجاه والدتي، ذلك السلوك الأناني والإقصائي، ولكن لم يكن بالإمكان أفضل مما كان. فبيغي ذات طبع عنيد جداً. كانت بيغي كجلمود صخر وهذه الصخرة تحمي والدتي من كل شيء (تقريباً).

وعلى الرغم من كونهما قريبتين جداً إحداهما من الأخرى، ومنذ زمنٍ طويل، وعلى الرغم من أن بيغي أصبحت سندها، وموضع أمانها، وحارسها، وأفضل درعٍ لديها، كان يحدث أحياناً لوالدتي المحافظة على بعض الحدود بينها وبين الغير. إذ تعتبر في الواقع أن هناك صداقات لا يمكن تشاركها، حتى مع بيغي. كانت تشعر بالحاجة إلى الابتعاد والهروب لبعض الوقت، لأن تعود إلى طريق الفرار من المدرسة، والتصرف بما يشبه اللاشرعية، كما لو أنها تخون بيغي، تمشياً مع روح الحرية والخفة التي كانت تحب كثيراً عطرها. البعض من صديقاتها، على غِرار فلورانس مالرو ونيكول فيزنياك، وشارلوت آيو، وبعض الأخريات كانت لديهن علاقة صداقة حصرية معها، وترغب والدتي بأن تكون

1- استخدم الكاتب هذه العبارة المستوحاة من رقص الباليه، وتعني الحركة التي ينفذها الراقص (أو الراقصة) حين يقفز إلى الأعلى فاتحاً ساقيه وكأنه يطير في الهواء متحدياً قوى الجاذبية ويعود إلى الأرض ليقفز من جديد بنفس الخفة إلى نقطة أعلى.

حرةً تماماً من أجلهنّ. ومن تحصيل حاصل، أنها لم تكن ترى فرانسوا ميتيران أو جان-بول سارتر إلا في جلساتٍ منفردة. وعندما تعود من «انفلاتها» ذاك، تجد بيغي حاضرة على الدوام. بيغي لا تقول أيّ شيء، لا تطلب منها أي شيء، لأنها تعرف كم أن هذه الحاجة إلى الحرية عزيزة على قلب والدتي، وكم أنها لا يُستغنى عنها من أجل توازنها، وحسن مزاجها. لقد أضاءت بيغي من عام 1975 إلى 1988 حياة والدتي، فأنستها السنوات القاتمة، سنوات رحيل باولا والانفصال عن إيلكه. انقشاعة دامت أكثر من عقدٍ من الزمن، قبل العاصفة الجديدة.

سيصطبغ العام 1989 بحدَثين دراميين بدأت بهما فترةٌ طويلة لقرابة عشر سنوات، ستكون دون شك الأكثر قتامةً والأكثر قساوةً على والدتي. وعندما أعود اليوم إلى التفكير بها، أي بعد أكثر من عشرين عاماً، أفهم أنها في تلك الفترة فقدت أعز شيءٍ عليها، وأقرب شيء، كلّ ما كان يعطيها ما يكفي من القوة ومن التوازن للحياة. في شهر أغسطس فقدت أخاها من جرّاء انصمامٍ دماغيّ. كان جاك شريكها، وموضع سرّها، ورفيقها في الأوقات كافةً. تشاركتْ مع جاك كل شيء: حب المرح، والميل إلى الضحك، والميل نفسه إلى إنفاق المال، والميل إلى السيارات السريعة. ولم ينفصلا إلا خلال مغامراتهما الخاصة بكلٍ منهما، ليعودا إلى اللقاء بشكلٍ أفضل بعدها، كما كان يُقال. ثم في شهر أكتوبر رحلت والدتها، جدتي، ثم كلبها الصغير بانكو، وفي العام التالي كان رحيل والدي، ثم في 1991 سيأتي دور بيغي.

ففي بداية 1990، بدأت بيغي تشعر بالألم، وراحت تتشكّى من انقطاع شهيّتها، ومن إصابتها بالغثيان بشكلٍ دائم. في بداية الأمر، لم نرَ أسباباً خاصة لنأخذ الأمر على محمل القلق. كانت غالباً تميل إلى الشرب، بإفراط أحياناً، وتحب بشكلٍ خاص الشمبانيا. اعتقدنا أن حالتها ناتجةٌ عن إفراطها خلال فترة عيد الميلاد، ورأس السنة. أخضعت نفسها إلى حميةٍ عن الشراب إلا أنها لم تأتِ بنتيجة. تفاقمت نوبات غثيانها، ولم تعد سحنتها طبيعية. قسماتها توحي بالإرهاق، وبشرتها شاحبة مُخضرّة. تتشكّى من التعب، وتلازم الفراش خلال النهار. أُجريت لها مجموعةٌ من الفحوص من أجل تفسير هذه الحالة التي لم نكن نعهدها فيها. كانت بيغي شخصاً حيوياً جداً، دائمة المرح، ومليئة بالحماسة. انتظرنا النتائج طيلة الأسبوع بكامله، لم أعد أعرف، وفي ذلك اليوم،

تفرّغت والدتي، التي كانت قلقة رغم كل شيء، من أجل الذهاب ولقاء بيغي في مخبر التحاليل الطبية. كانتا قد اتّفقتا على الذهاب بعد ذلك للغداء معاً. وصلت والدتي إلى المخبر في الموعد المحدَّد، ولكن بيغي تأخّرت. وبما أنني أعرف والدتي التي لابدّ أنها كانت تغلي من نفاد صبرها، أتخيّل أنها ادّعت بأنها صديقتها، أو قريبتها، وتمكّنت من جعلهم يسلّمونها نتائج التحاليل. وعندما أحاطت علماً بها، أعتقد أنها تخوّفت في الحال من شيء خطِر جداً. فطلبت بعض التفسيرات، استنتجت منها أن بيغي مُصابة بسرطان الكبد، في مرحلةٍ متقدّمة، وأنه لم يبقَ لها في هذه الحياة إلا ستة أو سبعة أشهر على أفضل احتمال. وفي هذه اللحظة، وصلت بيغي إلى المخبر، فأخفت والدتي بسرعةٍ كبيرة النتائج في حقيبتها وقالت للمخبري الموجود إذا خرجَتْ من هذا المخبر أيّة كلمة عن حقيقة حالة بيغي روش فإنها ستحاسبهم شخصياً. وهكذا، منذ هذه الثانية، التُزِم بالصمت التام حول سرطان بيغي وبقي كذلك حتى النهاية. لم تعرف بيغي قط أنها على حافة الموت. أو في جميع الأحوال، جعلتنا نعتقد جميعنا أنها تصدّق ما كنا نريدُها تصديقه. لا أعرف كيف، ولا أين، وجدت والدتي في ذلك النهار، في ذلك المخبر، الطاقة والقوة لملاقاة بيغي بابتسامةٍ عريضة، لتُعلِن لها أنها غير مصابة إلا بالتهاب بنكرياس، وأن كل ذلك دون خطورة، وأنها ستتعافى بعد قليل. كنت أكنُّ وما زلت أكنّ لوالدتي إعجاباً خاصاً إذ إنها خلال كل تلك الفترة من مرض بيغي لم تُظهر أدنى علامةٍ على اليأس والقنوط أمامها. وعندما خرجتا من المخبر، ذهبتا معاً للغداء، متأبّطتين الواحدة ذراع الأخرى. وطيلة الأشهر السبعة التي تلت، عملت والدتي جهدها (كما عملنا نحن جميعاً)، بحيث لا تقع بيغي فريسة الخوف.

من مارس إلى أكتوبر 1991، لم تعِش والدتي إلا من أجل صديقتها. همّها الوحيد كان ألّا تتألّم بيغي إلّا بأقلّ قدر ممكن، وناضلت بكل قواها في سبيل ذلك. حتى إننا في نهاية الربيع، اصطحبنا بيغي عند أحد السّحَرة، وهو معالج مشعوذ يسكن في جادة لا موبيت. رغم كل هذا، استمرّت والدتي في إخفاء الحقيقة عن بيغي دون تخاذلٍ، دون أن تُبدي أدنى يأس. وكانت تؤكّد لها باستمرار أن ما يجعلها تتألّم ليس سوى التهاب البنكرياس المزعوم. وأعتقد أن بيغي استمرّت بالتظاهر بتصديقها. من ناحيتي، وبما أنني أعرف بيغي

وغريزتها المتميّزة جداً، التي لا تُخطئ، تلك الطريقة الخاصة التي تستخدمها في فهم الحياة، كنت متأكّداً من أنها عرفت منذ البداية أن أيامها معدودة، ولكنها لم ترغب في تكدير والدتي أو إحزانها. حتى وهي مريضة، لم تكن تهتم إلا بالمحافظة على والدتي. بقينا إلى قربها أكثر قدر ممكن، واصطحبتها والدتي إلى الريف، إلى فرديرون، على مقربة من باريس، خلال ذلك الصيف الأخير من عام 1991، ولكن بيغي صارت تلازم الفراش أكثر فأكثر، تُصارع آلاماً عنيفةً جداً. لم تعد تعبأ بأيّ شيءٍ ما خلا، وبالكاد، وجود والدتي. ثم، إذ شعرت هذه الأخيرة أنه قد أُسقِط في يدها، اصطحبتها منذ نهاية شهر أغسطس إلى كاجار. في تلك الفترة، لم أكن في اللّوت، ولكنني علمت أن الوضع يتدهور بسرعةٍ كبيرة. رغم أن بيغي المسكينة كانت تتلقى جرعاتٍ كبيرة من المورفين، فقد أقعدتها الآلام المبرّحة، إلى درجة أن الوضع أصبح بسرعة غير محتملٍ، فقرّرت والدتي إعادتها إلى باريس. عندها، استأجرت طائرة مروحية لتُجنِّب بيغي الخضخضة في سيارة الإسعاف على طرقات اللوت المتعرِّجة. وأعتقد أنها قد أُدخِلت إلى المشفى منذ وصولها إلى بروسّيه حيث توفّيت بعد ذلك ببضعة أيام في بداية شهر أكتوبر.

عندما رحلت بيغي، رحل معها جزءٌ من والدتي، اختفى، ولم يعُد على الإطلاق. على الرغم من أن والدتي كانت على قدرٍ كبيرٍ من التحفّظ، ومن الخفَر، وتبذل كل جهدها لكي لا تُظهر إلى أية درجة يمكن أن تنفعل بالأحداث، بدت متأثّرة في الصميم. إن غياب بيغي أكثر من غياب أخيها ووالدتها وزوجها السابق جعل والدتي تترنّح ولم تعُد تقف على رجليها، اللّهمّ إلا إذا كان ذلك نتيجة تراكم كل تلك التمزّقات. فقدت حب، ورعاية، وحنان، وحضور، وصداقة، ومرح، وجرأة تلك المرأة شبه العجائبية التي لم تعُد تستطيع استعادتها، وكانت تعرف ذلك. بقيت والدتي حاضرة بالنسبة إلينا، حنوناً، حريصة كما كانت على الدوام، ولكن منذ تلك اللحظة حدث لديها فراغٌ شاسعٌ لم تكن قادرة على إخفائه، أو تبديده. فلا أنا، ولا أصدقاؤها المقرّبون جداً، كنا قادرين على تسكين يأسها، إذ إن تلك العلاقة التي بنَتها مع بيغي تضمّنت الكثير الكثير من الأشياء تتخطّى إلى حدٍّ بعيد صداقتهما وحميميّتهما. منذ ذلك الوقت، أصبحت هذه الأشياء جزءاً منها. وبغياب بيغي، كما لو أن والدتي مُزِّقت إلى أشلاء، وانتزعت منها قطع وهي حيّة.

-14-

بفضل جاك ديلاهاي، الذي كان مُقرَّباً جداً من بيغي، ولم يعد يترك والدتي قيد أُنملة، أعتقد أننا استطعنا تجنيبها أفعالاً مجنونة كانت مستعدّة لارتكابها. وقد حاولت أن تستجرّه إليها. بعد رحيل بيغي، لم يعد هناك مكابح لإفراطها، وقدّمت لها فترة اليأس التي كانت تمرّ بها، على ما يبدو لي، ذرائع جديدة للمضيّ قدُماً في استهلاكها لبعض المواد. لم يعد يهمّها أيّ شيءٍ بشكلٍ حقيقي، ولا يؤثّر فيها. بدت غير مبالية تقريباً بأيّ شيء. وكما لو أن كل تلك المآسي لم تكن تكفي، ضُبِطَ مروّج المخدّرات (الذي اشتُهر عنه أنه يموِّل كل الملاهي) وبحوزته دفتر عناوين يتضمّن أسماء وأرقام هواتف كل الأشخاص الذين يُصّرِف بضاعته لديهم، ومنهم جاك ديلاهاي، الذي كان في تلك الفترة يسكن مع والدتي، واعتاد أن يتموَّن من أجلها. وهكذا، ذات مساء، حضرت الشرطة إلى شارع شيرش-ميدي ومعهم كلابٌ تشمَّمت الشقة بأكملها. لم تكن تلك المرة الأولى التي تعرّضت فيها والدتي لمداهمةٍ من قِبَل الشرطة قبل الانتخابات بالضبط، مما ينتج عنه استرسال وسائل الإعلام واستغلالها لمثل تلك المعلومات بشكلٍ مفرط، بل هي المرة الرابعة. فهل لهذا الأمر علاقة أيضاً بالصداقة والاحترام اللّذين تُكنّهما لفرانسوا ميتيران؟

خلال هذه المداهمة الأخيرة، لم يكن لدى والدتي سوى كميةٍ قليلةٍ من المخدّر. ولكنها كافية لتُعتبَر على أنها تقوم بنقل المخدرات. وعملية النقل، بحسب القانون، مماثلة لعملية البيع. ومن غير المعقول التفكير بأن والدتي تقوم بالمتاجَرة بهذه المواد، كما أنه من غير المعقول التفكير أنها قامت بترويجها. كانت تُطالِب، في المقابل، بحقِّها في إفناء ذاتها لو أنها

رغبت بذلك. «حتى ولو لم يكن ذلك بالمِثال الذي يُتّخذُ قدوةً» كما كانت تقول. اقتيدت إذن والدتي، ثم أُدينت (رغم أنها نفت عن ذاتها تهمة نقل مواد غير مشروعة خارج نطاق غرفتها ومكتبها). وحُكِم عليها بدفع غرامةٍ كبيرة. بينما سُجن جاك، الذي كان يتموَّن لها بشكلٍ منتظَم، وأمضى أكثر من ستة أشهر في سجن فلوري[1]. وعلى مدى الاستجوابات اعترف جاك ديلاهاي لرجال الشرطة بأنه لا يمتلك الوسائل المالية الكافية لشِراء المخدرات بذلك الشكل المنتظَم، وأن والدتي كانت تموّله «للقيام بالمُشتريات». تسبب هذا التصريح بالبرود في علاقتهما، إذ اعتبرت والدتي اعتراف جاك على أنه خيانة. أما هو فلم يكن يسعى إلّا إلى تخفيف عقوبة السجن التي لم يكن يتوقّعها، والتي أصابته بالفزع الشديد. ومهما كان، فقدت والدتي من جديد صديقاً، ووجدت نفسها وحيدة. وأصبحت شقة شارع شيرش-ميدي، التي كانت فيما مضى منزلاً مرِحاً جداً، وحيوياً جداً، ودافئاً جداً في بداياته، أصبحت مكاناً مُنفراً، قاتماً، ومشحوناً بالحزن، حتى إن والدتي لم تعد تفكر إلا في الابتعاد عنه. في حوالَي ربيع أو صيف 1992، لم أعد أعلم تماماً، وجدت شقةً في شارع الجامعة. شقة كبيرة ومريحة، ولكن شتّان ما بينها وبين سحر الأماكن التي سبق أن سكنت فيها. وأعتقد أيضاً أن الصعوبات المادية بدأت تتراكم، مرتبطةً بأعمالها، وبالديون التي لا شك قد تركتها لها بيغي، والضرائب غير المُسدّدة، والمديونية التي أصبحت بعد ذلك كبيرة بحيث لا يُمكن لسُلفة ناشر وحدها أن تغطّيها.

في الأشهر التي سبقت تلك الأحداث المأساوية، كانت والدتي قد التقت بأندريه غيلفي المُسمَّى «ديديه لا ساردين»[2] خلال حفل عشاءٍ في باريس. وهذا الأخير أصرَّ بشكلٍ مُطلق على التعبير لها عن العرفان بالجميل بسبب مكرُمةٍ قامت بها تجاهه، قبل ذلك بقُرابة خمسٍ وثلاثين عاماً، حين كان غيلفي شغوفاً بسباق السيارات. وبحسب ما ادّعاه، أتاحت له والدتي التي كانت قد اشترت سيارته عن

1- أكبر سجن في أوروبا ويتسع لقرابة 2900 سجين.

2- 1919-2016: رجل أعمال فرنسي من أصل كورسيكي. اهتم في بداياته بسباق السيارات ثم عمل في تجارة السردين ومن هنا جاء لقبه. اتصفت معظم أعماله بأساليبه الملتوية. وهو عضو في محفل الشرق الكبير الماسوني في باريس.

طريق أميديه غورديني، الالتقاء بشخصٍ لولاه لما استطاع الوصول إلى نجاحٍ فائقٍ جداً في الأعمال. وعلى هذا اعتبر أندريه غيلفي نفسه مديناً لوالدتي، وأراد بعد كل هذا الوقت شكرها (إذ إن الوقت يبقى سانحاً دائماً). وبخصوص الشكر، اتّضح أن هدف غيلفي الحقيقي، الذي كان على علمٍ بصداقة والدتي مع فرانسوا ميتيران، هو الحصول على مقابلةٍ في الإليزيه. كان ينوي، مع Elf، الشركة التي يعمل وسيطاً لها، إطلاق استثمار مكامن غاز وبترول في أوزبكستان، ذلك البلد الآسيوي الصغير في آسيا الوسطى، الذي يُسيطر عليه رئيسه إسلام كَريموف بيدٍ من حديد. ولكن فرنسا رفضت ذلك: أوزبكستان جمهورية صغيرة فتية جداً، منفصلة لتوّها عن الاتحاد السوفيتي، وكانت منظّماتها غير الحكومية تتبنّى بشكلٍ منتظَم ممارسات مخلة بالديمقراطية، واللجوء إلى التعذيب. وكان أندريه غيلفي يأمل، عن طريق استخدام علاقة والدتي المميزة مع الرئيس، أن يتمكن من التأثير على موقف فرنسا في هذا الملف.

ويبدو أن غيلفي كان أيضاً على علمٍ بحال منزل إيكموفيل المُتداعي، وهذا المنزل والحق يُقال لم يخضع لإصلاحاتٍ هامة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وهكذا وصل به الأمر إلى الاقتراح على والدتي من أجل شكرها عن تلك الخدمة المفترضة، التي يزعم أنها قدّمتها له، تمويل أعمال هامّة كبيرة لإعادة منزل النورماندي إلى ما كان عليه، واعداً بمبلغٍ كبير من المال يُدفَع على شكل عمولة إذا ما وُقِّع عقد Elf مع الجمهورية الصغيرة. حينها أخذت والدتي أجمل ريشاتها، وكتبت رسالةً لصديقها فرانسوا ميتيران، تطلب منه فيها أن يتكرّم بالتوسّط من أجله. للأسف، لم يرُق ذلك لرئيس الجمهورية الذي ردَّ بلطفٍ على والدتي أنه لم يعرف، من قبل، أنها يمكن أن تؤدي دور ماتا هاري. وأفهمها بأنها تتدخّل في ما لا يعنيها. مع ذلك بُدِء بتلك الأعمال، ولكنها استغرقت وقتاً طويلاً للإقلاع، لدرجة أنه لم يحصل أيّ شيء على الإطلاق خلال تلك الأسابيع الطويلة بين خريف 1990 وربيع 1991. وحتى إننا اعتقدنا أخيراً أن كل ذلك لم يكن سوى مزحة سمجة، وأن الهدف من كل ذلك التملّق السخيف، هو التقرُّب من والدتي واستغلالها. وأخيراً في شهر مارس 1991، بدأ العمّال بالعمل وحينها، أكان ذلك حادثاً عرضياً أم أنه سهوٌ مقصود (لن نعرف ذلك على الإطلاق)، ترك أحد السبّاكين حِملاجه تحت الدرج خلال

استراحة الغداء. فاحترق قصر بروي، منزلنا الرائع الجمال، خلال ساعتين غير تاركٍ سوى الطابقين اللذين يضمهما المنزل وقد التهمتهما النار، وثقباً مفتوحاً في السقف. اتصل أحدهم بوالدتي ليقول لها إن بيتها أكلته النيران، في اللحظة التي كانت تعود فيها من غدائها مع بيغي، وموعدها في المخبر حيث علمت أن صديقتها على حافة الموت. كنت لأضحّي بكل شيء لو أمكنني إقصاء والدتي عن مثل هذا العالم في ذلك النهار!

بفضل اهتمام وعناية ماريلين ديتشري، الوكيلة المالية السابقة لوالدتي، أفاد منزل النورماندي من ضمانٍ جيّدٍ جداً. وهذا ما أتاح لمؤسسات البناء قبض المبالغ، وإعادة البدء بالأعمال. ولكن انقضى، من جديد، بعض الوقت قبل أن تُعاود الإصلاحات مسيرتها. بضعة أشهر طويلة، لدرجة أننا اعتقدنا، من جديد، أن كل ذلك ليس سوى عملية مُدبَّرة بشكلٍ مصطنع، من شأنها السماح للبعض بقبض أموال الضمان والاختفاء بها. أصرّت والدتي إصراراً مطلقاً على أن يتم ترميم منزلنا بشكلٍ مماثلٍ لسابقه، وضمن البساطة الأصلية، معارضةً بذلك مشاريع التجديد الفخمة التي كان قد صممها المهندسون المعماريون ورؤساء الورشات. وهكذا اتُّفِق على أن لا تُركَّب حنفيّات مُذهَّبة، ولا أنظمة تكييف، وعدم تنفيذ أية أعمال أخرى من شأنها أن تشوِّه الطابع الساحر لذلك المكان. وعلى هذا ليس من المفروض إنفاق مبالغ فائقة للعادة. مع ذلك، بدأ البعض، وأنا منهم، يتساءلون حول النتائج والمخاطر (وبالأخص المخاطر الضريبية) لمثل هذه الأعمال على والدتي. لم نكن نرغب بإثارة مخاوفها مباشرةً، فقد كانت تعيش في ذلك الوقت فترةً حزينةً جداً مع المرض الذي كان يتآكل بيغي كل يوم. ومن جهة أخرى، كانت في منتهى السعادة لرؤية منزلها وقد أُنقِذ. احترقت الملكية في مارس 1991، ولم تُقلِع الأعمال بشكلٍ حقيقي، على ما يبدو لي، إلا في صيف 1992، أي بعد الحريق بأكثر من سنة. في بداية صيف 1993، تلقّت والدتي أيضاً ضربة جديدة من القدر برحيل جاك شازو، صديقها المخلص، الذي تعرفه منذ زمنٍ طويل، وتحبه بعاطفةٍ صادقة، مثل برنار فرانك، أو والدي. بالإضافة إلى هذه المِحن، أُضيفَت مشاكل صحيّة، فقد سقطت وكسرت وركها، ولم ينجح علاجها كما ينبغي. أخيراً في مايو 1995، عاد اليمين إلى السلطة بانتخاب جاك شيراك رئيساً للجمهورية.

-15-

تزامنت عودة الحكومة اليمينية بشكلٍ شبه آلي مع تعرّض والدتي إلى إزعاجاتٍ هائلة. لن يعود بإمكانها الاستفادة من حماية فرانسوا ميتيران العطوفة الذي، على ما أعتقد، أتاح تأخير بعض الاستحقاقات، وبشكلٍ خاص بعض الملاحقات ضدّها. وأودّ التأكيد على أن هذا الأخير لم يقُم سوى بتأخير بعض الإزعاجات التي كانت على وشك أن تنهال عليها، وأنها في أي حال من الأحوال لم تستفد من أية حُظوة أو من أيّة امتيازات. في الأسابيع التي تلت تولّي جاك شيراك لمنصبه في الإليزيه، خلال صيف 1995، أصبحنا بشكلٍ *تلقائي* جداً، أنا ووالدتي وبعض الأصدقاء، هدفاً للرقابةِ الضريبية. بدت الإجراءات مستعجَلة جداً حيث لم يكن هناك أدنى شك أنها قد انطلقت في نفس اللحظة التي غادر فيها فرانسوا ميتيران السلطة. بالإضافة إلى الأعمال، وبشكلٍ خاص قضيّة Elf التي تورّطت فيها رُغماً عنها بكل تأكيد، والإدانات في قضايا المخدرات، كان من الواضح جداً أن هناك من يريد أن يجعلها تدفع ثمن كونها قد أعلنت، وبشكلٍ صريحٍ جداً، وخلال الولايتين السبعيّتين، صداقتها وإعجابها بالرئيس السابق. وإذا ما تخطّينا أفكار وقناعات فرانسوا ميتيران (التي كانت تشاركه فيها)، كان هناك الإنسان الذي يحوز على إعجابها، والذي تحترمه من أجل مزاياه الجوهرية كإنسان؛ إنها لم تكن لتدعم أحداً على الإطلاق بكل تلك القوة، من أجل أفكاره، ولا شيء غير الأفكار.

ضمن إطار الملاحقة الضريبية التي تعرّضت لها والدتي، لم يطُل الأمر بالمفتشين حتى بدؤوا يهتمّون بمنزل النورماندي، ويتساءلون حول موضوع خضوع هذا البيت لأعمال ترميم ضخمة. سألوا والدتي حول منشأ هذه

التجديدات، وطلبوا منها تبرير أصل الأموال التي أتاحت تمويلها. وعلى هذا، أتخيّل أنها واجهت صعوبةً كبيرة في إقناع مأموري الضريبة أن هذه الأعمال كانت في الواقع *هديّة*، على سبيل الشّكر عن تدخّلها لدى رئيس الدولة، أو أنها منحة من شخصٍ كان يشعر أنه مدين لها بشيءٍ ما كانت قد نسيته، وذلك بعد مُضي خمس وثلاثين عاماً. طُلب من والدتي إبراز شهاداتٍ لم تكن تملكها (لأن كل هذا يدخل ضمن إطار تسوية ودية)، حتى إنها اضطرّت إلى الطلب من المؤسسات إثباتات عن الأعمال المنفَّذة. ولكن، عندما حاولنا إيجاد هذه الشركات من أجل الحصول على الفواتير، بدا لنا الأمر كأننا نلاحق أشباحاً: فمعظم هذه الشركات اختفى بشكلٍ غامض، أو أُغلِق دون ترك أي أثر. ومن أجل تسوية كل شيء، أظهرت الإثباتات التي تمكنت أخيراً من الحصول عليها أن المبالغ قد سُجّلَت بفواتير أعلى من القيمة الحقيقية. أخيراً أقرّت والدتي بالواقع: لقد وقعت ضحية عصابةٍ من اللصوص، متلبِّسين بلباس المانحين الكُرماء، استخدموها، واستخدموا علاقاتها مع ميتيران، واستخدموا أعمال الترميم في بيتها في النورماندي، لتبييض أموالهم. ولكن كل تلك التبريرات لم تكن لتُجدي تجاه الدائرة الضريبية التي كانت، من جهتها، لا تنفكُّ تزيد من ضغطها. أخيراً توجّب إحضار الخُبراء إلى إيكموفيل من أجل تقدير القيمة الحقيقية للأعمال المُنفذَة، والبرهان على أنها كانت أدنى بكثير مما ادُّعيَ. في نهاية المطاف، حُكم على والدتي بأنها اختلست مبالغَ لم يعلم أحد، ولا حتّى هي، إن كانت قد استلمتها حقاً أم لا. قيل إنها استفادت، بالإضافة إلى الأموال المخصصة للأعمال، من مبلغٍ سائل أودِعَ في حسابٍ في سويسرا. ولكن في اليوم الذي ذهبت فيه إلى جنيف برفقة سكرتيرتها من أجل استعادة الأموال، وجدت الحساب، الذي كان عليه توقيع شخصٍ آخر، فارغاً، ومهما قيل، أعتقد أنها لم تقبض قط ذلك المال الغامض، لأنها في تلك الفترة كانت تواجه مشاكل مالية ضخمة، وأن ذلك المبلغ من شأنه، لو أنها قبضته، أن يُتيح لها تسوية الكثير من مشاكلها. وهذا ما لم يحصل. ولم تتغيّر طريقة حياتها التي تقلّصت بشكلٍ كبير، ولم تبدأ أيضاً بتوزيع الهدايا حولها. أخيراً كل ذلك لم يكن من شيمها. وعلى الرغم من أن والدتي اعتُبرت متلافاً وخفيفةً، فإنها

تكره ترتيب الديون عليها، ولا تحب الشعور بأنها مدينة لأحد. علماً بأنّها، خلال كل تلك الفترة لم تعُد تدفع الإيجار في شارع الجامعة وهذا ما يُثبت تماماً أنه لم يعد لديها مالٌ لتعيش به. ولم أعلم بهذا الأمر إلّا بعد انقضاء عشر سنوات، أي في العام 2005.

في بداية كل تلك القضية، وعندما اعتقدَتْ أنها ستقبض الملايين من الاستثمار في الغاز الأوزبكي، لم تُخفِ والدتي حماستها: أعلنت لنا بلهجة المنتصر أننا سنكون كلنا في مأمنٍ من الحاجة ولفترةٍ طويلة. وراحت تفكر بحفلاتٍ كبيرة، وهدايا، ورحلات تصطحب فيها كل أصدقائها. ولا شك في أنها تخيّلت الحصول على لوحاتٍ وجواد سباق. ولكن بما أن الأمور أخذت مجرىً مختلفاً، وعندما حشرت العدالة أنفها في هذا الملف، واشتهرت القضية فجأة باسم «قضية Elf»، توقفت عن الكلام معنا عن الأمر لحرصها، دون شك، على تجنيبنا الأخبار السيئة. حينها، أصبحت كل تلك القصة كما قالت خلال مقابلاتها الأخيرة: «مؤامرة غير معقولة لا أفقه فيها شيئاً.» هؤلاء الأشخاص الذين جرفوها في هذه المغامرة، والذين لا أعلم اليوم إذا ما كانت نواياهم حميدة كما كانوا يدّعون، سرّعوا في انهيار والدتي الذي كان قد بدأ قبل ذلك بست سنوات بموت بيغي، وموت أصدقائها، وكسر وركها. والدتي التي كانت تبدو كأنها قد تأقلمت مع هذه المآسي، أهملت بسرعة النواحي المحسوسة في تلك «القضية» التي أصبحت الآن تتجاوز قدرتها بشكلٍ كلّي بسبب تعقيدها والمضايقات التي راحت تتسبب لها بها، بعد أن بدت لها في البداية مسلية نوعاً ما. لا شك كان من المفيد والمريح لها أنها تناست تلك القصة القذرة التي جعلتها تخسر كلّ شيء (فقد وجدت نفسها دون فرنكٍ واحد تعيش به، وأدركت أن الصديق الذي وضعها في هذه القضية قد خانها). ولكنّ تجاهلها للإدارة الضريبية (التي أصبحت منذ الآن فصاعداً مدينةً لها بمبالغ كبيرة) بدا أمراً مزعجاً إلى حدٍّ بعيد. فالدائرة الضريبية لن تغفر لها صمتها الذي اعتبرته من قبيل الغطرسة والازدراء.

-16-

كان يحدث لوالدتي أن تقع فريسة لحظاتٍ من الهياج ونفاد الصبر، لحظات تبدو فيها كما لو أنها محاصرةٌ داخلياً. في تلك الفترات، لم يكن بوسعنا فعل أي شيءٍ من أجل إراحتها. كنا نعلم أن الأمر سينتهي بنا إلى استدعاء طبيبٍ يعطيها مسكناً قوياً جداً من أجل تهدئتها. لم تكن بحاجةٍ عنيفةٍ جداً إلى مخدراتها غير المشروعة، بل لأدويةٍ مسكّنة للألم، أدويةٍ أعطيت لها بموجب وصفة طبية. كانت تلك اللحظات مخيفةً جداً بالنسبة إليها أحياناً حتى صرنا نعتقد أنّ تخوّفها من حدوث الألم يتسبب لها بعذاب لا يقل عن الألم نفسه. كانت فكرة الألم ماثلة لديها لدرجة أنها صارت تُغطّي على الألم بحد ذاته. وفي تلك الأيام، يضطر أوسكار، سائقنا، إلى الذهاب بسرعة لإحضار علاجٍ من الصيدلية في أواخر فترة العصر. أو يتوجب عليَّ، بأيّ شكلٍ من الأشكال، إيجاد سجائرها «Kool molles» في منتصف الليل عبر شوارع باريس. تعكس هذه النزوات كل قنوطها، وتخوّفها، وعجزها عن ملء ذلك الفراغ الذي كان أحياناً، وبالتأكيد، وهمياً كما سبق أن قلت. كانت مُرتعبةً من فكرة أنها «طريدة اللهب»، أن تُجابهَ ألماً، وتواجه الوحدة. وتفعل كل شيءٍ لكي لا يحصل ذلك. فصار لزاماً علينا تلبية حاجاتها بأية طريقةٍ كانت. وحينها كان يضطر أوسكار، وهو يشعر بألمٍ مميتٍ في قرارة نفسه، إلى الذهاب لجلب مادةٍ كان يعرف أنه، على الأغلب، لن يحصل عليها، لكونه لا يمتلك الأرومة (فقد سبق أن استخدمها)، وهي بطاقة الدفتر المرافق للوصفة. كان عليه اللجوء إلى بعض الحيل، أو العودة إلى مشاغل الأدوية، أو أن لكنته الأرجنتينية القويّة قد تُسهّل التعرّف عليه، مما قد يعفيه من إبراز وصفةٍ باسمه. أو أنه يعود إلى تلك الصيدليات التي استُقبِل فيها بشكلٍ

لطيف. كان عليه اختراع قصصٍ خيالية، أو ذكر اسم والدتي، وإظهار أكبر قدرٍ من الإرهاق لإقناع الصيدلاني بتزويده بالمواد المطلوبة. إذ ليس وارداً أن نعود، أنا أو أوسكار، مرتبكين خاليّ الوفاض من «صيدنا» الباريسي. ففي مثل هذه الحالة، سنُضطرُّ إلى مواجهة لومها الأشد مرارةً، والأسى الأشد عنفاً وهذا، حين يصدر عن والدتي، لا أحد يتمنّاه. وأحياناً أيضاً، في أثناء ذلك، قد يتغيّر مزاجها بشكلٍ مفاجئ، وهذا كافٍ لكي يُنسى كل شيء. فلا يعود من المهم كثيراً أن أعود بالشيء المطلوب. وعندما أعود أحياناً وإمارات الإنهاك بادية عليّ من شدّة البحث في كل مكان تبادرني، طبعاً، بالشكر. ولكن تكون الحالة المتأزمة قد زالت وخطورة الموقف تبدّدت.

أتذكّر أحد تلك الأدوية. إنه الفورتال، وهو مسكّن ألم شديد ومن خصائصه أنه مادةٌ مُنشّطة. لم يعد هذا الدواء متوفراً في يومنا هذا، ولكن في تلك الفترة كان مُدرجاً على ما يُسمّى القائمة «B»، قائمة المواد المُخدّرة (بينما خصصت القائمة «A» للمواد السميّة، والقائمة «C» للمواد الخطِرة). كان الفورتال مصنَّفاً «B» إذ إن تعاطيه يؤدي إلى الاعتياد. ولكن لو كنت أحد أولئك الذين يضعون مثل هذه التصنيفات لأدرجته ضمن A, B, C إذ إنني أعتقد أنه يجمع بين تلك الخصائص كلها: سُمّي ومخدّر وخطِر. خلال فترة سكننا في شارع أليزيا، كان فريق نجدة الأطباء يصل أحياناً في الليل ليُهدِّئ من آلام والدتي (وهي أحياناً آلام مزعومة، فحتى حين نكون بالقرب منها، يحدث لها أن تشعر بأنها هشّة، ضعيفة، لدرجة كافية لجعلها بحاجة إلى أن يُطمئنها شخصٌ غريب). كان هؤلاء الأطباء يتصرفون دائماً بلُطف وحسن التفات. فهم يعرفون والدتي، ويعلمون لماذا استدعتهم. وعندما يكون لديهم متّسعٌ من الوقت، تقترح عليهم البقاء لبعض الوقت وشرب شيءٍ ما، قد يكون نقوع البابونج، أو بيرييه (مياه غازية)، أو كأس ويسكي مزدوجاً، وهذا ما يتيح لهم «التقاط أنفاسهم» قبل الصّعود ثانية إلى سيارتهم، والذهاب إلى قرب المريض التالي.

من خلال محادثاتها مع أولئك الأطباء علمْتُ، بشيء من الدهشة، أن عدداً كبيراً من الاتصالات الهاتفية التي تؤدي إلى تلك الاستشارات الليليّة لا تصدر عن أشخاص مرضى، وإنما عن أناسٍ وحيدين يتصلون مستفيدين من

الليل، من العتمة، ومن الصمت، ومن ذلك الحجاب الأسود المرميّ على المدينة الكبيرة، للطلب من شخصٍ ما (طبيب) أن يأتي ويراهم، شخصٍ ما يكلّمونه، شخص ما يُنصت إليهم، ولو لمدة عشر دقائق فقط، حتى لو كلّفهم ذلك مئة فرنك. لقد فوجئت والدتي بظاهرة الوحدة تلك في المدن، فما بالك في باريس بالذات، حتى إنها خصّصت مقالاً في الإكسبريس، خلال خريف 1976، بعنوان «الوحدة» حيث تهاجم ذلك المسؤول، بحسب رأيها، عن تلك الوحدة المعنويّة الهائلة، تلفازنا، «ذلك الشيء الشبيه بمصباح سهرٍ خافتٍ، مُضجرٍ أو غريبٍ [...]، آخر معقلٍ قبل ما أصبَحَ في يومنا هذا البشاعة، واللعنة، تلك الآفة الآكلة: الوحدة.» وتُضيف: «يمنع التلفاز الأهل من الاستماع إلى أولادهم، والأولاد من سؤال أهلهم، والعشّاق من ممارسة عشقهم. إنه يشغل، ويُشتت الذهن بفظاظة شرسة، وبنوعٍ من الاستعراض المتغطرس على قدر ما لديه من الإمكانات. يفصل الناس بعضهم عن بعض، في مزارع معزولة، أو في أكواخ مُكتظّة. يقترح على الناس رؤيةً فردوسيّة، أو مُريعة، عن الحياة؛ يُظهر لهم أشخاصاً يستحيل عليهم التشبّه بهم، وأوضاعاً قائمة يستحيل عليهم تغييرها، وحالات من السعادة يستحيل عليهم الشعور بها. باختصار، إنه يقولب ويجسّد أحلام الناس حتى إنه يمنعهم من الحلم.» كانت والدتي تكره التلفاز لدرجة أنها، عندما بلغتُ الثانية عشرة، هدّدت بأنها سترمي من النافذة أحد الجهازين اللّذين كنا نملكهما (الجهاز الموضوع في المطبخ)، إذ ضاقت ذرعاً بسماعه يهدر بصوته العالي طيلة الوقت عندما كانت تيريزا تشاهده. كم تسلّينا ونحن نتخيّل نتائج إلغاء التلفاز بشكلٍ كامل. وبهذا الصدد روت لنا عن عطلٍ في الإرسال حصل في مقاطعة بريتاني في منتصف السبعينيات، ودام زمناً كافياً لقلب عادات منطقةٍ بأكملها. عاد الناس إلى تبادل الأحاديث، بل أكثر من ذلك، بعد تسعة أشهر ظهرت زيادةٌ ملحوظة في المواليد في تلك المنطقة بالذات من فرنسا. وهكذا كنا نستمتع بالتفكير بأنه لو أُلغي التلفاز بشكلٍ كامل من هذا البلد، فبعد ثلاثة أشهر سيكون هناك ثورة، وبعد ذلك بستة أشهر زيادة مفرطة في المواليد، وبعد بضع سنواتٍ سيُعترَف بفرنسا في العالم أجمع على أنها بلد النخبة المثقّفة (الأنتليجنسيا).

ولكن هذا النفور من مصباح السهر الخافت الكبير لم يكن مطلقاً، ولا

قطعياً. كانت والدتي تشاهد، وأحياناً بمتعةٍ، بعض أفلام النادي السينمائي مساء الأحد على القناة الثالثة. وبعد ذلك بوقتٍ طويل، في بداية التسعينيات، تملّكها شغفٌ حقيقي بمسلسل ستار تريك Star Trek الذي يروي رحلة بين الكواكب في المركبة الفضائية انتربرايزر بقيادة السيد سبوك والكابتن كيرك، وأحبت بشكل خاص الممثل جاكسون ديفورست كيلي، الذي يمثّل دور الدكتور ليونارد ماكوي. لقد أحبّت ديكورات الستينيات المكوَّنة من أشياء عشوائية، وتلك الكائنات الغريبة ذات المظهر والتصرّفات غير المعقولة (إن لم نقل السخيفة المضحكة)، ونبرات الصوت، وطريقة التلفّظ عند تلك الكائنات الآتية من أماكن أخرى التي تميّزت بقدرتها على إضحاكنا. وحتى لو كانت السيناريوهات أحياناً غريبةً بقدر غرابة الشخصيّات، فقد بذل المؤلّفون، والسيناريّون، جهداً واضحاً في تخيّلها. وإذ كانوا يتصرّفون بحريةٍ مطلقة، مضَوا في ذلك إلى حدود بعيدة. ولم يكن مبدِعو تلك السلسلة يحملون عملهم على محمل الجد، ولا يتبجحون بأيّة ادّعاءات. وأعتقد أن هذا ما كانت والدتي تُقدّره، أي تلك الحريّة وتلك الفُكاهة التي لا تعرف الحدود بقدر ما تستمتع بتلك المغامرات غير المعقولة في المجرّات البعيدة. أتذكّر بعض لحظاتٍ حيث كانت تُمسك خاصرتيها وقد أخذتها نوبة من الضحك أمام سُحنة سبوك التي لا تتزعزع تجاه المواقف الروكامبوليّة[1] المتكررة.

في المقابل، كانت تحتقر عروض المقابلات، وبرامج الحقيقة، تلك الألعاب حيث المدعوون والمقدّمون يكدّسون جهلهم، وعُقمهم، وعدميّتهم، بذريعة أنه ينبغي النزول إلى مستوى الناس، وهذا ما يعني بكل وضوح أن من يُديرون قنواتنا قرّروا أن الشعب الفرنسي ما هو إلا عُصبةٌ من الحمقى. فوالدتي تعتقد أن الفرنسيين أذكى بكثير، وأكثر حدّةِ فكرٍ ممّا كانوا يحاولون إقناعنا به. وأن هذا التلفاز، المرعب بحماقته، لم يكن سوى نتاج إرادةٍ لإرهاق الناس عن سابق قصد وتصميم، وإخبالهم من أجل التحكّم بهم بشكلٍ أفضل. كانت والدتي تعتقد: «[...] الفرنسيون، هم ذلك الشعب

1- نسبة إلى روكامبول، بطل رواية مسلسلة من تأليف بيير بونسن دي تيراي في العام 1858، وهي عبارة عن مغامرات خيالية ومواقف لا تصدق.

الذي صنع الثورة، والذي رفض الاستبداد، والذي قاتل في فلوروس[1]، والذي بكى عند موت فيكتور هوغو، الذي يحب النساء والخمر والمنشطات والرُغبي، والذي جعل منه (التلفاز) حيواناً مُطارَداً، تعِساً، وباهتاً». ولم تكن مُخطئةً في ذلك.

أحياناً كانت تثور ثائرة والدتي بسبب حماقتنا، وعدم كفاءتنا، وعنجهيّتنا، إلى درجة تدفعها إلى تمنّي حصول ثورة تذهب بكل شيء يعترض طريقها. وبهذا المعنى، كانت تدّعي أنها فوضوية، ونحن، كنا نستمتع بمحاولتنا تخيّل كيف سيبدو العالم الجديد الذي قد ينتج عن ذلك. في العام 1956، وُجّه اللوم لوالدتي عن موقفها الفوضوي ذاك، واتُّهِمت «برمي قنابل من الورق من أجل زيادة تصدّع مجتمعنا.» وما كان يؤجج غضبها على الدوام هو الظلم وعدم المساواة. أتذكر بعض الأحاديث التي ساد فيها هياج وسخط جماعي إلى درجة أننا التقينا فرحين مرحين، وودّع بعضُنا بعضاً ونحن في حالة غضبٍ مزمجرين؛ لم يغضب واحدُنا ضدّ الآخر بالطبع، ولكن ضدّ ذلك المجتمع الذي كان العديد من مظاهره يستفزنا ويُثير حنقنا.

1- مدينة بلجيكية حصلت فيها العديد من المعارك على مدى التاريخ، أشهرها المعركة التي انتصر فيها نابليون في العام 1815

-17-

أعتقد أن شقيقتها سوزان هي التي استجرّتها للمرة الأولى إلى السينما، في مدينة ليون، خلال سنوات الاحتلال. كانت تلك الفترة الذهبية بالنسبة إلى السينما الأمريكية مع كلارك غيبل، وغريغوري بيك، وكاري غرانت، وروبرت ميتشوم وإيرول فلين، أولئك الممثلين العظماء الذين كانوا يشغلون الشاشة كلّها، ويظهرون ضخاماً ورائعين لفتاةٍ صغيرة من كاجار لم تكَد تتجاوز سنتها العاشرة. سيبقى هؤلاء الأمريكيون الرائعو الجمال بالنسبة إلى والدتي أيقوناتٍ، وسوف يلحق بهم مع مرور الزمن روبرت ردفورد، وبول نيومان ومارلون براندو، ومؤخَّراً جداً هاريسون فورد، الذي أثّر فيها كثيراً بتمثيله في فيلم الهارب، امتاز الهارب بتشويقٍ مُتسارع يحبس الأنفاس، وخلال مشاهد الحركة، كانت تتلوّى بكل معنى الكلمة في مقعدها، في اللحظات الأكثر حرجاً كما لو أنها تحاول تفادي الضربات خلال مُشاجرة، أو تنحني إلى الأمام عندما تصل سيارة بسرعةٍ كبيرة عند منعطفٍ أو تحاول تفادي عائق ما. وأحياناً، عندما يصل التشويق إلى حدٍّ لا يُطاق، كانت تفضّل النهوض والخروج من الغرفة لكي لا تشاهد ما لا يمكن تفاديه، على غرار الأطفال الذين يُخفون أعينهم في مواجهة مشاهد الرعب. فأضطر إلى الذهاب إليها في الغرفة المجاورة، حيث أراها تضرب بقدميها وأطمئنها: لا يمكن لهاريسون فورد التعرّض للقتل إذ إنه هو بطل الفيلم، كما أن الشرطة لم توقفه. فأن تُبدي مثل تلك البراءة، كل تلك النضارة بالنسبة لفيلم سبق أن شاهدته، بدا لنا في الوقت نفسه فاتناً ومذهلاً. أعتقد أيضاً أن ذلك حصل بفعل خيالها، الذي يسبق ذاكرتها، ويجعلها تعتقد، في كل مرة، أن كل شيء يمكن أن يحصل، حتى أكثر الأمور غير المعقولة. وبالطريقة نفسها، إذا

كانت القصة تنتهي بشكلٍ سيئ، كأن يموت البطل، تراها ترفض الاستسلام لتلك النهاية المميتة. فإذا ما شاهدنا فيلماً عن جان دارك، أو فيلماً مقتبساً عن قصة روميو وجولييت، فإنها تعتقد دائماً في قرارة نفسها أن كل ذلك ليس سوى أحداث حمقاء، وأن الأمور سوف تصطلح في نهاية الأمر. بحسب رأيها، هذا الموقف هو الموقف الوحيد الذي يمكن أن نواجه به الحياة، «مثل الأوبرا الهزليّة، التي سبق تمثيلها، والتي نعرف نهايتها مسبقاً. وإذ يأمل المرء بيأس - بالطبع لا لأنه سوف ينجو، أو لأن لديه فرصة للخلاص [..]، ولكن باستخدام خياله، إذ إن الخيال هو نقطة بدء الفهم.» وكانت تقول أيضاً إن الخيال هو ما يسمح بأن يضع المرء نفسه مكان شخصٍ آخر، وأن يقول لذاته: «عجباً، لم أنتبه جيداً، أو أنني لم أتصرّف بالشكل الصحيح».

لقد اكتشفتْ والدتي في وقتٍ مُبكر، وبالضبط بعد نجاح «مرحباً أيها الحزن» أن السينما يمكن أن تكون أداةً هائلة للتعبير، حين تكون بين يدي عمالقة من أمثال أورسن ويلز، الذي كانت تعتبره أحد أكثر الرجال عبقريةً في أمريكا. يتميز ويلز بـ «ذلك البريق الذي لا يخمد في عينيه»، والذي لا يمتلكه سوى العباقرة. أحبت سينما فيسكونتي وفيلليني وتروفو ولوزي ومانكييفيتش، فصارت بعض الأفلام بمنزلة نقطة ضعفٍ لديها، وبخاصة فيلم «ليمت الوحش» لشابرول، و«امرأة من الجوار» لتروفو، و«الرسول» للوزي، و«المواطن كين» لويلز، و«موت في البندقية» لفيسكونتي (الذي فضّلته على «الملعونون» والذي كان يُغذّي حواراتنا إذ إن «موت في البندقية» لم يعجبني حقاً). وكذلك أحبت السينما الهزليّة كثيراً وتشاركت مع أخيها جاك في ميلها إلى لوريل وهاردي. كنا نذهب أحياناً إلى موريس رونيه، أحد أهم أصدقاء خالي، وهو أيضاً من المُغرمين بالثنائي الكوميدي. فلديه قاعة عرض في شقّته قرب الأنفاليد، وكنا نُمضي فترات عصرٍ كاملة نتلوّى من الضحك أمام «الأغبياء» أو «شقيق الشيطان» (Fra Diavolo). وفيما خلا لوريل وهاردي، أحد الأفلام الذي كان يُضحك والدتي أكثر من غيره هو فيلم «الحفلة» لبليك إدواردز مع بيتر سيلرز، الذي عرّفتُها عليه. لقد تحمّست بشكلٍ خاص لرئيس الخدم الذي يشرب كل كأسٍ يُرفَضُ من يده، فانتهى به الأمر إلى التنقّل، وقد تعتعه السّكر، في وسط المدعوّين. كما أنها أحبت

أيضاً بشكلٍ خاص «المنتجان» لميل بروكس، الذي يروي قصة شخصين يخططان لمشروعٍ إخراج كوميديا موسيقية فاشلة[1]، إلا أنهما أخطآ في توقعاتهما وحازتِ المسرحية في نهاية الأمر على نجاح كبير. ولكنني أتذكّر أيضاً خيبات أملها ومظهرها المُرهَق عندما كانت تعود من عرضٍ قبل أوّلي، وأن الفيلم قد أضجرها، وبشكل خاص عندما شاهدت فيلم جين كامبيون «درس البيانو[2]» الذي وصفته لي على أنه قصة امرأتين شابتين في تنانيرهما المسلّكة[3] المنفوخة وجزماتهما الصغيرة، تتخبّطان مُتعثّرتين في الوحل. وصرّحت لي بأنها ضجرت أيضاً خلال عرض «المريض الإنكليزي» الذي وجدته طويلاً أكثر مما يجب (في الواقع، ساعتان وأربعون دقيقة لا يمكن إلا أن تكون طويلةً جداً بالنسبة إليها، أيّاً كان الفيلم)، في حين أنها أحبّت كثيراً جداً الكتاب الذي اقتُبِس عنه الفيلم وهو بعنوان «الرجل المحترق[4]» لمايكل أونداتشي Michael Ondaatje[5]. وعلى الرغم من أنها من أولئك المشاهدين الذين يسهل إرضاؤهم، فإن الضجر بالنسبة إليها مُخيف أكان في السينما، أم في الحياة العادية. ذات يوم، ارتَكَبَتْ هفوة شنيعة في مقهى لابونش في سان تروبيه عندما بدأت تشرح أنها لا تفهم سينما بازوليني، وأنها تجده مرهقاً، لا بل لا أخلاقياً أحياناً. وبعد بضع دقائق، نهض الرجل الذي كان يجلس في مواجهتها، وعرّف عن نفسه «بيير باولو بازوليني، تشرفت بلقائك».

لقد أدركت اليوم أنه كان لدى والدتي مُتطلَّبٌ في السينما أكبر بكثير مما هو في الفنون الأخرى. صحيحٌ أن وضع الكتاب جانباً حين يضجر المرء من قراءته، أسهل بكثير من مغادرة قاعة سينما بشكلٍ مُفاجئ. بينما لم يكن

1- الهدف منها الحصول على أموال المساهمين ومن ثم إعلان إفلاس العملية.
2- هذا هو العنوان الفرنسي. أما العنوان الإنكليزي فهو «البيانو».
3- تحت التنورة توضع أسلاك على شكل نصف كرة لتبقى منفوخة، ومثل هذا اللباس، بحسب رأي ساغان، يتنافى مع تجول المرأتين على شاطئ البحر والتخبط في الأرض الرملية.
4- هذا عنوان الطبعة الأولى من الترجمة الفرنسية لكتاب المريض الإنكليزي. في الطبعة الثانية اعتمِد العنوان الأصلي.
5- كاتب وشاعر ومخرج كندي من أصل سريلانكي.

لديها نفس المستوى من المتطلَّبات بخصوص المسرح، بشرط ألا يكون من المسرح الحديث الذي يدفعها إلى الهرب. المسرح بالنسبة إليها يتمثل في راسين وشكسبير وكورناي، أو أوسكار وايلد الذي قرأته وأحبَّته؛ ومن ثمّ، خلال مساهمتها الفعّالة في اقتباس «قصر في السويد»، اكتشفت عالم المسرح، والممثلين، والتدريبات، والعرض الأول، والستارة التي تُرفَع. أصبحت تعرف ذلك الشعور الفريد في سماعها للممثلين ينطقون بنصٍّ كانت قد كتَبته، تعرف ذلك الانتظار القلِق لأولى ضحكات الجمهور، بينما هي قابعة في مقصورةٍ صغيرة، في منأى عن الجميع. لم يكن لديها مثل تلك العلاقة القوية مع السينما. لا لكونها تعتبرها فنّاً أدنى، وإنما لأنها أكثر بُعداً عنها (أقلّه بسبب التقنيّات، وعدد المشاركين والمراحل التي يتطلّبها العمل فيها). أعتقد أن علاقتها مع السينما لم تكن قط ناجحة تماماً، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة. إذ لم يكن لديها سلطة حقيقية على الطريقة التي تُستثمر فيها أعمالُها، على نقيض ما يحصل بالنسبة للمسرح. كما أنه يصعب في السينما إلى حد كبير معرفة أسباب الفشل أو النجاح وذلك عائد بالضبط إلى كثرة الوسائط والوسائل التي تفصل كتابها عمّا صُنِع منه. في المسرح يشعر المرء مباشرةً إذا ما كانت المسرحيّة ستكون نجاحاً أم إخفاقاً ذريعاً. يكفي الاستماع إلى ردود الفعل في القاعة. إذا كانت المسرحية غير ناجحة، يمكننا عَزْوُ الذّنب إلى الإخراج، أو إلى أحد الممثلين؛ وباختصار، كل ما لا يعمل بشكلٍ جيدٍ جداً موجود على المسرح، و«المذنبون»، الذين هم أقل عدداً مما في السينما، يمكن تمييزهم بشكلٍ أسهل.

كان أوّل اقتباسٍ لإحدى رواياتها في السينما خيبة أمل. لم تُستَثَر حماستُها بـ «مرحباً أيها الحزن» من إخراج أوتو بريمنغر. واعتبرت الفيلم بعيداً جداً عن الكتاب، أكان الأمر متعلّقاً بالشخصيات، أم بالحبكة، أم بالإيقاع، إذ لم يقم إلا بالاقتراب من الأفكار الرئيسة في الرواية، التي هي في نهاية الأمر أكثر عدداً وأكثر تعقيداً مما يبدو (ربما كانت شخصيّة سيسيل أكثر التباساً مما يمكن لكاميرا أن تحيط به). بعد «مرحباً أيها الحزن» كان هناك النجاح، والفشل، واللاشيء. لنبدأ مباشرةً من اللاشيء (اقتباس «ابتسامة ما» من قِبَل جان نيغوليسكو، الذي لم تذكره قط، و«المرأة المتبرّجة» من قِبَل

جوزيه بينيرو). وفي المقابل، كانت تجد عمل صديقها، أناتول ليتفاك، على «هل تحبين براهمز» مع أنتوني بيركنز، وإنغريد برغمان، وإيف مونتان، على قدر لا بأس به من النجاح. وبالنسبة إلي، لم أعد أستطيع قراءة صفحات الكتاب دون أن أراهما كليهما، بيركنز وبرغمان، في العربة العائدة من غابة بولونيا. ولكن الفيلم الذي كانت تتكلم عنه بأكبر قدر من المحبة، والذي تجده الأكثر مُطابقةً للفكرة التي لديها عن اقتباس إحدى رواياتها هو، على ما أعتقد، «خفقات قلب» الذي أخرجه ألان كافالييه في العام 1968، من تمثيل كاترين دينوف، وميشيل بيكولي. لم أكتشف هذا الفيلم إلا في وقتٍ متأخّرٍ جداً. ففي الحقيقة، نجد فيه إيقاع ونظم وجوّ روايتها. وفيما هو أبعد من الاقتباس بالمعنى الحقيقي للكلمة، ومن الطريقة التي عُرِض فيها السرد، فإن النظْم هو الذي يبدو لي الأكثر مطابقة. إنه الزمن المحسوب على الزمن، الذي تتمتع به الشخصيات، والذي تتمتع به والدتي بالذات، والذي كانت تقول عنه إنه، مع المدى، يمثل الرفاهية الوحيدة الحقيقية. وهكذا فإن فيلم كافالييه يتقيّد بأحد أهم الأشياء بنظرها، ألا وهو حريّة الشخصيات في كونها منفصلة عن الزمن الماديّ.

وبعد ذلك بسنتين تقريباً، سَعِدَتْ جداً بالاقتباس الذي نفّذه جاك ديراي لـ «قليل من الشمس في الماء البارد» الذي قالت عنه إنه الأقرب إلى الكتاب. ولعلمي إلى أية درجةٍ كانت والدتي تُقدّر هذا الفيلم، وإذ كنت أعتقد أن النُسخَ لابدّ نائمةٌ في قعر خزانةٍ (وهذا ما لم أُخطئ به كثيراً)، عاودتُ الاتصال بورثة جاك ديراي، أو العكس، لم أعُد أذكر تماماً. كنت أريد بكلّ تأكيد أن يخرج هذا الفيلم من الظل، وألّا يقع هو أيضاً في مهاوي النسيان التي كانت تحاول ابتلاع كل ما يحمل اسم ساغان. أتاح لي لقائي الحديث مع ورثة جاك ديراي استنساخَ نُسخٍ جديدة عن الفيلم وكلي أمل في أن أعطيه حياةً جديدة. لم أكن قد شاهدتُ من قبل «قليل من الشمس في الماء البارد» إذ إنني، خلال عرضه في العام 1971، كنت صغيراً جداً على أن أُجابَه بقصة بالغين على هذا القدر من المأساويّة. لقد أحببت الكتاب كثيراً (وحتى إنه من الكتب المفضَّلة لدي)، ولا يُشكّل الفيلم معه إلا كلاً واحداً. إنه يُعيد نسخ سنوات السبعينيات بشكلٍ تام: تُضفي موسيقى ميشيل لوغران على السّرد بُعداً أكثر

تأثيراً أيضاً، وكان كلودين أوجيه ومارك بوريل فاتنين لدرجةٍ كبيرة، فلا شيء يمكن أن يُلهينا عن حقيقة مشاعرهما، ولا عن نهاية قصّتهما المُحزنة. إنها مأساةٌ صِرفة وجميلة. لم ينجح الفيلم نجاحاً كبيراً. وكما قال جاك ديراي في تلك الفترة لقد بقي «مهملاً على حافة الطريق».

وفي تلك الفترة حدث أن تقرّبت والدتي من رجلٍ كانت تعتبره من أكثر الناس فِتنةً، وأكثرهم موهبةً، وأكثرهم حِرفيّةً في جيله. اقترح عليها هذا الرجل، واسمه جورج دي بورغار، أن تقف ذات يوم خلف الكاميرا، وأن تُخرج فيلماً، فيلماً صغيراً. وهو أول أفلامها القصيرة.

مُنِحت والدتي الحرية الكاملة في إنجاز هذا المشروع. كتبت القصة، والحوارات، واختارت الشخصيات، والأماكن، وموسيقى الترافياتا التي كانت تستمع إليها كثيراً في تلك الفترة، والتي ستُرافق بألحانها الشجية، وبأفضل شكل، شاعريّة وكآبة القصة. في تلك الفترة، كنا نسكن مقابل حديقة اللوكسمبور، واختارت مقعداً أمام كُشك صغير للموسيقى في الحديقة، لتصوّر عليه لقاء سيدةٍ عجوز ورجلٍ شابٍ.

المرأة العجوز (ذات النعومة الرائعة)، أرملةٌ تنتظر صديقها بعد شتاءٍ كامل، يُمكننا تخيُّله مليئاً بالوحدة (وهكذا «تُصوّر» لنا والدتي أحد موضوعاتها الأعز على قلبها ألا وهو شعور الأشخاص المُعمّرين بالعزلة). أما الشاب فإنه ينتظر خطيبةً ليس مُغرماً بها كثيراً. نظرتهما عن الحب تلتقي، وتقودنا ونحن مُفعمون بالتأثّر، وعيوننا مُغرورقة بالدموع، إلى فهم أن ليس هناك عمرٌ للحب. حصل «شتاءٌ آخر» (وهو عنوان الفيلم) على نجاحٍ حقيقي. وبخلاف كل التوقّعات، اجتاز الأطلسي، وحصل على جائزة أفضل فيلمٍ قصير في نيويورك. ومنذ ذلك الحين، بُثّ، وبشكلٍ خاص على قناة Arte. إلا أن مدّته (وهي خمس عشرة دقيقة)، جعلت برمجته صعبة. أما والدتي فكانت تجد فيلمها القصير مُريحاً جداً فراحت تعرضه على كل مدعوّيها الذين يأتون إلى المنزل (لدينا نسخة منه على أشرطة VHS مما أتاح لها عرضه، على شكل استراحةٍ لمدّة ربع ساعة، في نهايتها كانت تجد كل ضيوفها وقد اغرورقت أعينهم بالدموع). وفي يومنا هذا، يعيش «شتاءٌ آخر» حياةً حرة على شبكة الإنترنت. فنجده على اليوتيوب، وعلى ديلي موشن،

وعلى قرابة عشرة مواقع للتحميل أو العرض المباشر المجاني، وبهذا فإنني أرضي غرائز التصيُّد لدى أولئك الذين يعتبرون أن الأعمال الأدبية ينبغي أن تصبح متاحة بشكل مباشر وفي متناول الجميع.

وهكذا، بعد هذه التجربة الأولى الواعدة بسنتين، عُهِد إلى والدتي بإخراج فيلمٍ حقيقي، فيلم طويل. اضطرت إلى قضاء ثلاثة أو أربعة أشهر في شاليه كبير فوق ميجيف وهي تُرهق نفسها في إخراج «عيون من حرير»، وهي قصّة قصيرة ضمن مجموعةٍ نُشرت في دار نشر فلاماريون قبل ذلك بسنتين. وبالطبع، ساعدها في ذلك مخرجٌ مساعدٌ، ومصوّرٌ رئيس، وفريقٌ كاملٌ، إلا أنني أعتقد أنها أُرهقت، وربما أيضاً ضجِرت، بسبب التفاصيل التقنيّة السينمائية وصعوبة إفهام فريق العمل ما يدور في رأسها. فعلى سبيل المثال، يفترض أن يبدو مشهد الصيد جميلاً جداً، ولكن حدث سوء تفاهم خلال المونتاج جعل المقطع أطول بكثير مما يجب، وأصبحت مطاردة الشاموا مملة، وهي التي يفترض فيها أن تكون مؤثِرةً مشوّقة. مُنيَ «السرخس الأزرق» (وهو عنوان الفيلم) الذي عُرض في ربيع 1979، بفشل ذريع.

وختاماً لهذه النكبات التي عانت منها والدتي مع السينما، طُلب منها أن تكون رئيسة مهرجان كان في عام 1979. صادف ذلك عامَ عرض فيلم «القيامة الآن» الذي قامت حوله ضجةٌ كبيرة في تلك الفترة. مضى كل شيء على ما يرام، إلى أن جاءت أيام المهرجان الأخيرة للتداول، عندما أعلنت والدتي تفضيلها على المكشوف لفيلم «ضارب الطبل» لفولكر شلوندورف، الذي كانت تجده أكثر اصطباغاً بالشاعرية والخيال من فيلم كوبولا الحربي. وهكذا، إذا ما أُخذ بعين الاعتبار الصوتان اللذان يمنحهما لها وضعها كرئيسة، وتعداد أصوات المرجّحين للمُحلَّفين الآخرين، يصبح من الواضح أن «القيامة الآن» لن يحصل على السعفة الذهبية بشكل مؤكد. وعلى هذا، جاء بعضهم للقاء والدتي في غرفة فندقها، يوم الأحد في بداية فترة العصر، قبل المداولة النهائية، في محاولة للتأثير على قرارها النهائي. فشعرت بإهانةٍ كبيرة بسبب هذه المبادرة، حتى إنها هدّدت بترك المهرجان في الحال. ومثل هذا التصرف من شأنه إحداث فضيحةٍ شنيعة بحق المهرجان. وكما روَت لي، اضطرّوا إلى وعدها بترك الحرية الكاملة لها كي لا تصفق الباب وتمضي

بغضب. في النهاية، كانت النتيجة بعد أن أدلت بصوتها المرجح أن تقاسم «ضارب الطبل» السعفة الذهبية مع «القيامة الآن». ولكن والدتي، التي أغضبها ذلك، أقسمت ألّا تقع من جديد في مثل هذه الورطة.

-18-

كانت تحب التمشّي في يوم السبت صباحاً في سوق العتيق[1] في فانف. تلتقط منه لوحاتٍ صغيرة من المدرسة الانطباعية، تمثل في معظم الأحيان مناظر طبيعية ريفية، وأشخاصاً في الحقول، وضِفاف أنهارٍ، أو مدخل قريةٍ، أو ركناً هادئاً في ظلال غابة. كان من شأن تلك الصور أن تذكّرها بصور السعادة التي عرفتها في طفولتها، في الدوفينيه أو اللّوت، والتي تسببت في تعلّقها العميق جداً بالطبيعة. كان تفضيلها يتّجه إلى التصوير الكلاسيكي، وبالأخص التصوير في نهاية القرن التاسع عشر. فهي تحب الفن التصويري[2]، وأجواء وألوان الانطباعيين: «الطريق من فرساي إلى لوفنسيين»[3] لكميل بيسارو، والفيضان في بور مارلي، قناة لوان في موري-سور-لوان لأفريد سيزلي. وربما كانت اللوحة المفضّلة لديها «القُبّرة» لكلود مونيه، وهي إحدى اللوحات الفريدة التي رأيت والدتي تتوقف أمامها وتبقى واقفةً لأكثر من أربعين ثانية. كانت تقول إن مونيه استطاع جعل الناس يسمعون الثلج يتقصّف تحت ضوء الصباح. كانت تحب أيضاً بعض لوحات (البورتريه) شرط أن تتسم بالتعبير، وبقوة الطبع، وبالفُكاهة. خارج أسلوب الانطباعيين الكلاسيكي، كانت تقدّر بعض المصوّرين التعبيريين الألمان:

1- معروف باسم سوق البراغيث وتجد فيه كل أنواع العتائق. يقام في باريس في أيام محددة: الأحد أو السبت أو كليهما، حسب الأحياء. أشهر هذه الأسواق في باريس هي: كلينيانكور، فانف ومونتروي.
2- الذي يصور الأشياء ويمثلها، على خلاف الفن التجريدي مثلاً.
3- مجموعة من 22 لوحة تمثل الطريق بين فرساي ولوفنسيين (7.5 كم) في أوقات وأجواء مختلفة.

ماك Macke أو نولد Nolde، وأبدت شغفاً كبيراً بالمصوّر الطبيعي إدوارد هوبر[1] الذي صوّر الحنين إلى أمريكا، ذلك البلد الذي لم يعد كما عَهِدَه، والصراع بين الطبيعة والعالم المُعاصر.

كان شغفها المُفرِط بالتصوير كبيراً لدرجة أن البيت، رُغم أنه مليءٌ باللوحات، يستقبل دائماً وبانتظامٍ بعض القادمين الجدد. وعندما تعود من إحدى جولاتها في فانف، أو من عند أحد أولئك التجّار الذين تعرفهم، تبدأ باستكشاف المكان بحثاً عن الموقع المُناسب بأفضل شكل لمُقتناها الحديث: في غرفتها (وهذا يعني أن اللوحة من المُفضّلات لديها)، أو في الصالون. قبل تعليق اللوحة قرب مثيلاتها بواسطة علاّقتها الصغيرة (ماركة X) التي لدينا مجموعة كبيرة منها، تنظّف اللوحة دائماً بخرقةٍ رطبةٍ بعض الشيء (غالباً ما نفعل ذلك معاً)، وهذا ما يُعيد إليها أَلَقَها، بالمعنى الحقيقي للكلمة، وكذلك بالمعنى المجازي. إذ إن هذا أتاح لنا أحياناً اكتشاف، في إحدى زوايا اللوحة، حرفاً أو أكثر من توقيعٍ صغيرٍ، لم يسبق أن رأيناه من قبل. حينها تبذل والدتي كل جهدها لفكّ رموز هذه الإشارات، ثم تبحث عن الاسم في دليلٍ للفنانين المصوّرين، وهو، على ما يبدو لي، بعنوان «دليل معلّمي التصوير الصغار». في أغلب الأحيان تكون تلك اللوحة دون قيمة تذكر. ومع ذلك، حصل وعلى سبيل الحظ الهائل، وأعتقد أن هذا حصل فقط مرةً أو مرتين، لم يكن الاسم مذكوراً في الدليل، ولكننا وجدناه في البينيزيت Bénézit[2]، وهو مرجع جامع مانع مؤلف من أربعة عشر مجلّداً لمؤرّخي الفنّ، والتّجّار، والمجمّعين، ويتضمّن كلّ المعلومات، ونُسَخ التواقيع، وتصنيف المصوّرين، والنحّاتين، ومُزيّني الكتب، والرسّامين. وإن مجرد ذكر الرسام في البينيزيت يعني أن هذا الفنان لديه شيءٌ من الشهرة، وأن لوحاته قد جالت في صالات البيع، وأن اللوحة يمكن أن يكون لها تصنيفٌ ما. مع ذلك لم تكن إمكانية أن تتمتّع اللوحة ببعض القيمة هي التي تُبهج والدتي إلى هذه الدرجة. ولكن مجرد أن تشكّل اكتشافاً، شيئاً نادراً،

1- 1882-1967: يعتبر ممثل الواقعية الأمريكية الحديثة ويصور حياة الطبقات الوسطى اليومية.

2- معجم فني شامل من 13440 صفحة يتضمن 175000 اسم.

وأنْ خلف تلك اللوحة، هناك رسّام حقيقي. ولم يكن يلزمها أكثر من ذلك حتى يصبح ذلك الاقتناء بشكلٍ طبيعيٍّ جداً بمنزلة لقاءٍ مع ذلك الفنان، الذي صارت لديها عنه فكرةٌ أكثر وضوحاً. المصوّر الذي يُعطي فجأةً معنىً لهذه المتعة التي تجدها في التصوير إذ إنه كان يُقدم لها، عبر هذه اللوحة، تمثيلاً للعالم الذي تجد نفسها فيه.

إن كانت والدتي تحب تعليق لوحاتٍ جديدة في المنزل، فإنّها تحبّ أيضاً إنزالها وتغيير مكانها. تتغير أمكنة اللوحات فتمنح الجدران حياةً، ثم تنتقل إلى جدارٍ آخر، مغيّرةً تلوين الغرفة. كانت تُعطي للمنزل وجهاً جديداً. كما يحدث أحياناً أن يتحرك الأثاث، باستثناء بيانو بلايل Pleyel [1] وأريكة الزاوية الكبيرة، وهما قطعتان ثقيلتان جداً، واكبتا كل الانتقالات على مدى عشرين عاماً منذ شقة جادة سوفرين. ما كنا نغيّره هو الحيّز المكاني في المنزل، إذ ينبغي أن يبقى على الدوام مرِحاً، خفيفاً. كان منزلنا مليئاً على الدوام بالزهور، فهذا من تقاليد المنزل. في كل يوم تصل طاقاتٌ من الزهر، ترسو في الصالون، على البيانو أو على الطاولة المنخفضة، فتملأ المكان زاوية زاوية؛ كانت تُنوّر الشقة التي تمتلئ بهذا الشكل بالألوان، وبعبق الروائح، في جوّ متجدّد الهواء على الدوام. فوالدتي لا تتحمل الفضاءات المغلقة، والبيوت الجامدة، دون لونٍ ودون حياة؛ تُمضي كل وقتها في فتح النوافذ والأبواب، وإدخال الهواء والنور.

حصل أحياناً أن ذهبت والدتي إلى سوق العتيق في فانف، وعادت إلى المنزل صِفر اليدين. ليس لأنها لم تجد لوحةً صغيرة تحرّك عاطفتها، ولكن لأنها أعطت كل مالها لشخصٍ التقته في الشارع، وقد وجدته في حالةٍ كبيرةٍ من الإملاق. كم مرةً، خلال نزهاتنا معاً، يحصل لنا أن نُصادف بائساً على الرصيف، فتعطيه ثلاثة أرباع، إن لم نقل كل المال الذي تحمله في حقيبتها. لا يهمّها إن كان المبلغ ألف فرنكٍ أو ألفين. في هذا الأمر، وعلى الرغم من أنها لا تنفكّ تؤكّد أنها منفصلةٌ عن الله منذ نعومة أظفارها، وحتى إنها تُعلن أنها ملحدةٌ تماماً، وإذا ما وضعنا جانباً بعض فورات مزاجها ونزواتها

1- من أعرق أنواع البيانو وأغلاها ثمناً في فرنسا

التي كانت تحصل في فتراتٍ خاصةٍ جداً من حياتها (والتي تتعلق أكثر بأسباب أصفها بأنها دوائيّة)، فقد انتهى بي الأمر إلى الاعتقاد، مثل فرانسوا مورياك (الذي كان يقول عن والدتي إنها «أقرب بكثير إلى النعمة من بعض المؤمنين»)، أنها قدّيسة معاصرة، تضطلع بميولها، وخياراتها، وحريتها، وأنّ لديها احتراماً كبيراً للآخر، حبّاً للآخر، وأنّ شغلها الشاغل هو أن لا تتسبب له بالألم.

-19-

لم تعرف والدتي مشاكلها الماليّة الجسيمة إلا بدءاً من سنيّ التسعينيات، وبشكلٍ أخص بعد موت بيغي. حصل لها سابقاً أن خسرت مبالغ ضخمة من المال في كازينو كليرمونت، في لندن، في منتصف الستينيات. وروت لي أن أحد رؤساء الخدم كان لا يتوقف عن إحضار (فيشات) جديدة على صينية، كما يفعل في المطاعم الكُبرى النادل عندما يحرص على أن يبقى قدحك مليئاً. وعندما قرّرت مغادرة المائدة، وطلبت الحساب، أحضر لها رئيس الخدم قُصاصة ورقٍ كُتبَ عليها مبلغٌ بالجنيه الإنكليزي. ولكن عندما أجرت التحويل لاحظت برعبٍ أنها قد خسرت مبلغاً هائلاً إلى درجةٍ لا تصدق، فراحت تتخيل كيف أنها ستضطر إلى العودة إلى باريس بأسرع ما يمكن، وأن تنتقل من منزلها، وأن تبيع سيارتها، وأن تعهد بي إلى والدتها. وإثباتاً لهدوء أعصابها الذي لا يُعرَف له مثيل، والذي لا يقدر عليه أحد غيرها، قررت رغم كلّ شيء البقاء، واللعب لاستعادة وضعها والوقوف على رجلَيها. وبعد أربع ساعاتٍ من النّضال المُستميت، تمكّنت أخيراً من معاودة الصعود، وخرجت سليمةً من قاعة الألعاب تلك. ومع ذلك بقيت متأثّرة بهذه الذكرى. وعلى هذا لم يدهشنا أن تطلب، هي بالذات، منعها من اللّعب بعد ذلك بسنتين ولفترة عشر سنوات كما ينصّ التشريع. كان من شأن هذه الحادثة أن تجعلها تُدرك قيمة المال. وفي هذه الفترة بالضبط، قرّرت أن تعهد بثروتها إلى ماريلين ديتشيري التي ستحرص على أن لا تقوم بعد ذلك بحماقاتٍ وأن تتحاشى الإفراط.

أصبحت طريقتها في العيش (القمار، واللهو، والسيارات السريعة، والأصدقاء)، الموضوع المفضَّل في الصحف، حيث وُصِفَت حياتها بأنها

فضيحة وفحش دائمَين. فبعد أن كسبت الكثير من المال ها إنها تُبالغ في إنفاقه. ومن هذين الأمرين، الكسب المفرط للمال أو إنفاقه بشكلٍ مُفرط، راحت تتساءل ما الذي كانت تُلام عليه أكثر. «لديّ انطباعٌ بأنني لو اشتريت سلسلةً من المطاعم والحانات وأمّنت حياتي في شيخوختي، لكان الناس أقلّ استنكاراً لأفعالي».

بما أن والدتي كانت قاصراً في لحظة توقيعها في دار نشر جوليار، فإن جدّتي، ماري كواريز، هي التي ذيلت العقد بتوقيعها، واضطرت والدتي إلى الانتظار حتى بلوغها سن الرّشد لتتمتع بحسابٍ مصرفي، وبدفتر شيكات باسمها، إذ إن سن الرشد حينها كان مُحدّداً في واحدٍ وعشرين عاماً. أفترض أنها استلمت أوّل حقوقها نقداً، أو حُوِّل المال عن طريق حساب أهلها. لقد درَّ عليها «مرحباً أيها الحزن» مبالغ هائلة، ومع ذلك لم تُدرك مبلغ أرباحها إلا بعد ذلك بسنتين، وهي بعمر العشرين، عندما غادرت منزل أهلها لتشتري شقةً في شارع غرينيل، حيث سكنت مع أخيها.

وبما أن حياة جدّيّ كانت تتصف باليُسر والدّعة (جدتي ربة منزل، وجدّي مهندسٌ يُدير مصانع عديدة، ويكسب معيشته بشكلٍ مُريح جداً)، فقد ادّعت والدتي على الدوام أنهما كانا يُحبّان الإنفاق كثيراً، وأنها لم تحتَج قط أيّ شيء، وأن عائدات «مرحباً أيها الحزن» لم تغيّر علاقاتها مع المال. فلو أنها عاشت طفولةً تعِسةً، محرومةً من كل شيء (وهذا ما لم يحصل حتى خلال فترة الحرب)، لكان مفهوماً أن تتمسّك به مخافة العَوَز. وعلى هذا فقد تعاملَت مع هذا المبلغ الكبير وكأنه المَنُّ والسّلوى، شيءٌ شبيه بما قد يسقط بمعجزة من السماء، وهي لا تعرف بالضبط مدى ضخامته. «كان ذلك المال مجنوناً بعض الشيء، بحدّ ذاته» كما تقول وقد طفح بها الكيل تقريباً. وبحسب نصائح والدها، عملت على ألّا تُخزّنه، أو توظّفه، ولكن على العكس، وبنوعٍ من اللاوعي الفاتن، جهِدت في إنفاقه وفي إفادة أصدقائها منه. «كان هناك مجموعةٌ من الناس يمكنني أن أقوم بأودهم بفرح، [..] فلديّ دفتر شيكات، والمال ينساب: لا شيء أكثر راحةً من ذلك.»

تكفّل رينيه جوليار بالحساب من أجلها إذ إنه يكنّ لها عاطفةً كبيرةً جداً، وقد فهم بالتأكيد علاقاتها المُهلهلة إلى حدّ بعيد مع المال. يكفي أن

تتصل والدتي بالهاتف بناشرها لكي يُرسل لها في الحال شيكاً. يدفع لها ما تريد بناءً على طلبها، دون أن يكون عليها القلق حول أيّ شيءٍ. يتم الأمر ببساطة، وبسهولة.

استمرت والدتي طيلة حياتها بعلاقتها المتباعدة تلك مع المال. وبحسب الحياة التي اختارتها لنفسها، كان ينبغي على المال أن يكون أداة حرية، لا ضمانة أمنٍ. فليس وارداً بالنسبة إليها أن تجمّده بالاحتفاظ به ساكناً. فهي لا ترغب بحياةٍ سهلة مطمئنّة. «يجذبني كل ما هو ليس مُطَمْئِناً.» «[...] عندما يتولّد لديّ انطباعٌ بأن شيئاً ما في داخلي مجمّد، ثابتٌ، موقوفٌ، يصيبني الهلع المُشِلّ.» ينبغي على المال أن يكون حيّاً، حراً، ينبغي أن يسري مثل الهواء من يدٍ إلى يد. لم تكن تحبّ امتلاكه أو توفيره، لذا تبدأ بإنفاقه، أو توزيعه. لم تكن تحسب قط، ولكن مع ذلك لم تكن لتعيش حياةً مجنونة بالكامل، ولا تشتري أيّ شيءٍ على سبيل الفخفخة والتظاهر (فالسيارات، والأحصنة، أو اللوحات، تلبّي لديها شغفاً حقيقياً، وليس الرغبة في أن تصبح محطّ الأنظار). لقد انتقدتها كلّ صحف تلك الفترة. فراحت تستنكر طريقة حياتها، وتتكلّم عن «عصابة ساغان»، وعن عُلب الليل، وعن سياراتها الجاغوار (علماً بأنها اشترت السيارتين الأخيرتين منها بالرّخصة). ومما كان يُشعرها بالأسى هو أن الصحافة لا تهتم إلا قليلاً جداً برواياتها. «فكلّ عملية نشرٍ جديدة تبدو أشبه بتصريح للضرائب. كنت آمل في كل مرة أن أُكلَّمَ عن الأدب، ولكن لا! إذ ليس هناك حديث إلا عن حسابي المَصرفي.»

وعلى عكس ما اعتقده الكثيرون، لم تكن تحتقر المال، بل إنها لم تكن تحبّه بحدّ ذاته. وبالمقابل كانت تحب ما يمكن أن يجلبه: الحرية، وإمكانية عدم انتظار الحافلة تحت المطر، وركوب الطائرة، والذهاب لبضعة أيام نحو الآفاق المُشمسة. ولكنها لم تكن تحبّ العلاقات التي يقيمها بين الكائنات البشرية، والتأثير الكبير الذي كان له على عددٍ كبير من الناس. والدتي بطبيعتها كريمة، والمال بالنسبة إليها وسيلة للتعبير عن هذا الكرم. وطالما تمتلك البعض منه، تعتبر من الطبيعي جداً أن يُساهم في إسعاد الآخرين، بدلاً من الاحتفاظ به على أساس فرضية أنه قد يأتي يوم *ما* ويغدو غير متوفّر. وما الذي يمكننا أخذه على مثل تلك المقولة؟ من يمكنه الادّعاء بالتضحية

بحاضر صديقٍ مُحتاجٍ في سبيل أمنه الشخصي، في سبيل مستقبلٍ نجهل كيف سيكون. الحياة المباشِرة لها دائماً الأولوية على الاحتمالات، والحسابات، والأوهام. روت لي خالتي سوزان أنّ والدتي، في تلك الفترة، كانت تحتفظ بصندوق من الكرتون مُخصص أصلاً للقبعات مليئاً بالأوراق النقدية، مُرتَّب في خزانةٍ في شقتها. وعندما يأتي بعض الناس لرؤية والدتي وهم بحاجةٍ إلى المال، يكفيهم الذهاب إلى ذلك الصندوق، وأخذ ما يلزمهم. وبهذا الشكل، لم يكن عليهم أن يطلبوا ذلك منها، وهي لم يكن عليها أن تُعطيَهم إيّاه. ذات يوم، بينما كان فرانسوا جيبو، صديق والدي، عائداً من عطلة نهاية الأسبوع في إيكموفيل، توقف في هونفلور من أجل ملء خزان الوقود. في تلك الفترة، كانت هونفلور ما تزال مرفأً صغيراً يتمتّع بشيءٍ من الهدوء. ومن النادر أن تُرى فيه سيارة فورد موستانغ تمر يوم الأحد مساءً. لهذا السبب أدرك عامل المحطة أن السيارة قادمة من قصر بروي. وعندما أراد فرانسوا أن يدفع المال عن ملء خزانه، رفض عامل المحطة. فالسيدة ساغان لديها حساب في المحطة، ومدعوو السيدة ساغان لا يدفعون ثمن وقودهم. بالطبع اعترض فرانسوا على هذا العرض، وسدّد ما عليه.

كم وكم من الأمثلة الأخرى عن كرمها المذهل؟ كم مرةً أرسلت شيكات إلى أشخاص لا تعرفهم يسعون إلى تأمين بعض حاجيات منازلهم: غسالة، أو مظلة في الحديقة، وحتى، ذات يوم، إجراء عملية للأنف. عملت والدتي ما استطاعت من أجل إيصال المبلغ اللازم إلى تلك المرأة التي كانت تريد إجراء عملية تجميل لأنفها. ولكن العملية فشلت. ووجدت تلك المرأة البائسة نفسها بأنفٍ أبشع مما كان عليه. ولكن ما لا يُصدَّق أكثر، هو أن هذه المرأة حاولت الادّعاء على والدتي في المحكمة، مدّعيةً أنها هي المسؤولة عن إفشال عملية أنفها.



-20-

وعلى الرغم من أن والدتي لم تكن قط يمينية فإنها، على قدر ما أذكر، وبحسب ما قيل لي، بقيت زمناً طويلاً قريبةً من الجنرال ديغول الذي يجسّد لها رجلاً هيَّأته العناية الإلهية (وينبغي أن لا ننسى أن والدتي من أطفال الحرب). إنها مؤيّدة للاتجاهات التي اتّخذها بخصوص الجزائر وبشكلٍ خاص تجاه سياسته في إلغاء الاستعمار. في العام 1960، انضمّت مع فلورانس مالرو إلى الموقّعين المئة وتسعة عشر الآخرين على بيان الـ121. نشر هؤلاء المثقفون والفنانون والجامعيون (وهم بشكلٍ أساسي من مؤيّدي اليسار)، في مجلة الحقيقة والحرية «بيان الحق في التمرد في حرب الجزائر» وهو بيانٌ يهدف إلى توعية الشعب الفرنسي بحركة الاحتجاج ضدّ حرب الجزائر، وضدّ دور الجيش السياسي في هذا الصراع، ضدّ التعذيب، وضدّ تلك الروح العسكرية المتنامية التي تسير بعكس ديمقراطيّتنا. وكنتيجة لهذا الالتزام، تم تفجير شقّة والديها في الرقم 167 جادة مالزيرب، ذات عصرٍ بعد عودة جدّي ببضع دقائق فقط، ولا شكّ في أنه لاحظ الطرد المربوط بشكلٍ عشوائي على الرصيف، أمام منزله، إلا أنه لم يُعِره أيّ انتباهٍ. ولم تمضِ إلاّ بضع دقائق منذ أن ركب المصعد، وضغط على زر الطابق الثالث، ووصل إلى قرص الدرج، ووضع المفتاح في القفل، وفتح بابه، حتى دوّى انفجارٌ قوي بلغ من القوة أنه أسقط كل زجاج المباني المحيطة على قارعة الطريق. اتّجهت الشكوك، وعن حق، نحو المنظّمة العسكرية السرية[1] التي كانت تُعارض استقلال الجزائر. أما والدتي فقد أصابها الهلع لفكرة أن والدها كادَ

1- معروفة بالاختصار OAS منظمة الجيش السري.

يُقتَل في هذا الهجوم، في حين أنه لم يكن على أية علاقة بكل ذلك، وأنها سبق أن غادرت منزل العائلة قبل ذلك بزمنٍ طويل.

وإذا ما اختارت الالتزام من أجل الجزائر، فإن ذلك عائدٌ لشعورها بأنها قريبةٌ من ذلك الصراع. كانت قد عاشت المناخ المتوتر الشديد الذي عاشه البلد في تلك الفترة، وشهدت حملات الاضطهاد، وهجوم الشرطة في جادة بون نوفيل، وعمليات قتل الجزائريين، وكانت تؤمن أن كل تلك الأمور قد تجاوزت حدّها وأن عليها أن تتوقف. في المقابل، وعلى عكس سارتر (الذي تعرّض للمتفجرات ثلاث مرات)، الذي التزم بشكلٍ صريحٍ تماماً بموضوع الصراع في جنوب شرق آسيا، في بداية السبعينيات، لم تتحزّب، ولم تكتب. وعلى الرغم من استنكارها لفظائع تلك الحرب، لم تكتب ولم تتظاهر ضدّ الوجود الأمريكي، وتلك التفجيرات الضخمة جداً، في شمال البلاد، في لاوس أو في كمبوديا، والتي تسببت بآلاف الضحايا المدنيين. كانت تعتبر أن حريتها في الالتزام ينبغي أن تبقى تامّة. وليس على الكاتب الاهتمام بالسياسة إلا إذا كان هناك موضوعٌ يخصّه مباشرةً. «الكاتب حيوانٌ بري، منغلق مع ذاته، يشاهد (أو لا يشاهد) خارج قفصه، وهذا مرهون بالمناخ الذي يجده». وإذا لم يكن بوسعها إلّا الموافقة على التزام جون بيز Joan Baez، أو جين فوندا، أو نورمان ميلر، الذين كانوا يناضلون ضد تلك الحرب، فإنه يلزمها دون شك مجموعةٌ كبيرةٌ، وعلى مدىً واسع، شيءٌ شبيهٌ بـ «بيان الخمسين ألفاً» حتى تنضم إلى تلك الحركة. المعارَضة المتنامية في الرأي العام في الولايات المتحدة وحركات الاحتجاج عبر العالم كانت على أهمية كافية للمساهمة في إطلاق اتفاقات باريس وفك الارتباط الأمريكي، الذي جعل منه ريتشارد نيكسون الموضوع الرئيس في بداية حملته. نذكر من هذه الحركات محكمة راسل التي نصّبت نفسها للحكم على جرائم حرب الأمريكيين، مع الفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل، وجان-بول سارتر، ومن ثم لحقت بهم سيمون دي بوفوار وجيزيل حليمي، وحوالي الثلاثين الآخرين، ومن بينهم ثلاثة حمَلة لجائزة نوبل للسلام.

وإذا ما كنت قد أسهبت في موضوع النزاع الفيتنامي، فمرد ذلك إلى أنه بالنسبة إلى أمي، وكذلك أيضاً بالنسبة إلى والدي، شكّل موضوعاً شغل

اهتمامهما. وقد كنت الشاهد المباشَر على استنكار والديَّ، وكذلك استنكار الجمهور، إذ إن الصراع امتدّ على كامل سنوات طفولتي، من 1965 إلى 1975. فالصحافة المكتوبة في ذلك الحين احتلت مكانة مختلفة عن يومنا هذا، ولم يكن قد حلّ محلها ذلك المصباح الليلي، ولا الإنترنت. وبسبب استقلاليتها كانت ما تزال تسمح بمقابلة الآراء والأفكار. لم تنتمِ في حينها إلى مجموعات ذات مصالح، وبشكلٍ خاص المصالح الصناعيّة والمالية. لم يكن عمري قد تجاوز بعد السادسة أو السابعة، ومع ذلك أتذكر تماماً أنه لم يمر يومٌ واحد إلا وأورَدَت الصحافة الفرنسية شيئاً عن الأحداث في فيتنام. وأتذكر بشكلٍ أخَص أيضاً تلك الكلمات ماي لاي «My Lai» التي شكلت الموضوع الرئيس والمتكرر في المحادثات.

«My Lai[1]» قرية صغيرة، حُرقت في البداية وجُمّعَ سكانها: نساءً، وأطفالاً، وشيوخاً، وعددهم خمسمئة وأربعة، ثم قُتلوا (أو عُذّبوا ثم قتلوا)، من قبل وحدةٍ من الجنود الأمريكيين في شهر مارس 1968. تلك المذبحة التي كشفت أحداثها مجلة لايف في العام التالي، أثارت انفعالاً هائلاً، مغذياً بذلك، وبشكلٍ قويٍّ جداً، الحركات السلمية في الولايات المتحدة، وتيار المعارضة لهذه الحرب في العالم أجمع. في عمر السادسة أو السابعة لا يمكن للطفل أن يتصور تماماً ما يمكن أن تكون المجزرة المدنية، ولكنني أتذكر بشكلٍ مُبهَم ذلك الغضب لدى والدتي، والألم الذي مزقها كما يُمزّق السيف الحاد جداً والقاطع جداً، الألم الذي كان يحرقها. وحصل لنا بعد ذلك بسنوات أن عدنا لاستذكار My Lai، وعندها تملّكني شعورٌ أنّ هناك بالنسبة إليها شيئاً ما أكبر بكثير من تلك القصة المريعة، وهؤلاء الأولاد، وأولئك النسوة، وأولئك الشيوخ الذين ذُبحوا بوحشية، هناك صورة العالم التي اختفت إلى غير رجعة، لتحلَّ محلها صورةٌ أخرى: صورة أمريكا جميلة، لامعة، ملوّنة، مرِحة، مطَمْئِنة، مُحرِّرة، صورة «أولئك الجنتلمانات

1- مذبحة أمريكية ذهب ضحيتها بين 350 إلى 500 شخص ومن بينهم أطفال رُضّع. تم توجيه الاتهام إلى 26 جندياً أمريكياً ولكن لم يُدَنْ سوى الملازم وليم كالي بقتل 22 مدنياً، فحكم عليه بالسجن المؤبد ولكنه لم ينفذ من حكمه سوى ثلاث سنوات ونصف السنة قضاها تحت المراقبة خارج السجن.

الشقر الملوّحين بالسّمرة، الذين نزلوا ذات يومٍ لدينا في دبابات هجومٍ [...] كان ذلك رائعاً [...]». الصورة التي تسنّى لها رؤيتها في نهاية شهر أغسطس من عام 1944، الصورة الظافرة لأمريكا قوية، عادلة، شغوفة بالحرية، التي حرّرتنا من نير الاحتلال النازي، والتي بدت لنا، منذ ذلك الوقت، أنها تحمل عن جدارة إكليل الظفر[1]. وها إن هذه الأمريكا بدورها أصبحت بلداً غبر مجده، يحرّكه العنف نفسه، ونفس العمى، ونفس الحماقة التي جاء ليحاربها قبل ذلك بعشرين عاماً. وهذا لأن My Lai تحمل، من كل نواحيها، وصمة العار نفسها، التي اتّصفَت بها المذابح التي ارتُكبت خلال سنوات الحرب الست في أوروبا.

إن والدتي بعيدةٌ كل البعد عن فكرة أمةٍ، أو جنسٍ، أو هويةٍ، أو فلسفةٍ، أو ثقافة قد ترتبط بها فكرة الخير أو الشر. لم تكن تقبل التفكير على مستوى العموميّات والمجموعات أكانوا ألماناً، أم سوداً، أم خميراً، أم أتراكاً، أم يابانيين، أم اشتراكيين، أم فرنسيين، أم يهوداً، أم عناصر مقاومة مسلَّحة، أم فوضويّين. لم تكن تتحمل والدتي أن يُحكَم على الغير بمعيار العنصرية، أكان هناك ادّعاءٌ بالتفوّق لكونك آريّاً أو يهودياً، فقيراً أو غنياً. كانت أحاديثنا تشدّنا دائماً إلى الإنسان، إلى ضميره وإلى مسؤوليته تجاه أفعاله، والمسببات (وليس «الدوافع»، إذ إنها تمقت هذه الكلمة) التي يمكن أن تقوده إلى ارتكاب أفعال بربرية. كنا متفقين على أن الكائن البشري لا يمكنه أن يفلت، إلا فيما ندر، من نقاط ضعفه. كانت هناك محاكم التفتيش، واضطهاد البروتستانت، وأورادور-سور-غلان[2]، وسيكون هناك غيرها وغيرها. كان ذلك شنيعاً، فاضحاً وحتمياً. كان في كل ذلك نوعٌ من القدر الذي ليس له أي تبريرٍ سوى أنه محتوم لا يمكن تفاديه، والذي لم تكن والدتي قادرةً على مقاومته إلا

1- هذه الصورة عن أمريكا تكونت لدى معظم الأوروبيين، وبشكل خاص لدى الفرنسيين، على أنها لم تأت في نهاية الحرب العالمية الثانية إلا لتنقذ أوروبا من الخطر الداهم المتمثل بالنازية. ولم يدرك إلا القليلون منهم، وبعد حين، أن أمريكا لم تتدخّل إلا من أجل مصالحها الخاصة.

2- قريةٌ فرنسية دمرها الألمان وقتلوا أهلها وأحرقوا العديد منهم وهم أحياء (حتى النساء والأطفال بعد أن جمّعوهم في الكنيسة) خلال الحرب العالمية الثانية عام 1944.

بإبداء قناعاتها، أو بإذعانها، في معظم الأحيان، ورضوخها للأمر الواقع. والسؤال الذي لا ينفكّ يتكرر «لماذا؟» لا بل إن ما أثار جزعها أنْ حلَّ محله اليوم «كيف؟» لماذا كان دائماً «الحمقى أنفسهم» هم الذين يقصفون الفيتنام، وكمبوديا، وكوسوفو، وأفغانستان، أو الذين يُجوّعون شعوباً بأكملها. لقد غيّر مقتَل كينيدي بشكلٍ مفاجئ وجه أمريكا، وكاد يُغيّر وجه العالم. اعتقدنا أن رحيله سيشكل منعطفاً كبيراً في تاريخ عالمنا، وأن مصالح الأمة سوف تتراجع أكثر فأكثر أمام المصالح الخاصة. بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، بقينا نذكر التهديدات التي كانت تمثلها هذه المصالح على حريتنا، مُقلّلةً من هامش مناورة رؤسائنا الخاضعين دائماً بموجب هذه المصالح إلى قوىً أكثر قوةً وجبروتاً، قوى عالم المال وصناعة التسلّح.

وفي يونيو 1961، عندما حذّر الرئيس آيزنهاور أمته بالذات، في خطاب وداعه، من المخاطر التي يمثّلها المُركَّب العسكري-الصناعي على الديمقراطية، كان رجلاً ذا بصيرةٍ نيّرةٍ بحق. وهكذا تبيّن أننا، على الأرجح، نعيش الديمقراطية في الواجهة فقط، بينما هذه المنظّمات غير المُختارة من قبل الشعوب (FMI, GATT, OMC, BM, BCE...)[1] قد استولت على كل السُلطات وصارت تُقرر بمعزل عن المواطنين. وأن من نختارهم أصبحوا محرومين من كل سلطاتهم، إذ إن قراراتهم قد اتّخذَها غيرهم عنهم، مما يجعل برامجهم تافهةً جداً ومُضجرة جداً.

عودةً إلى التزامات والدتي السياسية، فقد كانت في بداية الستينيات أقرب إلى الجنرال ديغول من قربها إلى اليسار الحقيقي (ولكن، في تلك الفترة، من لم يكن كذلك؟) وبما أنها ترفض كل ما يمكن أن يكون جامداً، مُقرَّراً، لا يتحرك، فمن الطبيعي أن يتجه قلبها نحو اليسار، ولكن إذا كانت بعض الأفكار تُغريها من حيث جانبها الثوروي، فإنها تعتبر أن الحزب الشيوعي[2] لديه روابط وثيقة للغاية مع الاتحاد السوفيتي. كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية قد بسط يداً من حديد على أوروبا الشرقية، وحرم

1- بالترتيب: صندوق النقد الدولي، الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة، منظمة التجارة العالمية، البنك الدولي، البنك المركزي الأوروبي.

2- الحزب الشيوعي الفرنسي.

سكانها من الحرية، ومن وسائل التعبير، وهذا بالنسبة إلى والدتي أمر لا يُحتمَل. إضافةً إلى كل ذلك، كانت حينها عائدةً من رحلةٍ إلى كوبا حيث أصيبت بخيبة أمل كبيرة من جراء رؤيتها لأوائل مظاهرات الثورة التي علّق عليها البعض آمالاً كبيرةً. وهكذا، في العام 1965، كان ديغول بالنسبة إليها الوحيد الذي يُجسّد فكراً يسارياً من الممكن أن تجد نفسها فيه. لقد التزم بإلغاء استعمار الجزائر، وأبدى تأييده للانفتاح نحو الشرق، وعارض إغلاق الباب على الكتلة السوفيتية، لم يكن هناك أية شخصية قادرة على تجسيد أفكارها وقناعاتها (باستثناء ميندیس فرانس، الذي لم تستطِع أن تصوّت له).

وكان لابدّ من مرور قرابة عقدٍ من الزمن لكي يجسّد رجلٌ آخر اليسار كما كانت تتصوره. في العام 1974، صوّتت لفرانسوا ميتيران، وعلى هذا أصبح من الطبيعي أن تستنكر وصول جيسكار ديستان إلى رئاسة الجمهورية، وهو الذي يُمثّل بالنسبة إليها كل الأنانيات التي يمكن أن يجمعها وأن يولّدها اليمين. كانت الصورة المتكوّنة لدى والدتي عن اليمين وعن اليسار تُختصَر بهذه الكلمات القليلة: بالنسبة إلى أتباع اليمين، لا يمكن تفادي البؤس؛ بالنسبة إلى أتباع اليسار، البؤس غير محتمَل. هذه السنوات السبع من السياسة الجيسكاردية لم تؤدِّ إلّا إلى زيادة استيائها واستنكارها، اللذين سيتماشيان بدءاً من تلك الفترة مع التزامٍ أكثر وضوحاً باليسار (وبالاشتراكيين بشكلٍ خاص)، وهذا ما أدّى، في العام 1981، إلى دعمها غير المشروط لفرانسوا ميتيران.

تحمل سنوات جيسكار كلها دلائل سلطةٍ تميل إلى بسط النفوذ بشكل متفاقم، وإلى عدم مساواةٍ أكبر، وعودة بعض الامتيازات وبشكلٍ خاص، بالنسبة إلى ما يتعلق بها مباشرةً، إلى تكليفٍ ضريبي لطالما اعتبرته «فاحشاً». وإذا ما كانت تعتبر طبيعياً أن يدفع المرء الكثير من الضرائب عندما يكسب الكثير من المال (وهذه حالها في تلك الفترة)، فإنها ترفض الاستخدام الذي كانوا يوظّفون فيه المال الذي «يقتَنِصونه» من الناس وتجد أن «من البشاعة أن يُؤخذ مالك من أجل صُنع صواريخ وقنابل ذريّة صغيرة» في حين أننا نمتلك بالفعل ما يكفي لتدمير الكوكب ثلاثين ألف مرة. كانت تأسى لكون مال الضرائب لا يُستخدم بشكلٍ عادلٍ أكثر، فيُوزَّع على التربية والصحة،

وأنه لا يذهب أيضاً بشكلٍ أوّلي إلى الناس الذين هم في ضيق من العيش («العالقين في المصيدة»، كما تسميهم)، وإلى المشافي، وبشكلٍ خاص للممرضات اللواتي سوف تدعم حركتهنّ في العام 1991، حين نشرت مقالاً كبيراً تبنّت فيه وضع وقضايا هؤلاء النسوة اللواتي كُنَّ يتظاهرن في الشوارع صارخات بغضبهن. «إنهن أولئك النسوة اللواتي يساعدنك، ويدعمنك، في تلك اللحظات الحرجة التي تكون فيها تحت رحمتهنّ، واللواتي قد لا يتوفر للمرء متسع من الوقت ليعبّر لهن عن شكره. كل هذا نُسيَ، مُرِّرَ، أُنكِر، رُفِض، كل هذا الإنكار يُقزّزني بعمق [...]». كما كتبت أيضاً: «هؤلاء النساء اللواتي يعهد المرء إليهنّ بنفسه، في أسوأ لحظات حياتنا [...] هؤلاء النسوة اللواتي نطلب منهنّ مساعدتنا على الحياة، ومساعدة الآخرين أحياناً على الموت [...] وفكرة أن يُدفَع لهُنَّ بشكلٍ سيّئ، أن يُستثمرنَ تبدو لي مريعة. [...]. إن عصرنا هذا لعصر غريب، حيث أولئك الذين يعلّمون الأولاد على العيش وعلى اكتشاف الحياة (المعلمون) وأولئك اللواتي يساعدننا على الإبقاء على حياتنا، وأحياناً على مغادرتها (الممرضات) منسيون ومظلومون. ليس هذا بغريب فحسب، وإنما هو مثير للغضب».

قبل ذلك بعشرين عاماً كانت قد جنّدت نفسها لمناصرة الإجهاض. وفي أبريل 1971، وقّعت بيان الـ 343 وهو منشورٌ أكّدت فيه ثلاثمئة وثلاث وأربعون امرأةً أنّهنّ قد أُجهِضن (وبهذا عرّضن أنفسهنّ للملاحقة الجنائية) وأطلقن نداءً من أجل حرية النساء في الإجهاض، والتوعية بخطورة ما يُمثّله في تلك الفترة الإجهاض بالنسبة إلى مليون امرأة مُلزَمة بالبقاء في الخفاء بعيداً عن متناول القانون. ما أثارها هو أن قضية الإجهاض أصبحت مسألة إمكانات ماليّة. «إذا كان لديك المال يمكنك، الذهاب إلى سويسرا أو إلى أي مكان آخر، وستجري الأمور على ما يرام؛ وإن لم يكن لديك المال، عليك الذهاب إلى بائعة الأجبان والألبان في الحي، التي تعرف شخصاً ما ليُدبِّر الأمور بطرق ملتوية غير مأمونة النتائج». كانت تجد من العار منح الحياة لكائنٍ بشري، إن لم نكن مُصمّمين على إسعاده. «لا يمكن للمرء أن يكون متأكداً من جعل طفلٍ سعيداً، ولكن يمكن التأكد من فعل كل شيء لجعله سعيداً».

مع ذلك فإن التزامات والدتي لم تكن دائماً بدافع الغضب والاستنكار.

لطالما وجّه البعض اللوم لساغان بسبب قلة التزامها في السياسة، متناسين في معظم الأحيان ذكر التزامها النابع عن إعجابها وتقديرها. كان هذا الإعجاب موجَّهاً بشكلٍ مفتوح، وبطريقةٍ ساطعة، إلى كُتّابٍ، ومخرجين، وسينمائيين، ورسّامين، ممن تُجلّهم بكل طاقتها، وبكل ذكائها. كانت تشعر بحاجةٍ لا تُكبح للتعبير لهم عن إعجابها العميق. فقد شكّلوا مصدراً كبيراً لسعادتها حتى إنها صارت تشعر بحاجة ملحة لتعريف الناس جميعاً بهم، حتى يتمكّن أكبر قدر ممكن من الناس من مشاركتها هذه السعادة. فهل هناك شهادةٌ على الاعتراف بالجميل، وعلى الكرم أكثر من ذلك. أحد أجمل الأمثلة على ذلك هو رسالة الحب إلى جان بول سارتر التي كتبَتها في العام 1980 بناء على طلب صديقتها نيكول فيزنياك حين أنشأت مجلة Égoïste وهي من أجمل المجلات وأكثرها أناقةً. «لقد كتبتَ الكتبَ الأكثر ذكاءً، والأكثر نزاهةً في جيلك، وحتى إنك كتبت أكثر كتب الأدب الفرنسي روعةً: *الكلمات*[1].»

كانت تُجلّ سارتر إلى حدٍّ بعيد جداً، لأنه كاتب ذو موهبةٍ كبيرة، ولكن بشكلٍ خاص لأنه يمتلك، بحسب رأيها، كل مواصفات العبقرية الإنسانية. لم يهتم سارتر على الإطلاق برأي الناس به، لم يهتم قط بما قد يراه الناس مُثيراً للسخرية. لقد حافظ سارتر دائماً على وعوده، واندفع دائماً بكل قوّته لنجدة الضعفاء والمُهانين. لقد آمن سارتر دائماً بقضايا وبأناس، وإذا ما أخطأ، يعترف دائماً بخطئه. لقد رفض سارتر على الدوام إمارات المجد. لم يتوقف سارتر عن العطاء، وجاد بكل شيء. «لقد أحببتَ، وكتبتَ، وتقاسمتَ، وأعطيت كل ما أمكنك إعطاؤه، أي ما هو مهم، وفي الوقت نفسه رفضت كل ما يُقدَّم لك، أي الأهمية.» بالنسبة إليها، سيبقى سارتر أكبر مثالٍ على الإنسانية، والذكاء، والكرم، والنزاهة، والشجاعة، وهي مزايا رفعها إلى مستوى المُثُل العليا. وكانت تتفق معه على تلك المثل ولم تدّخر وسعاً في محاولة الوصول إليها، رغم كل ما قيل عنها أحياناً إنها فاقدةٌ لكل أخلاقية. لا يبدو هذا الإعجاب بسارتر غريباً عن والدتي تماماً، فلقد رفضت مركزاً في الأكاديمية الفرنسية في منتصف التسعينيات، كما فعل هو حين رفض

1- الكلمات Les mots أحد كتب جان بول سارتر على شكل سيرة ذاتية ويتكلم فيه عن علاقته بالكتابة والقراءة.

جائزة نوبل للآداب في العام 1964. وعلى الرغم من أنها تذرّعت بأن اللون الأخضر[1] لا يُلائمها، كانت تعتبر أن المجد، والمكافآت، ومظاهر الإكرام والتبجيل، والأوسمة، غير مُتلائمةٍ مع مهنتها، مع قناعاتها، مع رغباتها، ومع أهوائها. إذ تجد فيها سِمةً جامدة، نهائيّة، لا تتغير، مُتناقضة تماماً مع روح وحياة كاتب. كتب سارتر: «ما من فنانٍ، ما من كاتبٍ، ما من رجلٍ يستحقّ التكريس في حياته، إذ إن لديه القدرة والحرية على تغيير كل شيء. كان من شأن جائزة نوبل أن تجعل مني تمثالاً فوق منصّةٍ، في حين أنه ما زال لدي أمور عليّ إنجازها وأن أتمتع بحريتي، وأن أعمل، وأن ألتزم.»

هذه الحماسة الفكرية والقلبية تجاه سارتر الذي أُعجبت بعبقريته (التي يشاركه بها، بحسب رأيها، مجموعة صغيرة، من ضمنها بروست وستندال ودوستويفسكي)، تجعلها تقول عن نفسها إنها لا تمتلك سوى «بعض الموهبة». فلطالما اعتبرت عملها أدنى من أعمال هؤلاء الكُتّاب الكبار، وليس ذلك على الإطلاق من ناحيتها شكلاً من أشكال التواضع المزيّف، أو التحفّظ المُتصنّع، بل هو تثمينٌ موضوعيٌّ لقيمتها هي بالذات ولنوعيّة عملها ككاتبة. كانت والدتي تقول إنها واعيةٌ على الدوام لكون رواياتها بعيدة كل البُعد عن موهبة بروست أو دوستويفسكي، وأن «مرحباً أيها الحزن» لا يُقارن بـ«دير بارما». هؤلاء الكتّاب الذين تُجلّهم يشكلون وحدهم أروع ما في الأدب، ويمثّلون ما يمكن أن يكون عليه الأدب في أكثر صوره إشراقاً. إنهم يُجسّدون العبقرية، والذكاء، والألَق، والجمال مجتمعين. ورغم أن والدتي بعيدة كل البعد عن تصوّر أنها قد تبلغ شأوهم، فإنها تتساءل ما إذا كان بإمكانها ذات يوم الاقتراب منهم، ولو قليلاً جدّاً، بتلك «الرواية الحقيقية» التي كانت تُكلّمني عنها أحياناً، والتي تنوي كتابتها، وعلى ما يبدو لي، لم ترَ هذه الرواية النور على الإطلاق. ومن ناحيتي، أُكنّ إعجاباً شديداً تجاه تواضع والدتي، وتجاه بساطة إعلانها عن حبها لأولئك الذين رفعتهم فوق كل شيء، وفوق الناس أجمعين.

بالإضافة إلى المزايا الأدبية التي كانت تُقرّ بها والدتي على أنها الأكثر

1- الثوب الذي يلبسه أعضاء الأكاديمية الفرنسية مزين بياقة مطرزة بالأخضر.

مثاراً للإعجاب لدى بروست، وستندال، ودستويفسكي، وفيتزجيرالد، وستايرون، ورامبو، وبعض الآخرين، كانت هناك المزايا الإنسانية لدى بعض الرجال العظماء، ممن قابلتهم، وعرفتهم فكانوا بالنسبة إليها أكثر من مجرد لقاءات، كانوا رجالاً أُعجبت بهم. إنهم سينمائيون، وراقصون، ورجال سياسة، ومُبتكرو أزياء، وأحياناً أصدقاء خُلّص. وكما باعدت بينهم مهنتهم (كدت أقول شغفهم) باعدت بينهم المسافة الجغرافية. فمعظمهم لا يعرف أحدهم الآخر، وحتى إنهم لم يلتقوا على الإطلاق. ولكنهم يتمتعون جميعاً بفهمٍ شخصيٍّ للعالم قل نظيره. جميعهم آمنوا بمُثلٍ عُليا، قيل لهم عنها إنها بعيدةٌ عن المتناول، جميعهم، مثلوها كلاً على طريقته، كانوا يضعون مصالح الآخرين قبل مصالحهم، ضاربين عرض الحائط بالروح الامتثالية الجامدة. جميعهم متميّزون بالكرم نفسه، وبطريقة الحب نفسها، الكاملة وغير المُغرضة. أسماؤهم؟ رودولف نورييف، جوزيف لوزي، فديريكو فلليني، فرانسيس سكوت فيتزجيرالد، بيتينا غرازياني، ميخائيل غورباتشيف، إيف سان لوران، أورسن ويلز.

ولكي تحبك ساغان، ينبغي عليك أن تعرف كيف تحب. بيتّينا غرازياني، عندما تنتهي من قصة حب، كانت قادرة على نسيان كل شيء، وعلى عدم إضافة أية كلمة، ومتابعة الحب بتحوّلها إلى صديقةٍ وفية وهذا أمرٌ نادر. كانت والدتي تقول عنها: «من المؤسف قول ذلك، إلا أنها خارج كل ما هو مألوف وسَويّ.» كانت بيتّينا صخرةً. وبما أنها صلبةٌ وغير قابلة للفساد، أصبحت الوحيدة من بين صديقات والدتي التي طالما تَغنّى والدي بمديحها. جوزيف لوزي هرب من أمريكا المُكرَّسة للعجل الذهبي، وتنقّل بين مختلف المهن الصغيرة لكي يُكرّس نفسه لشغفه الوحيد: السينما. ورُغم «ألف عاصفةٍ وأربع نساء كان قد يُعطي قميصه للآخرين، لا لنفسه[1].» وكما كان يقول: «ليس هناك شيءٌ آخر أفعله سوى أن أكون موهوباً، وأحياناً أن أُبرهن ذلك لذاتي، وأحياناً الوقوع في الخطأ، والاعتراف به لذاتي.» فرنسيس سكوت

1- جوزيف لوزي، مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي، تزوج أربع مرات وعاش حياة مضطربة فقد نفي من الولايات المتحدة بسبب دعمه للشيوعيين كما تعرض للمشاكل في بريطانيا لنفس السبب.

فيتزجيرالد جميل ويستثير الإعجاب. وكانت والدتي حسّاسة جداً للجمال البدني لدى بعض الرجال، وبشكلٍ خاص الممثلين الأمريكيين الذين سبق أن ذكرتهم عندما تكلمت عن السينما. عنه، كانت تقول إنه يحب الناس، والناس يحبونه. وعن تينيسي وليامز تقول إنه غير قادرٍ على الإيذاء، مثله مثل جياكوميتي، وسارتر وبعض الرجال الآخرين النادرين جداً. «كان طيباً ورجولياً، وما همّ أن يكون طيباً ورجولياً مع الفتيان الصغار في الليل، طالما أنه كذلك مع الجنس البشري بأسره في النهار.»

سوف أُنهي عرض هؤلاء الرجال العظماء بالنسبة إلى والدتي مع ميخائيل غورباتشيف الذي التقت به ذات مرة خلال رحلةٍ رافقت فيها فرانسوا ميتيران. لقد ذُهلت بعظمة وشجاعة هذا الرجل الذي صارع، وحده تقريباً، نظاماً بأكمله، ودفع بقدَر الأمة الأكبر والأكثر انغلاقاً في حينها، والأكثر رزوحاً في الجمود منذ أكثر من أربعين عاماً. لقد جابه غورباتشيف، متسلّحاً فقط بطموحه وبإنسانيته، كل ذلك النظام والمُتنفّذين من أعضاء الحزب في الكرملين، ورفض إغراءات الإحالةِ على المعاش الهادئة في ضاحيةٍ وادِعة. لم يكن يرغب بأمانٍ يكتسبه بمعزلٍ عن الآخرين. وراهن بحريته الشخصية باسم الآخرين ومن أجل الآخرين. لقد ظهر (كما ظهرت بيتّينا) غير قابلٍ للإفساد على الإطلاق.

سارتر، وبروست، وستندال، ودوستويفسكي، وفيتزجيرالد، وستايرون، ووليامز، ورامبو، وجياكوميتي، ونورييف، ولوزي، وفلليني، وبيتّينا، وغورباتشيف، وسان لوران، وويلز. كل هؤلاء استطاعوا معرفة كيف يحبون من خلال أعمالهم، أو في حياتهم، فأحبّتهم ساغان.

-21-

كان وضع والدتي المالي لحظة وفاتها في العام 2004 يكتسي طابعاً عبثياً جداً، وممسوخاً جداً، وغير منطقيٍّ على الإطلاق، حتى إنه أصبح لزاماً على من سيقبل بتركتها أن يكون لديه ميلٌ شديدٌ جداً للمخاطرة، وللمنازعة. ولو أنني قبلتُها حين ذاك (ومعها أيضاً الدين الذي يفوق مليون أورو)، لوجدت نفسي بالطبع، وبالحرف الواحد، في وضعٍ مماثلٍ لوضعها: مُجمَل حساباتي محجوزة، الحسابات المصرفية، والحقوقُ المتوجّبة على الناشرين، وتلك المتوجّبة على جهات الإدارة والاستثمار لحقوق الكاتب، ومنها مؤسسة الكتّاب والمؤلّفين الدراميين، ومؤسسة مُلحّني ومؤلفي وناشري الموسيقى.

في تلك الفترة، خضعت عائدات والدتي بنسبة مئة بالمئة للخصم من المورد الذي تطالب به الصناديق المختلفة صاحبة الديون (وهي عديدة): الدوائر البلدية السادسة والسابعة والثامنة في باريس، وخزينة هونفلور، إذ يعود القسم الأكبر من الدين إلى هذه الأخيرة. ومن الواضح تماماً، كانت عائدات والدتي (العائدات المُحتجَزة) خاضعة للضريبة. وبما أن هذه الضريبة لا يمكن تسديدها بسبب تلك الحجوزات بالذات، فسيتولّد عنها أيضاً إضافات وعقوبات مترافقة أحياناً بالغرامات. وهكذا، خلال سنواتها الأخيرة، لم تقبض والدتي فرنكاً واحداً لتعيش به؛ وأُشيعَ أيضاً أنه أُلغي لها معاشٌ تقاعديٌّ زراعي زهيد، ما يُعادل خمسمئة أورو في يومنا هذا. انهار وضع والدتي المسكينة الضريبي بشكلٍ كامل منذ سنواتٍ، وبشكلٍ غير مضبوط نهائياً؛ كنت أعرف أنها خالية الوفاض، لم تعد تعمل، إلّا فيما ندر، ويعود ذلك بشكلٍ رئيس لأسباب صحية. ومن جهتي أنا، ثارت ثائرتي وانفجر غضبي بسبب ذلك المنعطَف الغريب بكل معنى الكلمة الذي اندرج

فيه الوضع. فصحّتها المترنّحة، المُترافقة مع ملاحقات الدّائنين، جعلت الأمور تنهار بسرعة.

منذ البداية، جعلتني والدتي بمعزلٍ عن هذه القضايا. إذ إن مبادئنا تفرض ألّا يتم الكلام عن المال فيما بيننا. وهذه القاعدة تُطبِّقها أيضاً مع أهلها. وإذا ما حصل أن ذكرنا المال في بعض أحاديثنا، فإنّ ذلك يتم لمناقشة بعض العموميات. مثلاً، حول التأثير المتنامي الذي بدأ يشغله في بعض الأوساط، أو لدى بعض الناس. لم نتطرّق قط إلى الأرقام، ولا العقود، ولا حقوق الاقتباس، ولا لأي نوعٍ من أنواع البيع، ولا حتى الحقوق. وإذا ما كانت هذه الكلمات مألوفةً بالنسبةِ لي، فإنني لم أكن أفهم معناها على الدوام. وبسرعة، أتاح لي اضطلاعي بشؤون أعمالها الأدبية ردم تلك الثغرات.

وبغض النظر عن مسؤوليتها التي لا يمكن إنكارها بعد كل تلك السنوات من الإهمال تجاه أعمالها وتسديد ضرائبها، ما أثار حفيظتي هو عدم تدخّل أحد أياً كان من أجل وضع حدٍّ لهذا الاستقتال ضدها، وذلك رغم مشاكلها الصحية وصعوباتها الشديدة التنوع، ورغم تلك العُصبة من الأصدقاء التي تشكّلت، والتي أخذت على عاتقها حلّ أمورها عنها، وبشكلٍ خاص في الصحف. لا أحد من أصدقاء السيد شيراك، ولا من أصدقاء السيد تييري بريتون، وزير المالية في تلك الفترة، اعتبر أن من المفيد الإصغاء إلى نداءات مساعدة تلك المرأة التي جعلت صورة فرنسا تشعّ بأَلَقها عبر العالم. وإذا أخذنا الأمور بشكلٍ سطحيٍّ أكثر، هي التي درّت، منذ نشر «مرحباً أيها الحزن»، قبل ما يقرب من خمسين عاماً، ملايين الفرنكات من ضريبة القيمة المُضافة إلى الخزينة. لم يعتبر أيٌّ منهم أنّ عليه التدخّل من أجل تأمين دخل أدنى كافٍ من شأنه أن يتيح لها العيش بكرامةٍ، دون أن تضطرّ إلى طلب ما تعيش به مِمَن هم حولها.

وبالإضافة إلى وضعها المالي الكارثي في لحظة رحيلها، كان وضعها في مجال النشر هو أيضاً في حالةٍ مُزريةٍ تماماً. فقد أحدث إعلان وفاتها في وسائل الإعلام بالطبع عودةً للاهتمام بأعمالها، فسعى الكثيرون إلى شراء كتبها من المكتبات، أكان ذلك بدافع الفضول (بالنسبة إلى أولئك الذين لم يقرأوها قط)، أو بسبب الود (بالنسبة إلى أولئك الذين قرأوها ثم تناسوها

بعض الشيء). ولكن ورد إلى أسماعي بسرعة أنّه، باستثناء بعض العناوين النادرة، كانت روايات فرانسواز ساغان قد نفدت. وحتى إنّ هذه الملاحظة المُحزنة ذُكرت خلال أحد البرامج التلفزيونية قدمه غيّوم دوران، عربونَ تحيّةٍ لوالدتي. وهكذا، خلال الشهور التي تلت وفاتها، في بداية العام 2005، كان كل شيءٍ يدفعنا إلى الاعتقاد (أو أن الناس جميعاً كانوا يريدون إقناعي)، بأن أعمال ساغان محتضَرة وما مصيرها إلا الزوال الأكيد. وهكذا، بعد رحيل والدتي، صار لزاماً عليَّ أن أشهد أيضاً زوال أعمالها، وزوالها ككاتبة.

منذ فصل الخريف في الأسابيع التي تلت وفاتها، حاولتُ الاتصال بوزارة الثقافة، وأنا أعلم أنها اتّصلت بها في وقت سابق، في صيف 2004، في محاولة لإيجاد مخرج لوضعها. وأنا بدوري، كنت أود معرفة ما كان متصوَّراً فعله من أجل فكّ الكماشة التي تخنقها بشكلٍ كامل. ومع هذه الوزارة، أدركت بسرعة أنني أدور في حلقةٍ مُفرغة، وأنّ مواعيدنا المهذَّبة دائماً، والودودة، لم تكن لتقودنا إلى أي مكان. كما أنني أُعلِمت بشكلٍ غير مباشر من قبل الوزير، السيد دونديو دي فابر، أن الطابع الضريبي المُميَّز لملف والدتي يجعل كل مبادرةٍ من جهته منذورة للفشل، وأن عليَّ التوجه مباشرةً إلى وزير المالية السيد تييري بريتون. وعلى هذا، منذ شهر أغسطس 2005، كتبت رسالةً إلى وزير المالية أُعلمه فيها بقلقي بخصوص تركة والدتي؛ وأن هذه التركة خاضعة لدينٍ يجعل قبولها مستحيلاً في وضعها الراهن، وأن الطريقة الوحيدة لتصوّر تسويةٍ هي في إعادة إطلاق استثمار حقوق التأليف العائدة لها، ووضع خطة للتطهير التدريجي للدَّيْن، أي ما يشبه مهلة سدادٍ تسمح بالتسديد الكامل.

استُقبِلنا في وزارة المالية، أنا ومحاميَّ الأستاذ جان إيتواريس، منذ شهر أكتوبر الذي تلا رسالتي. وهكذا، جلسنا حول مائدةٍ كبيرة وكان عددنا عشرة أشخاص. كل واحدٍ من محاورينا كان قد ارتبط، بشكل أو بآخر، بملف والدتي، وهذا ما جعلني أعتقد في قرارة نفسي أن مُجمَل المشاكل التي تسببت بها أكبر بكثير مما قد تخيّلته. كان الجوّ مُكفهرّاً والوجوه مقطّبة. وشعرنا بشكلٍ سريع، أنا ومحاميَّ، أن ملف ساغان لن يكون موضع أي تسامحٍ خاصٍ، كما تأكّد تخوّفي حول الضيق، لا بل العدائية النسبيّة، اللذين

قد يتسبب بهما ملف والدتي لدى بعض الإدارات. واليوم أعتقد أنه كان هناك العديد من الأسباب لهذه الضغينة. راح ملف والدتي الضريبي يجول في أروقة وزارة الماليّة منذ بداية «متاعبها»، أي منذ قُرابة خمسة عشرة عاماً. وبالإضافة إلى كونه قد أُثقِل بالديون العديدة التي لا تفتأ تُضاف إليه، فإنه أُثقِل أيضاً بوزن التحوّلات السياسية الكثيرة، منها ما هو ودّي (في ظل حُكم فرانسوا ميتيران)، ومنها ما هو مُعادٍ (عند تغيّر الأكثرية، وقضية Elf) والتدخّلات التي تماشت مع ذلك.

وبعد أن قدّمنا، أنا ومحاميَّ اللامع، عرضاً صادقاً عن الوضع، وبعد أن وُعِدنا بموعدٍ جديد بعد ذلك بثلاثة أشهر، مُترافقٍ باقتراحات محسوسة، لم يحصل أيّ شيءٍ على الإطلاق. في ربيع 2006، أي بعد رحيل والدتي بسنةٍ ونصف السنة، كانت تركة والدتي ما تزال مجمَّدة، دون أن يكون هناك أية بارقة أمل، أو أن يسعى أيّ شخص، لتغيير الأمور. من ناحية الإرث الأدبي أيضاً لم يتحرك أي شيء قيد أُنملة، وبدا الوضع مسدوداً إذ إنه يستحيل عليَّ التدخّل به، من حيث إنني محرومٌ من كل شرعيّةٍ طالما أنني لم أقبل بالتركة بشكلٍ قانوني. فمثلاً، لم أكن مخولاً بتوجيه رسالة إلى ناشرٍ أو حتى الاتصال به بالهاتف، لأطلب منه كشف حسابٍ، أو نسخةً عن عقد نشرٍ. وأن مثل هذه الخطوة تجعلني أبدو بمنزلة الوريث، وبالتالي قد تُعرّضني لأن أُعتبَر قابلاً للتّرِكة بحكم الأمر الواقع. وأن هذا العجز عن التصرف وعن اتّخاذ القرارات راح يزيد أيضاً من نفاد صبري، ومن إحباطي. وهكذا أصبحت تلك الحالة غير معقولة من حيث أننا صرنا، أنا ومحاميَّ، بحاجةٍ إلى أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات حول وضع ترِكة والدتي. احتجنا إلى نسخ عن عقودها لمعرفة طرق الاستثمار المنصوص عليها لكلٍّ من أعمالها؛ وتوجّب علينا معرفة عمليات البيع التي حقَّقها الناشرون في السنوات الأخيرة، ومعرفة أين وكيف تُباع الكتب، الخ؛ أخيراً كان عليّ الحصول على إثبات أن البعض من ناشريها (أو واحداً منهم على الأقل)، قد تخلّوا إلى حدٍّ ما عن استثمار مؤلفات والدتي في فرنسا وذلك منذ سنوات (منذ فترةٍ سابقةٍ على رحيلها بزمنٍ طويل)، وأنهم يكتفون منذ ذلك الحين بقبض الأتعاب الناجمة عن الاستثمارات المُرتبطة بذلك في الخارج من قبل ناشرين آخرين. وإذا ما

أصبحت الحاجة إلى استلام التِّركة ملحّةً جداً، فإن ذلك لم يكن من أجل ردّي بكلمة «نعم» أو «لا» التي ستكون قطعيّة، وستربطني بشكلٍ نهائيٍّ بترِكة والدتي، بقدر ما هو لأن الوقت قد أدركني، وأصبحت أعرف أن الإدارة التي لم تبدأ بعد بملاحقتي، لن تنتظرني إلى ما لا نهاية حتى أقرر. ما زال لدينا بعض الوقت للتفكير وللعمل إلا أن هذا الزمن صار محسوباً علينا. لقد استخدمناه لمصلحتنا أنا ومحاميَّ للتقدّم في أبحاثنا؛ كنا نبحث بشكلٍ أساسيٍّ عن أشياء مقيتة، تبعث على الغثيان، وخطِرة. ونحاول جاهدين تقدير قدرتها على إلحاق الضرر؛ إذ إنه ينبغي علينا تحصين أنفسنا ضدّ تلك الأشياء بعد قبول الترِكة. كان ينبغي التسلّح بأفضل شكلٍ لمجابهة طُغمة الدائنين (الذين نجهل عددهم بالضبط)، علماً أن مجرّد رؤية وجههم لم تكن لتوحي لنا بأي شيءٍ سار. الدائن الرئيس من بينهم كانت الدولة الفرنسية، التي تمتلك أكثر من ستين بالمئة من الديون. ومع ذلك لم تكن هي التي تُخيفني أكثر. كنت أعلم أننا لو أوجدنا في نهاية المطاف اتّفاقاً (وكنت أميل إلى التفكير بأنها الفرضية الأكثر معقولية) فسوف نسير على طريقٍ مرسوم حيث، إذا ما احترم كل منا التزاماته، كان لديّ حظوظٌ جيدة أن أرى الدَّيْن وقد سُدّدَ بالكامل خلال ثلاثين أو أربعين عاماً. وكنت أعتقد أن الوقت على الأرجح لن يكون عدواً للدولة الفرنسية بقدر مما هو عدو لبعض الأفراد. وبالفعل، الأربعون بالمئة المتبقية، والمتوجّبة، كانت موزَّعة بشكلٍ غير متساوٍ بين دائنين خاصّين (ملاّكين لم تُسدَّد لهم إيجاراتهم، ومُستخدَمين تم تسريحهم بشيء من التعسف فعرضوا قضيّتهم على محاكم العمل، وأصحاب سندات دين لأجل مديد يُطالبون في الوقت الحاضر بتسديد فوري لمستحقّاتهم...) وهؤلاء بالطبع كانوا أقل استعداداً لتخيُّل تقسيطٍ لدينهم بعد أن انتظروا قُرابة ثلاث سنوات لكي أُصبح الوريث. قام محاميَّ جان بعملٍ حاذقٍ إلى درجةٍ كبيرة، إذ راح يتوجه إليهم كلما سنحت له الفرصة، ويُقدّم لهم عروضاً بدت، بعد وفاة والدتي بثلاث سنوات، شبه ميئوس منها. وهكذا قطع الطريق على كل مطالبةٍ فائضةٍ عن حدّها من قِبلهم.

وإذا ما كنت خلال هذه الفترة الطويلة التي امتدّت من وفاة والدتي في سبتمبر 2004 وحتى شهر يونيو 2007، حيث قبلتُ رسمياً بالترِكة، قد

جعلت البعض يعتقدون أنني ما زلت أتردد، فإنني كنت أعرف في قرارة نفسي (وعرفت ذلك بشكلٍ حدسيّ منذ اليوم الأول)، أنني سأقبل هذه التركة، وذلك مهما كلّفني الأمر. كنت مستعداً لترك مهنتي كمصوّر، وهذا ما فعلته في نهاية الأمر؛ ولا أعتقد أنها ستشكل خسارةً كبيرة، فرُغم أنها تؤمن لي مورداً جيداً للعيش، فإنني مُفتقر إلى الموهبة الضرورية. وبشيءٍ من التجرّد، أُدرك الآن أن كل الأحداث، كل المحَن، وكل المخاطر، بشكلٍ خاص، التي كان من شأنها تثبيط عزيمتي منذ شهر سبتمبر عام 2004، حيث رحلت والدتي كما يُقال وحيدةً منسيّة، لم تؤدّ على العكس إلا إلى تقوية قناعتي ورغبتي باستعادة إرثها، وردّ الاعتبار لذكراها. خلال هذه السنوات السبع الماضية، أثبتُّ قدرتي على التصميم الذي لم أكن أتصوّر أنني قادرٌ عليه، والذي ضمّ إليّ عدداً لا بأس به من الأشخاص، حتى من أولئك الذين اعترضوا على تسلّمي للتركة. البعض منهم تخوّفوا من ضخامة العمل الواجب القيام به لإعادة تنظيم أعمالها إذ اعتقدوا أنني، ما إن أحشر أنفي فيها، حتى أتراجع فزِعاً، تاركاً خلفي فوضى أكبر بكثير من سابقتها؛ والبعض الآخر أرهبتهم تلك الهُوّة التي ينبغي عليّ ردمها، والتهديد بالحجز، وبالدعاوى التي كانت تُمثّلها «الطُّغمة» مما أصابهم بالخوف على توازني وتوازن عائلتي.

في ربيع 2006، لم يصل الرد الذي وعدَتنا به الإدارة، كما أنه لم يصل خلال الصيف. وأنا أعلم أن هذا الصمت ليس عائداً إلى نوعٍ من الإهمال، أو التأخّر في معالجة الملف، وإنما هو يعبّر بكل وضوح عن رفضٍ قاطعٍ وأكيد.

لم أكن أجهل أن أيّ رفضٍ، في ظلّ أية حكومةٍ كانت بشكلٍ خاص، وفي حالتنا تلك في ظلّ حكومة السيد شيراك، يُعتبَر نهائياً، وأن أيةَ محاولة جديدة ستبوء بالفشل. وإذا ما صدر قرار بعدم قبول الدعوى، أعرف أنه لن يحصل أيّ شيءٍ بعد ذلك، إلا في حال حدوث تغيّر جذري (كالانتخابات، على سبيل المثال). كنا في بداية خريف 2006، ووجدتُني في طريقٍ مسدود، إلّا أنني مازلت سليماً مُعافى. وبفضل هذا المحامي الموهوب الذي التقيت به بعد وفاة والدتي، والذي عرف كيف يَقيني من أكبر المخاطر، لم أتعرض لهجومٍ يومي من مجموعةٍ من مُحضري المحاكم الغاضبين، ولا رُميت

في الشارع. ولكن لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الطريقة التي ستمكنني من الخروج من هذه الورطة.

في المرحلة الأولى، كان لا بدّ لي من الانتظار حتى يمضي السيد شيراك، ووزير ماليّته (وقد أصبح الأمر وشيك الحدوث)، أي بالضبط بعد ستة أشهر، إذ إننا كنا نشهد إرهاصات الانتخابات الرئاسية لعام 2007. ولو لم تكن الأمور على هذا المنوال، لتعرّضت على الأغلب إلى هجوم شرس شبيه بما تعرّضت له والدتي، ولوقعت بالكامل تحت الحجز، أي لا شيء مهم (بضعة أجهزة تصوير، وجهاز ماكنتوش، وبعض اللوحات)، ومن يدري ربما انتهى بي الأمر متسولاً استجدي لقمة العيش. ولكن، بشكلٍ خاص، سيبدو الأمر كهزيمة كبيرة على المستوى المعنوي إذ إنني سأتخلى عن تركتها بشكل إلزامي وبالإكراه، وهذا يعني أن أعمالها سوف تُباع قطعةً قطعة في المزاد العلني لتسديد ديونها. تلك الفرضية وهي الأكثر مدعاة إلى الحزن، التي لم يكن بوسعي الامتناع عن التفكير بها من وقتٍ إلى آخر، من شأنها أن تعني أيضاً أن بلدها لم يعد يعترف بها، وأنه سيتغطّى بالعار إذ إنه أنكر تلك التي قدّمت له الكثير، والتي كانت معبودته في فترةٍ ما. (وهذا يعني أيضاً أنني سأحمل حقائبي، وسأغادر فرنسا دون عودة). كان لديّ شعور أن والدتي، أن أعمال والدتي الأدبية، سوف تُعرض على الملأ للإهانة من قِبل أشخاصٍ لم يقرأوا كتبها جيداً (أو لم يقرأوها نهائياً) وهذه الفكرة البسيطة كافية لجعلي أستشيط غضباً. أن تُصبح والدتي كمن عفا عليه الزمن، بكلّ غرابةِ أطوارها، وحماقاتها، بعد أن أمضت عصراً ميموناً وهي تحتفل، وتلعب في الكازينو، وتدعو شُلّةً من الأصحاب حولها، وتنطلق بأقصى سرعةٍ في سيارتها، كنت أتصوّر ذلك وأقبله إن لزم الأمر، ولكن حينها سيكون عصرنا التافه المسيخ هو الجدير باللوم. وأن تكون أعمالها، ورواياتها أيضاً، قد فات أوانها، وفي غير موضعها، ومميتةً بضجرها من حيث إظهارها المتكرر لتلك البرجوازية المُنعمة، المتحررة من الأفكار، واللامبالية، وأن يكون اهتمام القُرّاء قد فتر، وأن الأعمال بمجملها أصبحت أهلاً للرمي في سلة المهملات، فهذا أمر أنا مستعد أيضاً للقبول به، وفهمه، وتقبّله. على كل حال، لن تكون الكاتبَ الأول، ولا الأخير، الذي يذوب في ثنايا نسيان القرن العشرين، الذي لم

يصفح لبعض كتّابه عن افتقارهم إلى الواقعية. ولكن قبل رمي كل شيء في السلة، كنت أعتقد أنه لا يعود لي أنا بالذات، ولا لناشرها، ولا لوزارة الثقافة، ولا كذلك لوزارة المالية، اتّخاذ القرار بذلك. لا. كنت أعتبر أنّه، إذا كان لأحدٍ ما أن يحكم على مستقبل أعمالها، وعلى مصيرها بالنسبة إلى الأجيال القادمة، فهو الجمهور والقُرّاء. إذن، القرّاء وحدهم يمكنهم اتخاذ القرار حول مصير «موسيقاها الصغيرة[1]» فيما إذا ما كانت ستجتاز مشارف هذا القرن الجديد. ولن يكون الأمر على خلاف ذلك. ضمن هذه الفوضى غير المعقولة، لابدّ أن يكون هناك شيءٌ من الحسّ السليم. ينبغي إذن أن نعمل بحيث يُعاد نشر كتب والدتي حتى ولو كان ذلك رغماً عن كل شيء، وضدّ الجميع، وكنت مستعداً لأي شيء في سبيل تحقيق ذلك. فربما أكتب إلى عظماء هذا العالم الذين أعرف أنهم مازالوا يحبونها (إلى بيل كلينتون، أو ميخائيل غورباتشيف، أو إيلي فيزيل، على سبيل المثال لا الحصر)، ولكُنتُ رفعت دعوى أمام محكمة العدل الأوروبية مُشيراً إلى أن فرنسا لا تحترم واجبها بحماية ودعم إرثها الثقافي، وأخيراً، كوسيلةٍ نهائية، كنت سأبني خيمةً وأضع يافطةً عريضةً في شارع بيرسي يُمكن أن يُقرأ عليها: «ينبغي *بكل تأكيد* إنقاذ الكاتبة ساغان» وبكتابة « *بكل تأكيد*» بالخط المائل، و(كما فعلَتْ بَراقشُ) كنت سأحرّض كل الصحافة ضدّي. أعتقد أن نتيجة ذلك ستكون مضمونة، بما فيها وضعي قيد الحراسة الجبرية.

انتظرتُ حصول معجزةٍ وأنا أتحرّق، مع علمي بأنّ المعجزات لا تحصل على الإطلاق في مثل هذه الظروف. شعاع الأمل الوحيد الذي بقي أمامي تمثّل في قرب الحملة الانتخابية وعلى الرغم من أنني بعيد جداً عن الاهتمام بالحملة السياسية (فمصير الأمة يأتي، بالنسبة إلي، بعد مصير أعمال والدتي)، نصحوني بإصرارٍ بالكتابة إلى السيد ساركوزي. لقد كان الوحيد على ما يبدو القادر على إخراجي من هذا الطريق المسدود، وصار يبدو، يوماً بعد يوم، أنه صاحب الحظ الأوفر بالنجاح من بين كل المُرشَّحين. في أكتوبر 2006، كتبت له رسالة وجهتها إلى وزارة الداخلية في ساحة بوفو، شرحت له فيها

1- تستخدم فرانسواز كثيراً هذه الصفة (رواياتها الصغيرة وسيارة الفراري الصغيرة واللوتس الصغيرة...) محملة إياها شحنة عاطفية خاصة.

عن يأسي، وعن صعوباتي، وعن أهمية إيجاد مخرج لذلك الوضع الشائك الذي أتخبّط فيه. (وفي هذا الصدد، أكدت على كون وزارة المالية، وقد عمل فيها ذات يوم، بقيت صمّاء تجاه طلباتي). استلمت بعد ذلك بأسبوعين رداً من السيد ساركوزي يُعلمني فيه بتفهّمه للأمر، وأنه سيكلّم في الحال وزير الموازنة، السيد تيري بريتون ووزير الثقافة السيد رينو دونديو دي فابر. وبهذا أكون قد عدت إلى خانة الانطلاق، إلا أنني لفتّ انتباه ساكن الإليزيه الجديد حول الخطر المحدق بإرث والدتي؛ ورحت أُطمئن نفسي مُؤملاً، بنتيجة التعديلات التي ستطرأ بعد رحيل السيد شيراك، أنني سوف أجد أشخاصاً أكثر مراعاةً لوضعي.

وبعد وصول نيكولا ساركوزي إلى الإليزيه، في ربيع 2007، كان لابد من أن تمضي أسابيع طويلة، وأن يحصل، بشكلٍ خاص، شيء ما عجائبي وغير مأمول لكي تُرفَع أخيراً تلك اللعنة التي تُثقلُ على «ملف ساغان» على مدى كل تلك السنوات الطويلة. في بداية الصيف، بالضبط في 26 يونيو 2007، وإذ تعبت من الانتظار وأثقلَت عليَّ الآمال المزيّفة، وفي حين لم يكن قد وُجِد أيّ اتفاقٍ جديد، قررت ركوب الخطر، وقبلت تركةَ والدتي أمام الكاتب بالعدل. وتبيّن أن ضربة الحظ تلك قد أعطت أُكُلَها. فمنذ ذلك الحين، ومن خلال لقاءاتنا المتتالية في وزارة المالية، اتّضح أن لدينا أسباباً أفضل في كل مرة لتعزيز آمالنا. وهكذا، بدءاً من أول شتاء 2007، اتّخذت الأمور منحىً جديداً بوضع خطةٍ تسمح بتسديد كامل خصوم والدتي الضريبية. وبعد ثلاث سنوات من النضال، أصبح من المتوقّع أخيراً تحقّق أملٍ ما، وهو ليس من أقلّها شأناً.

وكما قلت سابقاً، لن يتاح لي الأخذ بزمام الأمور على هذا المركب المليء بالماء إلا بقبولي بتلك التركة. إذن، من الآن فصاعداً، أصبحت سيد ذلك المركب، وحرّاً في اتخاذ أية مبادرة، مما يعني أيضاً أنني أصبحت معرّضاً للرياح والعواصف، وإلى غضب بعض الدائنين. ومنذ خريف 2007، اضطررت إلى كتابة وتجميع ملف مذكرات من بضع مئة صفحة، كان أشبه بتقرير شامل حول نتاج أعمال فرانسواز ساغان منذ 2001، من أجل تكوين

فكرة عن العائدات المحتملة للسنوات التالية. كان عليّ طمأنةُ بيرسي[1] حول فكرة أن تلك الأعمال، إذا ما استثمرت بشكل صحيح، ما زال بإمكانها أن تكفي لسداد الديون. وهكذا، في تلك الفترة، وبينما كنا، أنا ومحاميّ، نتفحص بإمعان حسابات استثمار أعمال والدتي، اتضح أن مخاوفنا الأكثر قتامة لم تأتِ من فراغ. لقد تأكد لنا أن أعمال فرانسواز ساغان في حالة إهمال شبه تامة منذ قرابة أربعة عشر عاماً. فمن العناوين التسعة والثلاثين التي تضمها قائمتها، فقط كان هناك سبعة متوفرة في المكتبات. وتنبع أسباب هذا الإهمال بشكل رئيس من أن لا أحد، طيلة تلك الفترة، اهتم على الإطلاق بأي شيء. كانت والدتي قد عهدت بإدارة أمورها لمحامين (إذ لم يعد لديها أية وسيلة لدفع أتعابهم إلا هذه)، ولكن يبدو لي أن هؤلاء لم يؤدّوا دورهم كما يجب. فالبعض منهم أرادوا بشكل خاص التقرب من ساغان في حياتها، والآخرون اختفوا بنفس السرعة التي ظهروا فيها بعد أن أصابهم الهلع من جسامة المهمة.

بالإضافة إلى كون هذا التدني في الاستثمار لأعمالها يسهل نسيان فرانسواز ساغان بشكل تدريجي، حاولنا فهم أسباب هذا التخلي و«هذا الإهمال». ولكن الأخطر من ذلك أيضاً، أن عدم الاستثمار ذاك يقف عائقاً في سبيل وصول إيرادات جديدة، فيعيق تسديد الدين.

ومن جهة أخرى، فإن ذلك النزر اليسير من العائدات التي تحققت، كانت تقع في الحال تحت وطأة الحجز، مولدة هي بالذات ديوناً ضريبية. وحين حرمت والدتي من العائدات بهذا الشكل، لم تكن تدرك أن السبب عائد لكون البعض من ناشريها قد أخذوا غفوة. لقد استمر هذا الوضع وحتى إنه تأزم بعد وفاتها. وهكذا، عندما استعدت تركة والدتي، وجدت نفسي في وضع شبيه إلى حد بعيد بوضعها عند رحيلها، قبل ذلك بثلاث سنوات. لم أكن أتمتع بأيّ دَخْل، وورثت ديناً لا يمكن التغلب عليه. رغم كل شيء، بقيت مطمئناً نسبياً إذ إن وزارة المالية تبدو الآن مستعدة لمنح الوقت اللازم لامتصاص ديون والدتي. من جهة أخرى، ورغم خوفي من أن يكون اختفاء أعمالها على مدى

1- اسم الحي الذي توجد فيه وزارة الاقتصاد والمالية. والمقصود هنا الوزارة بالذات.

كل تلك السنوات قد أصبح كافياً لجعل الناس ينسون ساغان، كنت أتلقى بانتظام أخباراً جيدة من الكاتب بالعدل (الموكل بالتركة قبل قبولي بها) الذي كان يبقيني على علم دائم بمختلف طلبات اقتباس، واستثمار، وترجمة أعمال والدتي، وهي عديدة. كان ذلك مبعثاً للراحة. وعلى الرغم من صمت ساغان اللاإرادي[1]، لم تكن قد وقعت بعدُ في النسيان، على الأقل في الخارج. وكما كانت الأمور وهي على قيد الحياة، بقيت والدتي موضع اهتمام حقيقي في روسيا، في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة، في ألمانيا، وفي الولايات المتحدة حيث كان هناك مشروع لاقتباس «مرحباً أيها الحزن» قيد الدراسة (إذ، بعكس ما تدعيه كاتبة السيرة، لم يكن ويلبيك[2] الكاتب الفرنسي الوحيد الذي يبيع أعماله في الخارج)؛ لقد باعت والدتي أحياناً في الخارج كتباً أكثر مما تبيع في فرنسا، وبشكل خاص في البلاد الشرقية حيث ما زال الناس يعتبرونها أيقونة. ولكن كانت الأولوية معطاة لإعادة استثمار الكتب (إذ إن والدتي هي قبل كل شيء كاتبة) وما إن وقّعتُ تلك الوثيقة التي ربطتني بشكل نهائي وغير قابل للرجوع بذلك الإرث الكبير، أردت أن أفهم لماذا أصبح من شبه المستحيل إيجاد كتاب لساغان في المكتبات. بعض العناوين مثل «المرأة المتبرجة» و«إجابات» سبق نشرها عند ناشرين ما عادوا موجودين واستطعتُ استعادة حقوقها بشكل آني. بينما كانت أعمال أخرى: تباريح الروح (Des bleus à l'âme)، الكلب المتربص (Le chien couchant)، لمحة مفقودة (Un profil perdu) عند ناشر لم يعد يستثمرها، وقد اضطر بعد أن وجهت له رسالة مضمونة إلى إعادة حقوق الاستثمار إلي (إذ إن القانون الفرنسي ينصّ على أن كل مالك لعمل أدبي يحق له استعادته من المباع له إذا لم يستثمره كما هو متفق عليه).

ومع الناشر الرئيس لوالدتي، الذي كان يمتلك حقوق سبعة عشر كتاباً من كتبها، ومن بينها «مرحباً أيها الحزن»، والذي لم يكن يستثمر منها سوى ثلاثة (أو أربعة) منذ عدة سنوات، حاولت اتخاذ احتياطات أكبر. فطلبنا، أنا

1- ربما المقصود اختفاء أعمالها المفتعل من السوق.

2- 1956-.... ميشيل ويلبيك، طبيب وكاتب وسينمائي يعتبر من أشهر الكتّاب الفرنسيين. وقد ترجمت كتبه إلى أكثر من أربعين لغة.

ومحامي منذ نهاية 2007، من محضر المحكمة إثبات أن هناك أسماء اثني عشر عنواناً لم تعد متوفرة في المكتبات. وحينها وجهت رسالة إلى ذلك الناشر منذ منتصف ديسمبر، أعلمته فيها بأنه لا يفي بالتزاماته «بالاستثمار الدائم والمستمر، والتوزيع التجاري، طبقاً للأعراف في المهنة». فأرسل لي رداً بعد ذلك ببضعة أيام أكد لي فيه أن «أعمال والدتي قد مرت بالمصير الاعتيادي للأعمال الروائية. وأن اهتمام القراء يخمد، على مر الزمن، وأن المبيعات تشحّ.» وبالتوازي مع ذلك، اعتبر الناشر بأنه قد وفى بالتزاماته، إذ نشر مجلداً كبيراً يضم اثني عشر عنواناً من كتب والدتي. فأبديت استيائي. إذ كيف لقارئ مُعسِر شحّت موارده، أكان طالباً أو شخصاً متقاعداً، يرغب في قراءة «ابتسامة ما» مثلاً أن يتمكن من شراء مجلد كامل من أعمال ساغان. مثل هذا الأمر يفتقر إلى المنطق.

وربما تسرعتُ بعض التسرع في إبداء فرحتي برد ذلك الناشر الذي اعتقدته قد تعب من الاحتفاظ بأعمالٍ لم تعد تباع، وخمد اهتمام القراء بها، معتقداً أنه سوف يعيد إليّ حقوقها. منذ شهر مارس 2008، قام الناشر بحركة التفاف سريعة، وأعاد نشر العناوين الاثني عشر من أعمال والدتي دفعة واحدة، دون إعلان، ودون دعاية، ودون ترويج. لم يكف هذا التحول المفاجئ لمحو تلك الفترة الطويلة التي حرم فيها المكتبة من روايات فرانسواز ساغان، فرفعت ضده دعوى في المحكمة. وكانت تلك المرة الأولى، وآمل أن تكون الأخيرة، التي اضطررت فيها إلى القيام بمثل هذه الدعاوى. وأصبح لدي شعور مقيت أن عدد الأشخاص المتورطين في القضية كان يشوه الأسباب الحقيقية لمشروعي ذاك. كان عليّ الإصغاء لدفاع الخصم يرميني بعبارات السخرية، وأن أسمع أناساً (لم يعرفوا والدتي) ينسبون إليها كلمات ونوايا لا أعرفها فيها على الإطلاق، وهي شنيعة جداً. كان ذلك، في الوقت نفسه، بشعاً ومزعجاً إلى حد هائل. أصبح لدي شعور بأن هناك تطفلاً على حياتنا، وخرقاً لعلاقتنا في الصميم. ومما زاد في الطين بلّة، تبين لي، لسوء الحظ الشديد، أن المحامي الذي دافع على فترة طويلة عن حقوق والدتي في أعوام الثمانينيات، والذي كانت تكن له مودّة حقيقية وتوليه ثقة تامة، أصبح محامي دار النشر المدّعى عليها. لقد تضافرت الظروف التعسة فجعلتنا فجأة نقف

وجهاً لوجه، وكنت أعتقد أنه، لكونه قد عرف والدتي بشكل جيد وأنه قد اهتم بأعمالها، قد يكتب لي كلمة، أو يرسل لي رسالة، ليعلمني بقراره، سلباً أم إيجاباً، بفصم تلك الصداقة وتلك الثقة التي وضعتها والدتي فيه خلال تلك السنوات الطويلة. ولكنه لم يفعل أي شيء. مما اضطر محاميَّ إلى إجباره على التخلي عن الدفاع عن الناشر.

وقبل بدء نزاعنا، عندما التقيت بذلك الناشر في نهاية صيف 2007، ادعى هو أيضاً أنه كان مقرباً جداً من والدتي، وأن علاقاته معها ممتازة (وهذا ما لا أعترض عليه). علماً بأنني لم أر قط ذلك الرجل في منزلنا، لا على الغداء، ولا لتناول كأس من الشراب، ولم تكلمني عنه على الإطلاق. بينما كنت أرى، وبشكل منتظم، جان جاك بوفير وهنري فلاماريون (قبل أن يدب الخلاف بينهما) وفرانسواز فيرني وأوليفييه أورباني، في باريس، وحتى في منزلنا في النورماندي. هل كانت والدتي قد اختارت أن تنشئ مع هذا الناشر علاقة سرية جداً، وممتازة جداً، كما هي علاقتها مع سارتر أو ميتيران أو فلورنس مالرو؟ لا أعتقد ذلك. كما أنني لا أعتقد أن تكون علاقتها مع ناشرها باهتة دون أي معنى، إذ لا بدّ للشخص الذي يهتم بكتبها أن يكون بنظرها مهماً جداً، ولا بد أنها كانت لها ثقة مطلقة وعلاقة صداقة مع هذا الأخير لكي تعهد إليه بنص كانت قد فكرت فيه زمناً طويلاً وأرهقت نفسها في العمل به، ولم تدخر في سبيله أي جهد. أعلم أن والدتي كانت تبدي شكاوى قديمة جداً ضد دار النشر تلك، وذلك منذ رحيل مؤسسها في عام ولادتي، وقد قادتها تلك الشكاوى إلى تركه والعمل مع فلاماريون في نهاية الستينيات. كانت قد بدأت تبدي أسفها، في تلك الفترة، ومنذ شراء دار النشر من قبل شركة كبيرة، أنهم ما عادوا يكلمّونها إلا عن العقود والمال، بدلاً من الأدب. أما هنري فلاماريون من جهته، فكان يتكلم عن الكتب. وعندما التقت به قال لها: «كان لدى والدي راقصة اسمها كوليت. في تلك الفترة كانت المرأة الوحيدة التي تعمل في مجال النشر. ومنذ ذلك الوقت ونحن بحاجة إلى راقصة.» فما كان من والدتي إلا أن أجابته: «لك ما أردت. إنني أرقص بشكل رائع» وقال فلاماريون لوالدتي ما كانت ترغب بسماعه: إنه يتمنى أن تبقى لديه على مدى الحياة وإنها، حتى عندما تصبح عجوزاً ومفلسة، فإنه سيهتم

بها، وإن المال ليس بذي أهمية كبيرة، وإنه ينبغي أن تكون هناك ثقة كبيرة بين الكاتب والناشر. لقد أحبت والدتي هذا الأمان المعنوي، وأنها ليست مضطرة إلى الكلام عن المال، ولا شيء سوى المال، وألا تشعر بنفسها مشتراة ككيس فحم.

وبمناسبة الحديث عن الشؤون المالية، أخذتني دهشة كبيرة عندما ادعى هذا الناشر أن كل مناوراتي (ويقصد بذلك الدعوى التي رفعتها ضده) لا تهدف إلا إلى كسب بعض المال والاغتناء. يبدو لي أنه حين يريد المرء الاغتناء وكسب المال يبدأ بعدم قبول دين يفوق مليون أورو، وهو غير متأكد من أنه سوف يستعيده قبل موته.

لقد لاحظت بهذا الصدد بشكل سريع نوعاً ما، وبشكل غريب، أن كون الإنسان مديناً بهذه الضخامة يمنح شيئاً من الحماية من الانتهازيين المحتملين ومن المحتالين الذين قد يأتون ويحتكون بوارث ساغان، والذين، على العكس، هربوا مرتعبين عند إعلان تلك المبالغ التي اكتشفوا أنني مدين بها لبعض الدائنين. وكما كانت تقول والدتي، عن حق: «ثقلُ المال يمنع الإنسان من التسامي. إن له تأثيراً على أولئك الذين يمتلكون المال بقدر ما يؤثر على أولئك الذين لا يمتلكونه.»

في شهر أكتوبر 2009، وبفضل مثابرتنا، كما أعتقد، وعلاقة الثقة التي توصلنا إلى إقامتها مع المسؤولين في وزارة المالية، حرّرنا ووقّعنا اتفاقاً يتيح لي تعويض الدولة الفرنسية بموجب جدول زمني وشروط مقبولة لكلا الطرفين. كنت أحرص على ألا تشعر الدولة بأنها على وشك المضيّ في قضية لا نهاية لها، حيث لا ترى تسديد الدين وقد اكتمل (وأعتقد أنها لما قبلت بذلك) ولكن كان لا بد أن يبقى لي المال الكافي لأعيش وأسدد أتعاب محاميّ ومحاسبي، والنفقات المتفرقة الناتجة عن التركة بعد تسديد الدين، والمخالصة على ضرائبي. أخيراً، بعد خمس سنوات من الجهد ومن الإصرار ومن التعقيدات المتنوعة، تمت تسوية مسألة تسديد دين والدتي الضريبي. أقر بأن ذلك اليوم الصيفي كان مصطبغاً بارتياح وبسعادة لم أشعر بهما منذ زمن طويل. ولم يتبق الآن إلا استثمار الأعمال بأفضل شكل، وإعطاؤها فرصة أكبر على الانفتاح والنجاح، وجعل الناس يتكلمون

عن ساغان في محيطهم (وكان ذلك سهلاً نسبياً إذ إنها بقيت محتفظة، بعد موتها بخمس سنوات، بصورة سليمة لم تمس، حيث يختلط الكرم، والمودّة والروح العصرية)، وبعث الأمل بأن تترجم أو تقتبس في الخارج «رواياتها الصغيرة»، كما كانت تسميها، إذ إن كل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى إنقاص فترة تسديد الدين للخزينة الفرنسية.

ويبدو لي في نهاية تلك السنة 2009، أنني كنت تحت تأثير اقتران نجوم سعدي الأكمل، إذ إنني، قبل توقيعي للاتفاق مع الدولة بضعة أسابيع، وجدت ناشراً (بل عليّ القول رجلاً عجائبياً) قَبِلَ بإعادة نشر العناوين الأربعة عشر من أعمال ساغان تلك التي تمكنت من استعادتها خلال سنوات حملتي تلك. وبعد خمس سنوات من البحث المرير، ومن الطلبات المتكررة، ومن النضال، وبعد أن تكبدت الكثير من العناء لإعادة إيجاد هذه العناوين الأربعة عشر، اعتقدت أن من الضروري بشكل مطلق أن تجمع، بشكل فعلي، عند ناشر واحد. وحتى إن مجرد فكرة أي تشتت للأعمال أصبحت صعبة القبول لدي. ورحت أحلم بعد ذلك بجمع كل كتب والدتي في دار نشر واحدة، وتحت سقف واحد.

الآن أصبحت مسألة الدين تجاه المصالح الضريبية مسوّاة. وبفضل مهارة محاميّ توصلت إلى اتفاق مع الدائنين الآخرين الإفراديين. وأخيراً وجدت الثقة والصداقة في دار ستوك لترويج روايات والدتي اليتيمة. ولم يتبقَّ علي سوى الذهاب إلى المحكمة من أجل مواجهة الناشر أمام العدالة الذي، بحسب رأيي، قد أخل بالتزاماته حين توقف عن نشر مجمل الكتب التي كان يمتلك حقوقها. أخيراً عقدت الجلسة في نهاية العام 2010، في 7 ديسمبر، واتضح بسرعة أن الموقف لن يكون لمصلحتنا. فبالإضافة إلى لسان محامي الخصم اللاذع، كان لا بد لنا من مواجهة انعطافة من قبل الناشر الذي راح منذ تلك اللحظة يقدم تفسيراً مختلفاً لكونه توقف عن طبع الكتب منذ وقت طويل: فجأة، لم يعد السبب في شح المبيعات عائداً إلى فتور اهتمام القراء، ولكن والدتي، عندما رأت أن أعمالها تسير بشكل سيئ، وعندما وجدت نفسها محاصرة بالضرائب، ومحشورة من كل الجهات، هي نفسها التي رجت الناشر إيقاف نشر كتبها. وبالمناورة بهذه الطريقة تكون قد

أمِلت إنقاص حصتها من العائدات لخفض مبلغ الضرائب بشكل كبير في العام التالي.

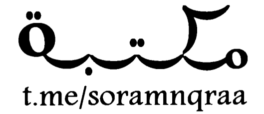
وعلى هذا تكون والدتي قد طلبت إيقاف نشر كتبها التي تمثّل أدنى حد من عائداتها. ولكنها لم تطلب إيقاف ريع بيع حقوقها وبشكل خاص للمستثمرين الأجانب علماً بأنها تمثل الجزء الأكبر من عائداتها عن أعمالها. كان هناك ما يثير التساؤل. والأغرب من ذلك أيضاً، أن هذا الناشر، من بين الناشرين الثلاثة الذين كانت تتعامل معهم في تلك الفترة، هو الوحيد الذي طلبت منه العمل بهذه الطريقة. الناشران الآخران، غاليمار وبلون، لم يتلقيا قط مثل هذه التعليمات، أكان ذلك شفهياً أم كتابياً. هذه الادعاءات التي جعلتنا نقفز من المفاجأة أنا ومحامي في قاعة المحكمة كانت مذهلة بقدر ما هي غير معقولة. ليس لأن الناشر لم يكن لديه قط أية بيّنة خطية عما يدّعيه، ولكن لأن ذلك كلّه غير متوافق مع طبيعة وطبع والدتي. في الواقع لا يمكنني تصور أن تقول والدتي لناشرها، أو لأي أحد آخر، بضرورة كبح، بل الأكثر من ذلك، بتوجيه ضربة مُشلّة إلى أي شيء مهما كان، وبالأخص في الوضع الحالي، حين يتعلق الأمر بالمال، إذ إن والدتي كما قلت سابقاً، قد أنفقت بشكل حر دائماً دون المطالبة برأي ولا بنصيحة من أحد أياً كان. وأن تكون انتظرت عمر الخمس والستين عاماً لتطلب من ناشرها القيام بعمليات توفير، كان شيئاً مضحكاً بكل بساطة، إن لم نقل في منتهى السخافة. وهذا يعني عدم المعرفة بطباعها، هي التي نبذت على الدوام الاعتدال، والتقتير، والأمان. «إنني أكره عند الآخرين الشعور بالأمان وما يجعلك مطمئناً. لا يريحني سوى الإفراط [...]. إنني منجذبة إلى كل ما ليس مُطَمْئِناً. [...] لا أحب امتلاك المال ولا توفيره». مثل هذه التصريحات كانت تؤكد شكوكي حول ادعاءات الناشر بأنه يعرفها جيداً، وأنه على علاقات ممتازة معها. وأخيراً توصلت إلى أن ألمح في كون الناشر ينسب إليها عبارات بعيدة جداً عنها، وذلك بعد كل تلك السنوات، شيئاً من الاحتقار تجاه والدتي.

ولكي ننتهي من هذه القضية التي، كما أتمنى، ستكون آخر قضية من قضايا ساغان، أود القول إن المسألة ليست مسألة مال، وهذا ما دعاني إلى الإسهاب حول هذه النقطة. وليست تلك النسخ القليلة من كتب ساغان التي

قد تباع في إحدى مكتبات ليموج أو شالون-سور-سون هي التي سوف تملأ خزائن الدولة، أو ستتيح لي شراء لمبورغيني. ما أريد الدفاع عنه هي فكرة بسيطة جداً تتمثل في أن تتمكن سيدة تسكن في ليموج أو في مونتيليمار من إيجاد «خفقات قلب» عند صاحب مكتبتها، دون أن يكون عليها إنفاق ثلاثين أورو.

في شهر أبريل، وبينما أنا أكتب هذه السطور، ما زلنا ننتظر، أنا ومحامي، أن نُبلَّغ بموعد دعوانا الاستئنافية. فقد خسرنا في المحاكمة الأولى.

اليوم، اختفى عملياً عالم ساغان الصغير. لقد غار وابتلعته طرق حياتنا الحالية، والثورات في نهاية القرن الماضي، ومعها مضت شخصياتها ذات الحياة التي كنا نصفها بأنها سهلة، غير مبالية، وغالباً خفيفة. ولكن عند إعادة قراءة كتبها، أجد عند كل شخصية من شخصياتها التي لن تغادرنا قريباً، رغبة في الحياة وحاجة إلى إغداق المحبة.



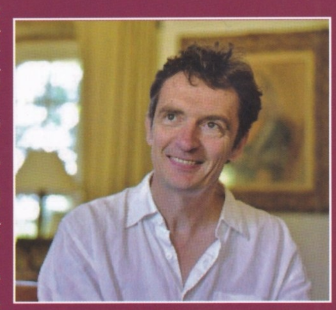
العناوين المذكورة

Un certain sourire	ابتسامة ما
Réponses	إجابات
Des bleus à l'âme	تباريح الروح
Garde du cœur	حارس القلب
La Chamade	خفقات قلب
Un matin pour la vie	ذات صباح وطيلة الحياة
Toxique	سموم
Encore un hiver	شتاء آخر
Des yeux de soie / Les Fougères bleues	عيون من حرير / السرخس الأزرق (اسم الفيلم)
Château en Suède	قصر في السويد
Un peu de soleil dans l'eau froide	قليل من الشمس في الماء البارد
Cajarc au ralenti	كاجار على البطيء
Le chien couchant	الكلب المتربص
Un profil perdu	لمحة مفقودة

La femme fardée	المرأة المتبرجة
Bonjour tristesse	مرحباً أيها الحزن
Aimez-vous Brahms	هل تحبين براهمز

لا يُخطئنَّ أحدٌ الظن. أنا لست كاتباً، ولا أنا بمالكٍ لحقيقةٍ مطلقة. لقد حاولت جاهداً على مدى هذه الصفحات تدوينَ الوقائع التي كنت شاهداً عليها. شاهداً متيقّظاً أحياناً، ومتسليّاً أحياناً أخرى. وحتى شاهداً منبهراً من وقت إلى آخر. ولكنني لم أكُن قطّ شاهداً سلبياً عليها، عديم التأثر. وأيّاً كانت الصبغة التي يصطبغ بها هذا الكتاب من حسن النية، ومن الصدق، ومن الأمانة، ومن التعلّق بوالدتي، فإنه يظلّ انعكاساً لحقيقتي. فالمكانة المميّزة جداً التي شغلتها بقربها تضعني الآن في موقفٍ غير مسبوق تقريباً، ومُلزِم. موقف مصحّحٍ لأخطاء كتّاب السِّيَر. إنني أراهم جيداً، أولئك الذين يتوقعون مني أن يوجّه هذا الكتابُ ضربة مكنسة على كل ما سبق أن قيل، وحُوّلَ، وكُرّرَ، حول حياة والدتي منذ سنوات. وأراهم أيضاً جيداً أولئك الذين اندفعوا قبلي في رواية حياة ساغان، والذين لابدّ أنهم يرتعدون الآن.

أُكرر قولي، إنني لا أمتلك الحقيقة المطلقة وغير القابلة للدحض عن والدتي، فإن موقعي بقربها لم يسمح لي بالإفلات من أسطورتها. وربما أخون ضميري لو أكّدت أنني لن أختبئ خلفها أبداً. وإذا كان من الصعب على ولدٍ المقارنة بين والدته وبين أسطورةٍ هائلةٍ إلى هذه الدرجة، فإنه من الصعب أيضاً الدّأبُ على جعل هذه المِرآة المُشوّهة مُطابقة للواقع إلى أبعد حدٍّ ممكن. إنني لا أمتلك إذن، إن جاز لي التعبير، سوى جزءٍ بسيطٍ من حياة والدتي.



لقد قمت بعمليةٍ حسابيةٍ سريعة. فلو حذفنا اللحظات التي لم أكُن فيها موجوداً بعد، وتلك التي كنت فيها موجوداً إلا أنني بقيت معنّداً على عدم التلفّظ إ بالكلام المغمغم، وتلك التي أبعدتنا فيها الحياة أحدنا عن الآخر، (الأسفار، والغزوات، والتنقل بين البيوت، والفترات العصيبة)، فقد أمضت والدتي نصف حياتها معي. (في حين لو أننا حذفنا هذه الفترات نفسها من حياتي للاحظنا أنني، في يوم رحيلها، كنت قد أمضيتُ أربعة أخماس حياتي معها).

وعلى هذا لا أكون شاهداً، مهما كان تيقّظي وموضوعيتي، إلا عن نصف حياةٍ.